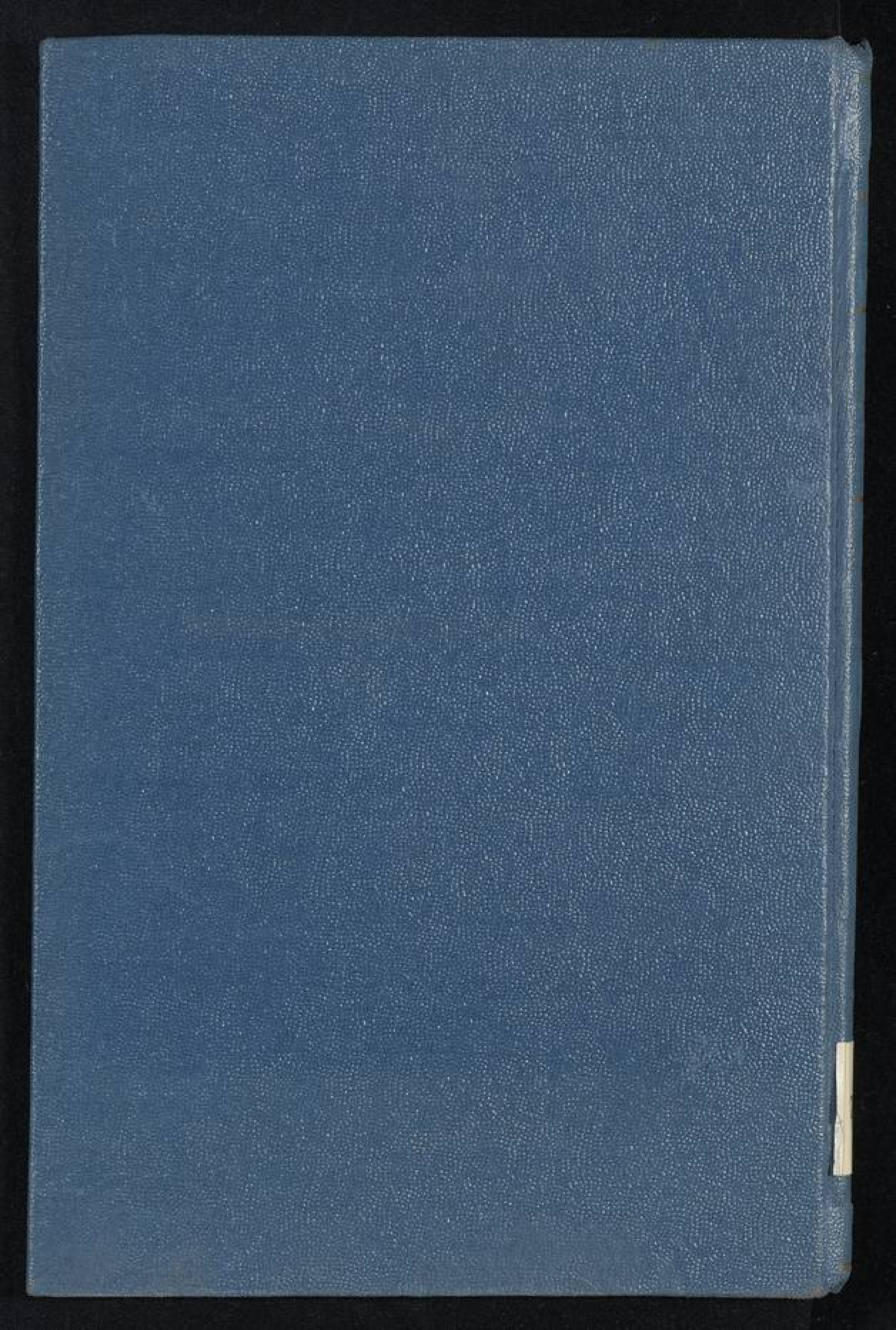
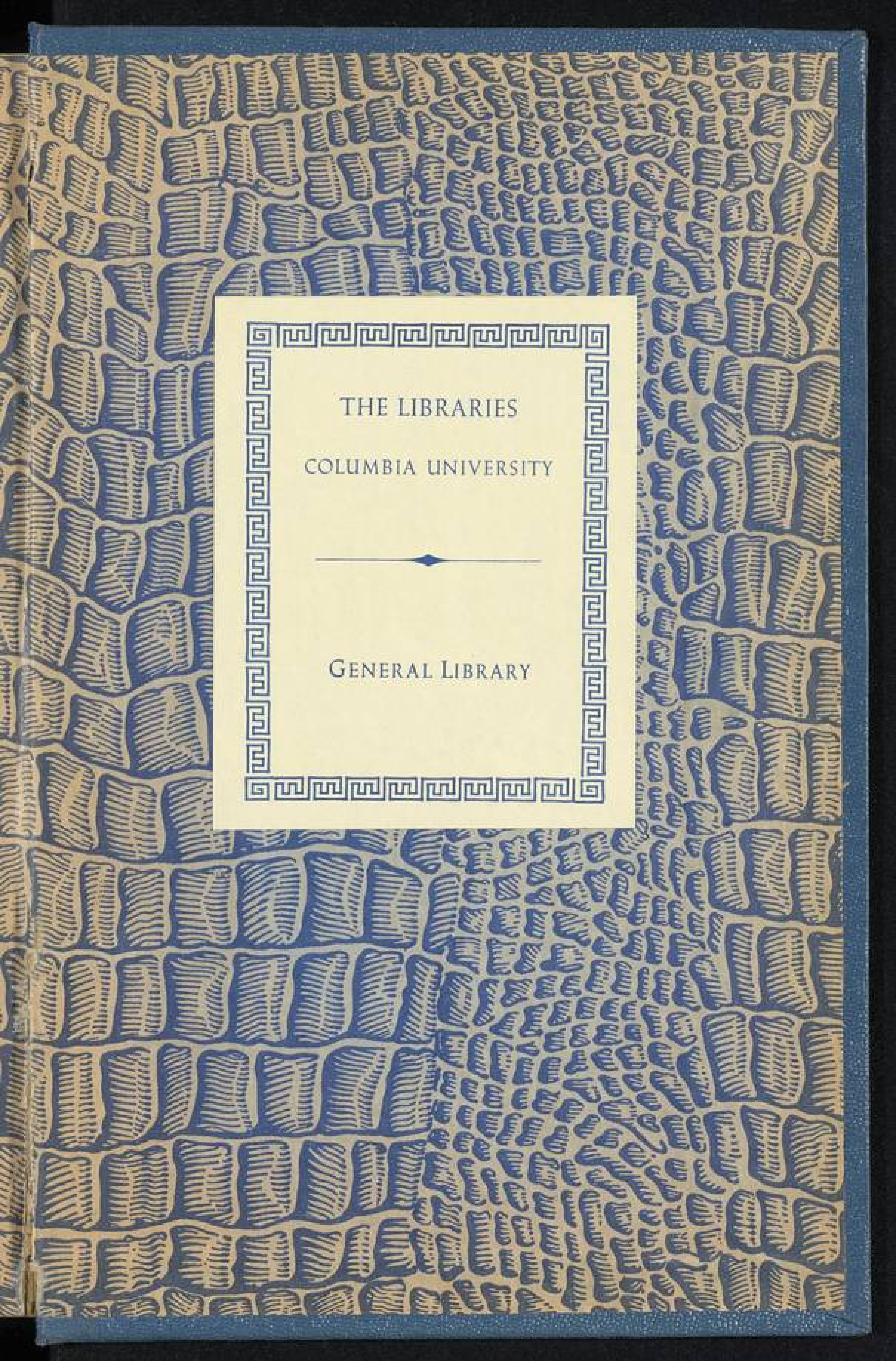
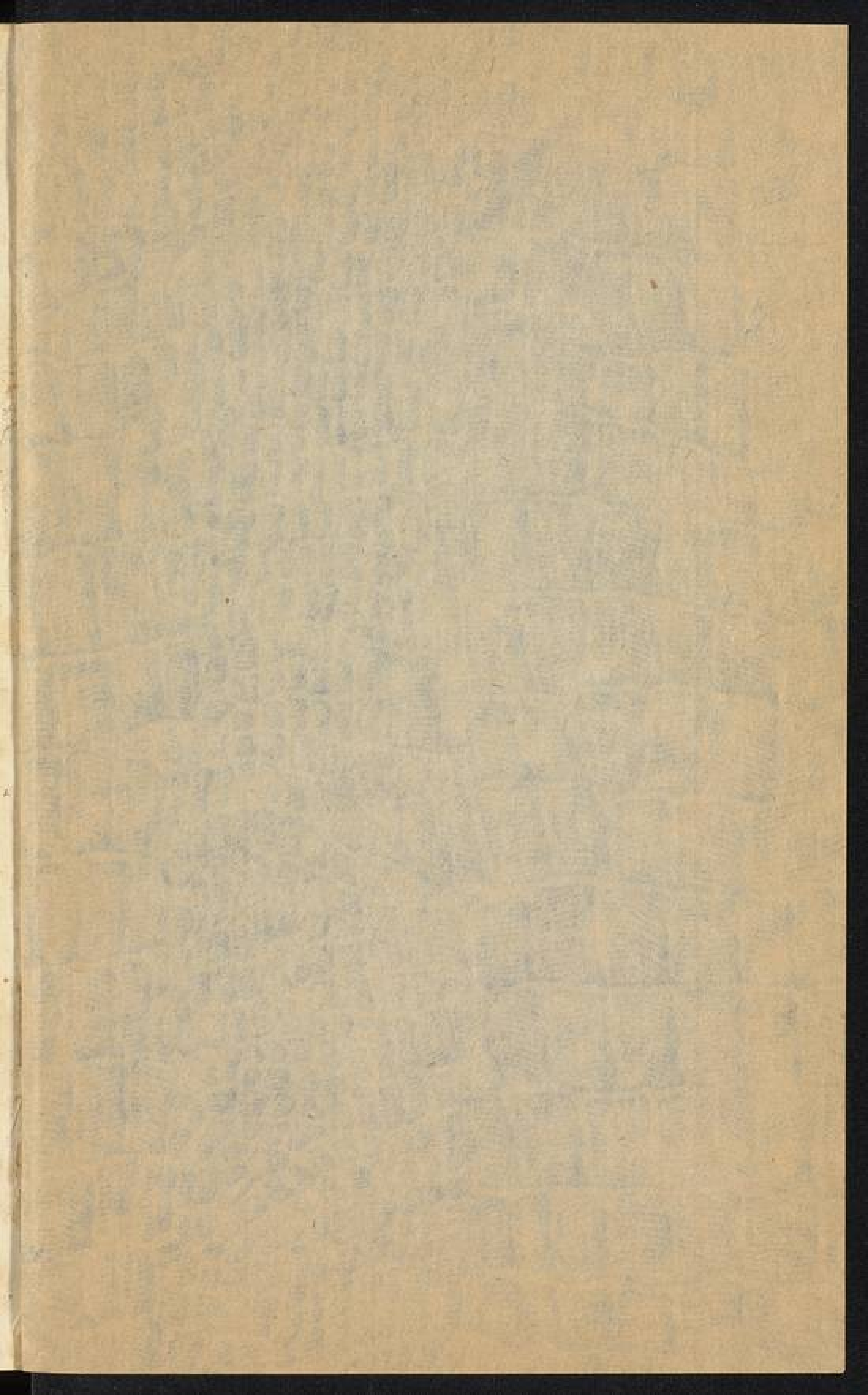


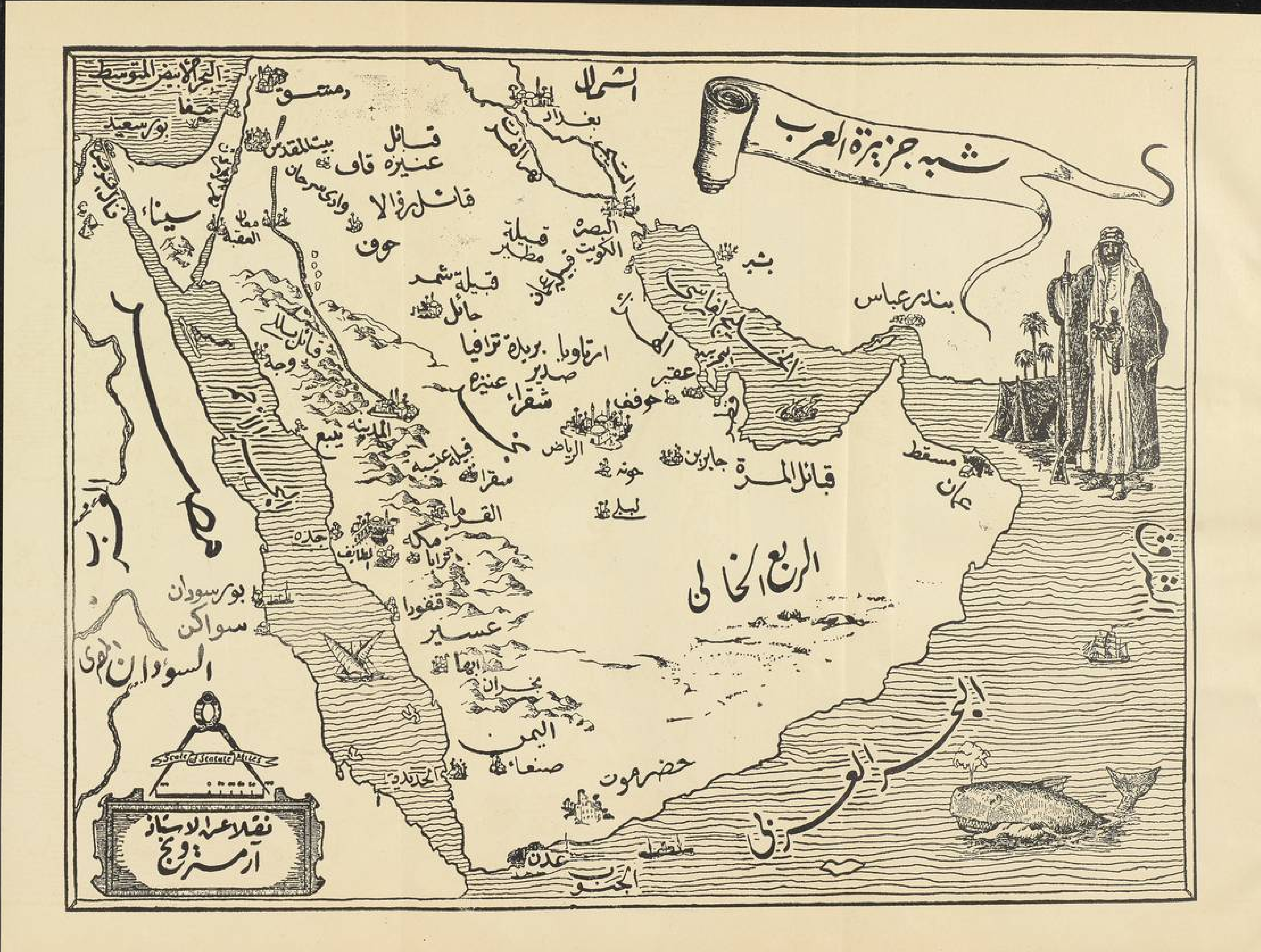

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



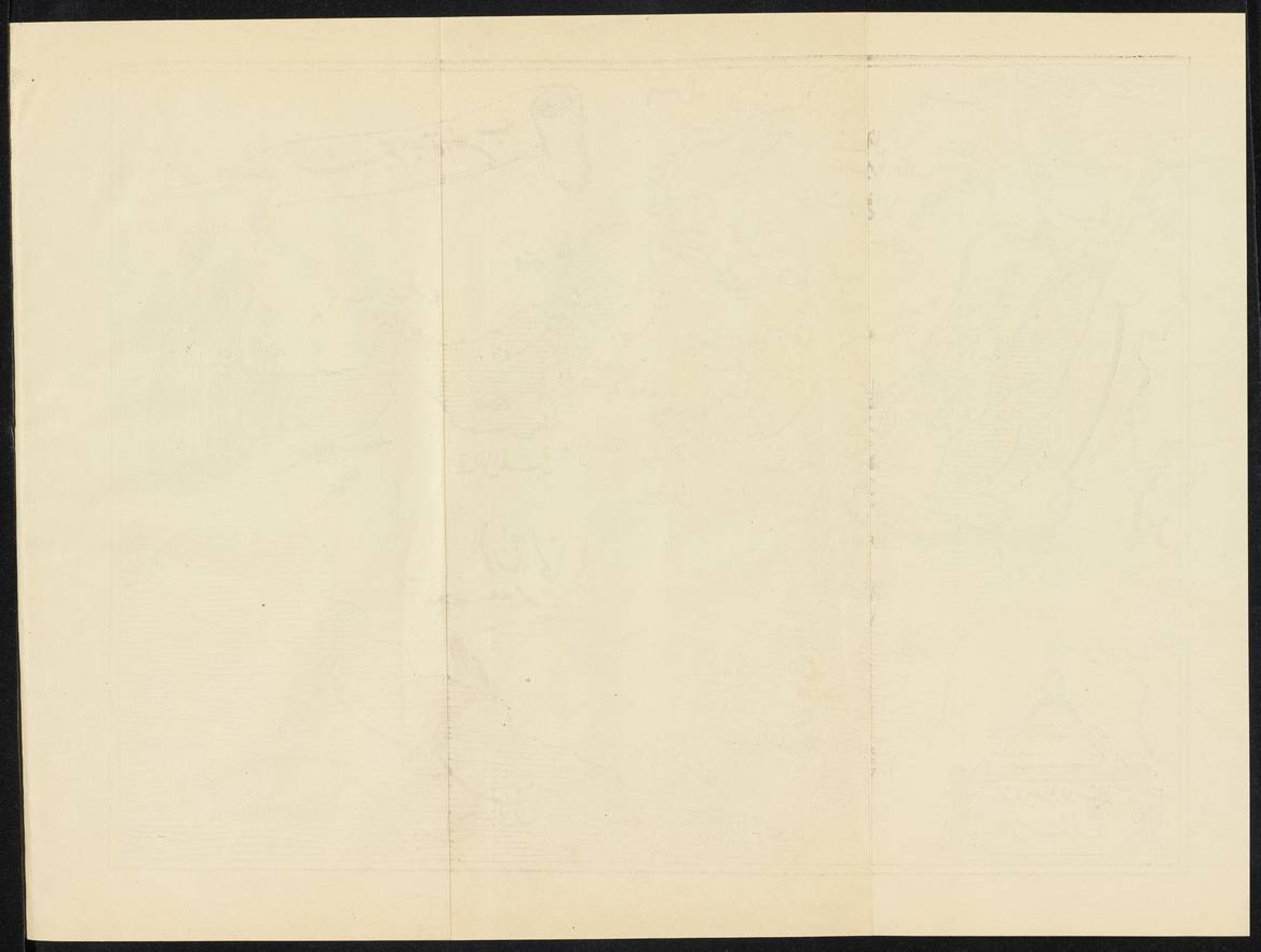


فهرس

كتاب «ابن سعود»



شبه جزيرة العرب
الشمال
بغداد
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
حيفا
بور سعيد
بيت المقدس
قبائل عنيزة
قاف
وادي سرحان
قبائل روالا
جوف
سيناء
معان
العقبة
البصرة
الكويت
قبيلة مطير
بندر عباس
قبيلة شمر
حائل
قبائل بلي
وجه
ارطاويا
بريدة
صدير
عنيزة
شقراء
عقير
الرياض
المدينة
ينبع
قبيلة عتيبة
جابرين
قبائل المرة
مسقط
عمان
ليلى
مكه
جده
الطائف
الربع الخالي
بور سودان
سواكن
السودان
قنفودا
عسير
ابها
نجران
اليمن
صنعاء
الحديدة
حضرموت
عدن
الجنوب
البحر العربي
مصر
Scale of Statute Miles
نقلا عن الأستاذ
آرمسترونج



كلمـــة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العـالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبـــه أجمعين .

وبعد فلمـا كانت مكة المكرمة ــ التى هى قبلة العالم الاسلامى ــ أشرف بلاد الله قاطبة ؛ ومنها انبثق فجر النبوة ، وأشرقت شمس المعرفة وبزغ قمر الهداية ، وكانت العروة الوثقى التى لا انفصام لهـا . كان لزاماً على كل من يتسم بسمات الاسلام ، ويتصف بالحنيفية السمحة ، أن يحن اليهـا حنين الأم لولدها ، وأن يمد يد المعونة لأهلها الذين هم ــ فى الواقع ــ من خواص أهله ، وكرام عشيرته ! لا أن يمنعهم ما يستحقونه شرعاً ، وما هو مسئول عنـه يوم لا يستطيع الأداء ولا الوفاء « يوم لا ينفع نفساً إيمـانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمـانها خيرا »

وقد أوقف كثير من الخيرين بعض دورهم وأراضيهم على تلك البلاد المقدسة ــ ولهم أعالى الجنات بمـا فعلوا ــ إلا أن بعض من أكل صدورهم الحسـد ، وقطع قلوبهم الطمع ، قد منع وصول هذا الخير لأربابه ، وذلك الحق لأصحابه . فصدق عليهم المثل العـامى

القائل «لا يرحم ، ولا يدع رحمة ربه تنزل» فالويل لهم مما كسبت أيديهم ، وويل لهم مما يصنعون !

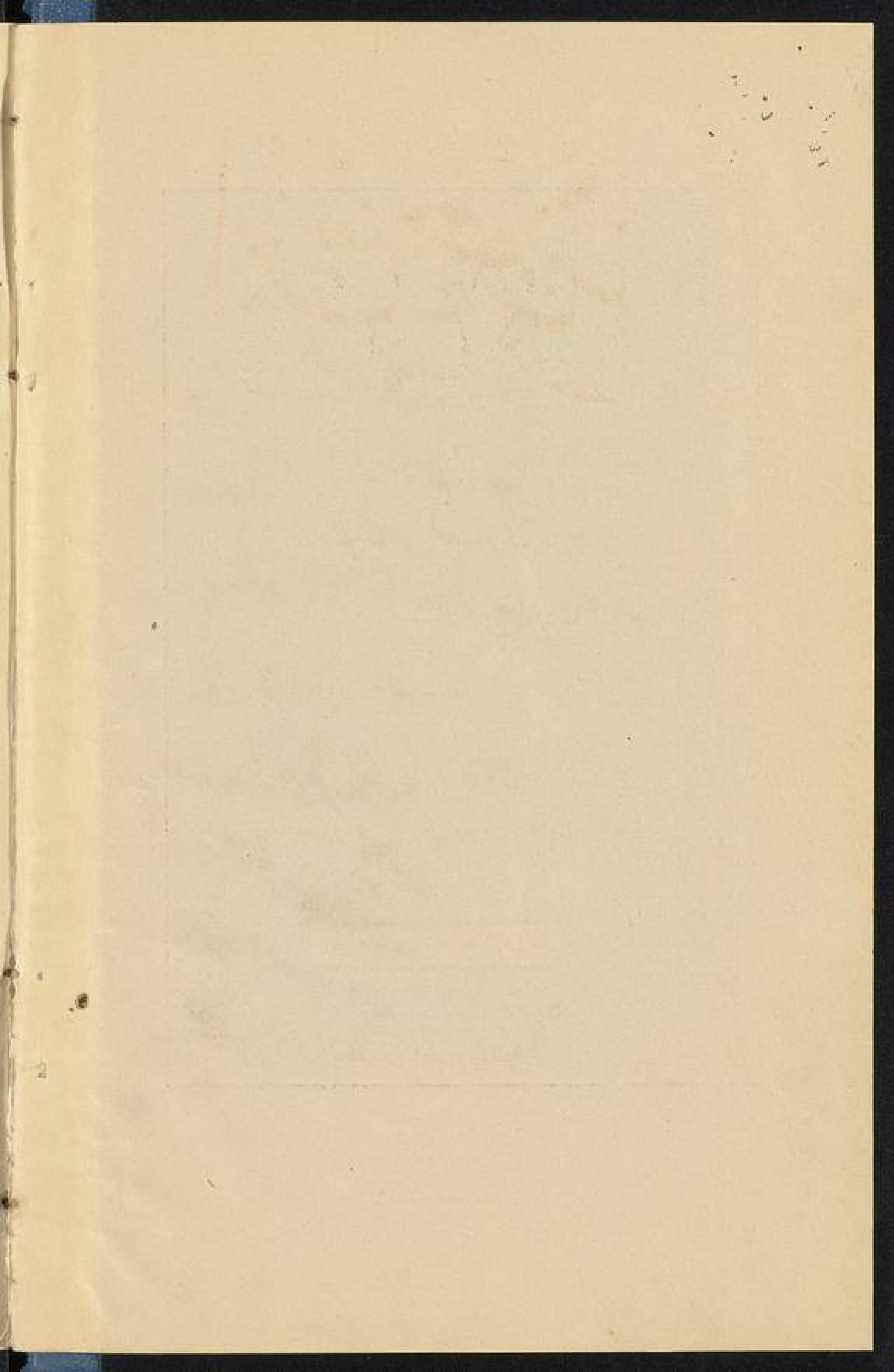
هذا وقد مضت حقبة من الزمن والأمن غير مستتب فى هذه البلاد لفساد النظم ، وسوء التدبير ، حتى أتاح الله تعالى لها ذلك البطل الفاتح ، والمسلم الغيور : الامام «عبد العزيز بن سعود» فأبدلها من خوفها أمنا ، ومن جوعها شبعا ، ومن عطشها رياً . !

وحقا إن الانسان ليمتلىء فخاراً ، وينتعش سروراً ، حينما يذكر «ابن سعود» وأنظمة «ابن سعود» وبلاد «ابن سعود» وقد كنت أشعر أننى امت بصلة كبيرة ، ورباط وثيق بهذا الرجل القائم بأمر الله ، الحافظ لحدود الله ، وكثيرا ما منيت نفسى أن تسنح لى الفرصة باحصاء أعمال هذا البطل وإفراد مؤلف خاص بها ، حتى قيض الله تعالى ذلك الشاب النبيل «مصطفى الحفناوى» فقام بما جال بخاطرى خير قيام وعرض على فكرته ، فرحبت بها أيما ترحيب ، وشرعت فى الطبع فوراً وأنا على تمام اليقين من حسن ما طبعت ، ومن خير ما صنعت ؛ وها هو «ابن سعود» لمن يريد أن يتعرف سر عظمة «ابن سعود» ؟

محمد محمد عبد اللطيف
صاحب المطبعة المصرية



« ابن سعود »



ابن سعود

سياسته، حروبه، مطامعه

بقلم
مصطفى الحفناوي

عن وليمز وآرمسترونج «بتصرف»

الطبعة الأولى
١٣٥٣ هجرية — ١٩٣٤ ميلادية

عنيت بنشره المطبعة المصرية

المطبعة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قليل من قراء العربية من يعنون بدراسة التاريخ والاستفادة بما فى ثنايا التاريخ من مُثُل حيّة ، وعبر خالدة ، وربما لانجد بين أيدينا من كتابات الناطقين بالضاد فى هذا الفن أكثر ذيوعا من الكتب المدرسية التى لاتسمن ولا تغنى من جوع، لأنها جافة مقتضبة يضيق صدر القارىء حين لايجد فيها إلا أخبار الحروب وما إلى الحروب من مواقع وقتال ، وصلح وسجال ، وسنين قبل التاريخ ، وبعد التاريخ .

ولكنك تجد فى اللغات الأخرى عناية خاصة بالتاريخ، وهنالك من حملة الأقلام من يخصص نفسه للكتابة التاريخية باحثا عن سر العظمة ، محللا لحياة الأبطال ، فيخرجون لأبناء جلدتهم كتابات هى أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ ، ويجعلون العباقرة أبطال تلك القصص . ولاتقتصر كتابتهم على فريق خاص من الأبطال، وإنما يفتشون عن البطولة أنى ظهرت وحيثما وجدت . وبذلك يؤثرون فى حياة الشعوب ويقودون الناشئة إلى طرق القوة وسبل السيادة والسلطان .

وجدت اللغة العربية فى حاجة إلى هذا النوع من الكتابة ووجدت الشعوب الشرقية التى تجاهد لنوال الحرية محتاجة أيضا لهذا الغذاء ، فحملت نفسى رغم ضعفى عبء هذه الكتابة التى لا يهتم بها أساطين العربية ولو بنقل بعض كتب

الغربيين فى هذا الصدد ، وبينا أنا أنقب عن أخبار الأبطال بين جدران المكاتب وقع فى يدى كتاب الأستاذ « كينيث وليامز » عن « ابن سعود » فدهشت لعناية أولئك القوم النائين عنا بدراسة أحوالنا وتتبع أخبار زعمائنا وأبطالنا وزادت دهشتى لما قرأت الكتاب ووقفت على مبلغ الدقة فى سرد أخبار جزيرة العرب وعرفت أنى رغم ما يربطنا بالعرب من صلات كثيرة أجهل من أحوالهم وسياسة بلادهم ما لا يجهله ذلك الانجليزى القاطن فيما وراء البحار .

وقد كنت معجبا بعض الاعجاب بشخصية الملك « عبد العزيز » فلما قرأت تاريخه قوى هذا الاعجاب وأصبح حبا عميقا فتعمدت ترجمة كتاب الأستاذ « وليامز » إلى لغتنا ، وقبيل إتمام هذه المهمة ظهر كتاب الأستاذ « آرمسترونج » فى موضوع « ابن سعود » أيضا ، فقرأته وأعدت قراءته وحفزنى ذلك لأن أقرأ كل ما يمكن أن تصل اليه يدى من أخبار « ابن سعود » خصوصا وقد استعرت نيران الحرب بين ملك الجزيرة وإمام اليمن ، واشتغل الرأى العام بذلك الحادث فحاولت بعد جهد جهيد أن أخرج للناس كتابا عن « ابن سعود » وكان أكثر اعتمادى على كتابى « وليامز ، وآرمسترونج » .

وإنى حين أتقدم بهذا الكتاب إلى قراء العربية لا أدعى أنى وصلت إلى مرتبة أولئك الغربيين ولا أظن أنى أسديت لوطنى بعض ما يفرضه علىّ الواجب من حيث الاخلاص للغاية التى أرمى إليها ، بل كنت أرانى فى كثير من فصول الكتاب مقيدا مشلولا بسبب الظروف الاستثنائية التى فرضها علينا الاستعمار الملعون .

ولكنى أعتبر ما سعيت إليه مجرد محاولة قد تتبعها محاولات أسلس فيها العنان لقلمى ، وربما أكون أكثر حرية فيما سيلى من المحاولات . ولا أظننى

رغم حرمانى مما كنت أطمع فى تقريره قد خنت الأمانة العلمية ، بل حافظت عليها غير مكترث لما يحدث من غضب الغاضبين ، وسخط الساخطين .

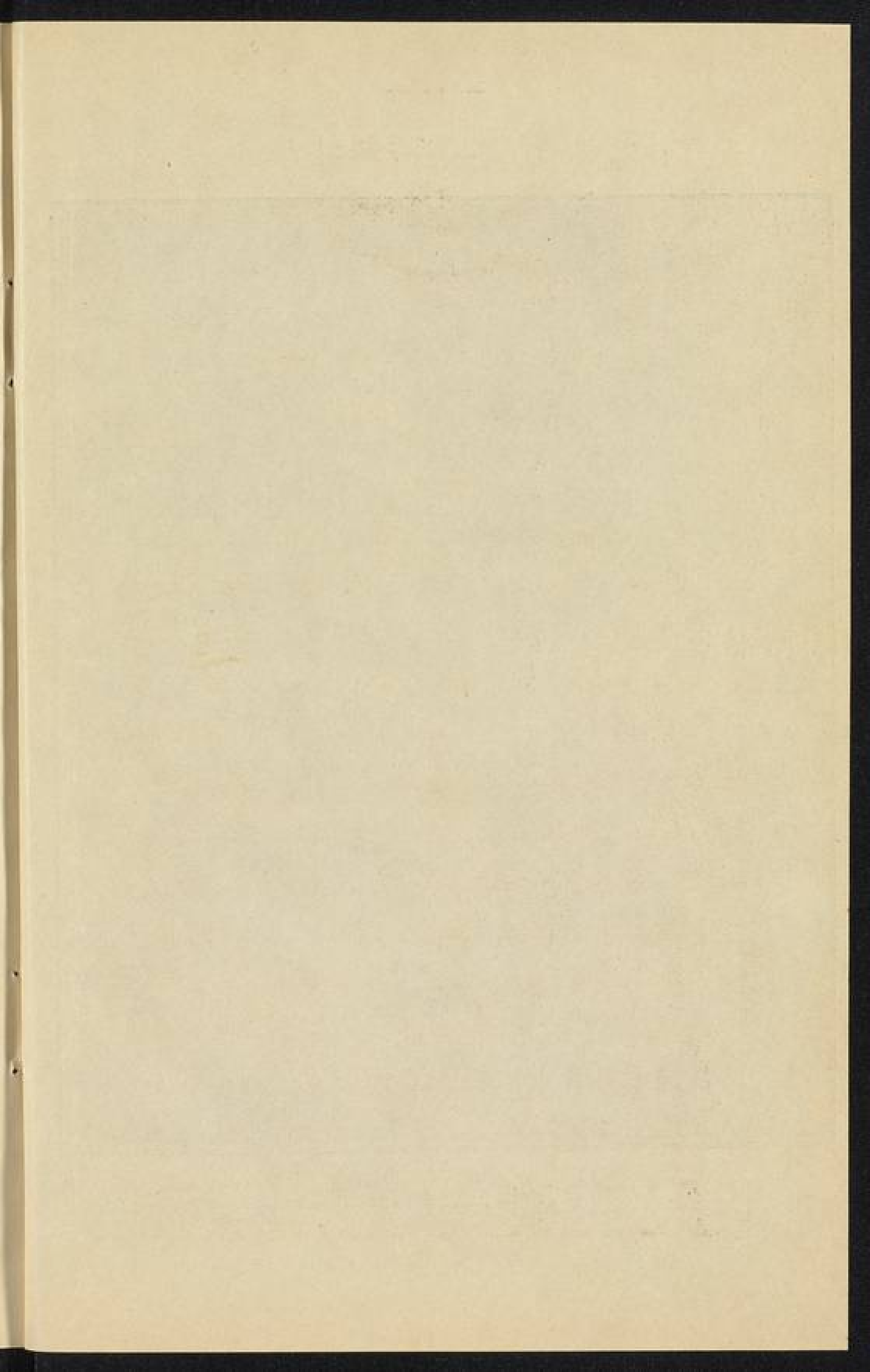
وإنى فى هذه الكلمة القصيرة لا يفوتنى أن أشكر الذين شجعونى على المضى فى وضع الكتاب وأخص منهم بالشكر حضرة صاحب السعادة أستاذنا الجليل «محمد على علوبة باشا» الذى تفضل بوضع مقدمة لهذا الكتاب وقت عودته من البلاد العربية وهو فى حاجة إلى الراحة بعد الجهاد الذى بذله فى إيقاف تيار الحرب بين الامامين «يحي »وعبد العزيز» كما أشكر الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف صاحب المطبعة المصرية الذى أخذ على عاتقه طبع الكتاب على نفقاته وخصه بعنايته .

وأرجو من صميم قلبى أن أوفق للغرض الذى من أجله وضعت الكتاب والله ولىّ الصادقين ؟

مصطفى الحفناوى



صاحب السعادة «محمــد على علوبة باشا»





بقلم حضرة صاحب السعادة الأستاذ الجليل

محمد على علوبة باشا

عنى الشاب النابه حضرة مصطفى افندى الحفناوى بوضع مؤلف عن « ابن سعود » وقد كان موفقا باختيار موضوع كتابه بعد أن كتب الأجانب كثيرا عن هذا الملك وعن مملكته الحديثة . وبعد أن استقر فى خاطر المؤلف أن التحدث عن « ابن سعود » هو التحدث عن تاريخ مملكة بأسرها ، عن إنشائها وتكوينها من العدم .

وكيف لا يعنى المؤرخون بالكلام عن « ابن سعود » وقد كان لآبائه ملك وخطر فى جزيرة العرب ، ثم ما لبثوا أن جردوا من سلطانهم ، وخرجوا من ديارهم . يتقاذفهم اليأس والرجاء ، ويضنيهم مجد ضائع وعذاب مقيم ، وإذا « ابن سعود » يتخطى عقبات الدهر ويقتل فى نفسه وفى صحبه عوامل اليأس ويندفع بهم طالبا المجد أو اللحد ، الى أن حباه ربه ملكا يبلغ ذرعه الآن نحو أربعمائة وخمسين ألف ميل مربع وساكنوه نحو خمسة ملايين من النفوس أو يزيدون

نشأ « ابن سعود » فى صباه طريدا مشردا الى أن آواه وبعضا من ذويه شيخ الكويت ورأى هناك شيئاً كثيرا جرح كبرياءه فقوى عزيمته ، ولم تصبر نفسه الأبية على أن يقيم على الضيم ، والرضى بالسكينة والذل ، فسعى مع نفر قليل من آله وذويه فى استرجاع ملك آبائه الضائع ، ومجدهم المهين ،

وقاسى فى سبيل ذلك ماقاسى الى أن وافته الظروف فاستولى على الرياض سنة ١٩٠٢ بعد أن قتل « عجلان » عامل خصمه ابن الرشيد ؛ ثم سار فى مغامراته حتى انتصر على خصمه الأكبر عبد العزيز بن رشيد نفسه مرات عديدة واستولى على جنوب نجد وما زال يكافح ، فيحارب ابن رشيد تارة ، وأخرى بعضا من آل سعود أقاربه ويطارد الجنود العثمانيه مرة وأخرى الملك حسينا وأبناءه مما تراه مفصلا فى هذا الكتاب ، حتى استولى على الحسا وعلى حائل واكتسح البلاد النجدية كلها ، ثم أخذ عسيرا الشرقية ، ثم افتتح الحجاز ، ثم بسط حمايته على تهامة عسير « المقاطعة الادريسية » ثم ضمها أخيرا الى ملكه كما ضم اليه بمعاهدة الشهر الحالى مقاطعة نجران ، وكانت نتيجة هذا كله أن بسط سلطانه فى قليل من الزمن على رقعة تمتد من البحر الأحمر غربا ، الى الخليج الفارسى ، شرقا . ومن العراق وشرق الأردن شمالا ، الى اليمن جنوبا .

⁂

لا يتسع المجال هنا لبسط فى تاريخ نشأة المملكة السعودية وتكوينها على يد « ابن سعود » وان الذى أقصده مما أكتب أن آتى بشيء مما شاهدته بنفسى وجال بخاطرى أيام وجودى فى الحجاز ضمن أعضاء وفد المؤتمر الاسلامى العام « وفد السلام » عندما استعرت نار الحرب — أو كادت — بين المملكة السعودية ومملكة اليمن . فلقد وصلت الى جدة فى اليوم السادس عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٤ وانتقلت منها الى مكة المكرمة ، ثم الى الطائف وأقمت فى تلك الأرجاء أربعة وخمسين يوما سمحت لى بالاتصال بمليك تلك البلاد وبكثير من رجالاتها البارزين .

وأول شيء لفت نظرى هو الأمن بكل معانى الكلمة — نشر لواءه فوق ربوعها : مدنها وسهولها وأنجادها . فيسير الناس مشاة أو ركبانا وتسير القوافل

تحمل العروض من ناحية الى أخرى تخترق السهول أو مفاوز الجبال ليلا أو نهارا ولا تسمع باعتداء وقع أو سرقة اقترفت . وقد نسى الناس ما كانت عليه تلك البلاد فى الأزمنة الغابرة من فوضى شاملة واعتداءات فظيعة على الأموال والأنفس وعلى الحجاج بنوع خاص مما كانت تقشعر لذكره الأبدان. وإنى لعلى يقين من أن الأمن فى مملكة «ابن سعود» لا يقل عن مثله فى أرقى بلاد العالم نظاما ، وأقواها يقظة .

وإنك إذا نظرت الى شخص «ابن سعود» تحادثه وترغب فى استكشاف ماانطوت عليه نفسه تكشف لك عن رجل بدوى تريحه وتريحك منه البساطة فى القول والعمل . يعجبك ذكاؤه الفطرى صقلته التجاريب أكثر مما أفاد من نظريات .

ترى فيه رجلا قفز بسيفه وصلابة خلقه من مرتبة الموتورين المشردين الى مرتبة الملوك الفاتحين . هو رجل عصامى ساهم فى الحروب بشخصه وخاطر بنفسه وحياته حتى أنجحه الله فى قصده ، لكنه باق على التواضع والدعة لم يتملكه عجب ولم يأخذه كبرياء . يحدثك عما أصابه فى جسمه وقت الحروب وترى باحدى أصابع يده اصابة ظاهرة تدلك على قوة شكيمته ، لكنه لا يباهى ولا يفاخر ويعتقد أن الله قد سخره لاسترجاع ملك آبائه ولنصرة دينه وإقامة حدوده .

قد تراه فى أوقات الغضب والشدة — وما كان أكثرها أيام الحرب — فلا تسمع منه مايجرح إحساس خصمه ، أو يغمط من فضله . ولا تلاحظ عليه تلك الكلمات التى تؤذى فى السمع يلقيها خصم فى غيبة خصمه بلا رقيب ولا حساب — ولطالما رأينا منه أدبا جما نحو إمام اليمن ، ونحو الأشراف أنفسهم وهم الذين حاربهم وأجلاهم عن الحجاز يعترف لهم بأنهم سادة وأنهم أشراف .

هو رجل متواضع لكنه لايصبر على مايجرح كبرياءه أو كبرياء أمته ، رجل يحس فى نفسه أنه أوجد ملكا وأقام دولة ، وأنه فوق ذلك سيد مطلق ليس له برلمان يحد من سلطانه أو يقف أمام تصرفاته . لكنه مع ذلك كله لايرى فى تلك العوامل ما يبرر استبداداً أو طغيانا ، إنما يرى فيها مايبرر قوته فى تنفيذ مايعتقده صلاحا باعتباره أبا ، شعبه أبناؤه . فلقد رأيناه يستمع لشكاية الشاكين ومعارضة المعارضين . ولطالما لجأ الى القاضى يفصل فيما شجر بينه وبين رعيته من خلاف — يحب المعارضة البريئة ويصغى اليها ويسعى بقدر طاقته فى أن يجنح الى وجه الصواب .

رجل يقظ نبيه بفطرته . مرن قوى ، يعرضون عليه ما يهم أمره من أقوال الصحف المصرية والانجليزية بنوع خاص ، فيطرح منها ما كان خاصا بالمديح والاطراء ، ويضاعف عنايته برسائل النقد أو عبارات الذم عله يجد منها — كما يقول — فائدة له أو عظة .

زرناه يوما خارج الطائف ، فى الفضاء حيث يذهب عادة بعد العصر مع جماعة من أقاربه والمقربين اليه يجلسون عند سفح الجبل الى مابعد الغروب وبينا نحن كذلك إذا السماء أمطرتنا . فقمنا نستقل السيارتين اللتين خصصتهما الحكومة لنا من يوم أن جئنا إلى الحجاز وإذا الملك أبى علينا الا أن نستقل سيارته معه وسار بنا مخترقا شوارع الطائف وأزقتها حتى أوصلنا بنفسه الى حيث كنا نقيم .

يكفى لمعرفة هذا الرجل أنه كان يريد الحرب وكدنا نرجع يأسا الى بلادنا فلما استبان فائدة السلم وعلم أن امام اليمن ماكان يريد الحرب وأن وفد المؤتمر لايريد الا السلم عدل عن رأيه ورفض ماكان يحيط به من مغريات وأعلن رغبته فى السلم مؤكدا أن السبب الأكبر فيما جنح اليه هو إرضاء وفد السلام وفى ذلك إرضاء للعالم الاسلامى بأسره .

ومن يمن الطالع أن أكتب هذه الكلمة والصحف المصرية تنشر اليوم نص معاهدة الصلح الذى تم بين الملك «ابن سعود» وإمام اليمن . وهى كفيلة بصيانة مصلحة المملكتين وتبشر بسلام دائم بين أمتين شقيقتين . ليس فى المعاهدة مايشعر أن أحدهما غالب والآخر مغلوب . وأملى أن ينهض كل منهما بعد ذلك بأعباء ملكه ، فينظم بلاده فى مناحى حياتها المختلفة من ادارية واجتماعية وعلمية ومالية واقتصادية . تنظيما لائقا بالوقت الحاضر وبظروفه القاسية التى لاترحم .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أنبه المسلمين إلى فقر الحجاز ، وهو مهد الاسلام ، وبه بيت الله الحرام . وقد تركه الحاكمون الأولون خرابا يبابا ليس فيه أثر يذكر من الصدقات والمعونات التى قامت بها مصر وتركيا فى سالف الأزمان ، بلد قاسى فوق ذلك من الحروب ألوانا ومن الشدائد شيئا كثيرا ، فكانت فتن وكانت حروب بين ابن رشيد وآل سعود ، وأخرى بين الأتراك والاشراف وغيرها بين هؤلاء جميعا وبين «ابن سعود» وقد فعلت القنابل فعلها فى كثير من الدور والقصور ، مما حمل الأهلين كثيرا من تضحيات وعناء ، وجعل العسر ظاهرا ملموسا .

البلاد فقيرة وأماكنها المقدسة للمسلمين كافة ، فكان لزاما على هؤلاء جميعا أن ينظروا بعين العطف والرأفة إلى هذه البلاد ، وأن يتضافروا على مايرفع من شأنها حتى يتاح لها أن تسلم من غوائل المجاعات ، وأن ترقى فى الزراعة والتجارة والبضاعة رقيا يمكنها من أن تصون نفسها وأن تحظى بشىء من الرخاء . وأن تحتفظ باستقلالها واستبقاء طابعها الدينى والعربى .

البلاد إسلامية بحتة يقضى عليها وجودها بأن لاتستعين بغير المسلمين : فوجب على هؤلاء أن يبحثوا فى هذا الميدان عن متسع لنشاطهم ، ومرتع

لجهودهم وكفاياتهم، فمتى تتألف الشركات الاسلامية، ومتى تنظم الصدقات الخيرية لخير هذه البلاد. وفى ظنى أن أول خير للحجاز يجب أن يأتى من مصر. من ثروة مصر، ونشاط مصر، وثقافة مصر، ومركز مصر الخاص — فلمصر آثارها الظاهرة فى تلك الأصقاع. وعلى مصر أن يكون لها هنالك صوت مسموع. ومشورة نافذة. وأن تتبوأ المركز الذى وضعتها فيه العناية الالهية فى الأقطار الشرقية وفى مقدمتها مملكة العرب.

وإنى لكبير الرجاء فى أن يأتى يوم قريب تزول فيه العقبات القائمة بين البلدين، وأن يكون لمصر مايرجوه الناس من عظمتها، ومن مركزها الخاص. وان لى من حسن تقدير ولاة أمورنا مايدفع مصر إلى التغاضى عن الهنات الهينات، فتنشر محبتها، وتبسط نفوذها الأدبى فى هذا الشرق العربى، وفى ذلك مصلحة للجميع لاتخفى على أحد، والله ولى التوفيق؟

محمد على علوبه

القاهرة فى : ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ
٢٤ يونيـــة سنة ١٩٣٤ م

الفصل الأول

فى جزيرة العرب

خلقت الانسانية طفلا ساذجا ، ثم نما الطفل وترعرع على مدى العصور والأجيال ، فلم يصل العالم إلى الحضارة طفرة ، لأن الطفرة محال فى رقى الأمم ويقول الباحثون بأن القبيلة هى أول ماعرف من النظم ، ثم انمحت القبيلة وظهرت الشعوب ووضعت الدساتير ، ولكن الشعوب فى تطورها وارتقائها مشت بخطوات متفاوتة تبعاً لتباين البيئات واختلاف الأحوال الاقتصادية ، فى بقاع العالم ، فأمم وصلت إلى أوج الحضارة منذ آلاف السنين ، ونذكر مع الفخر على سبيل المثل أمة الفراعنة ، وأمم لاتزال فى دور التكوين ، وأمم يستحيل عليها أن تنشأ وأن تتكون لأنها مطبوعة بطابع الهمجية ، تعيش فى دياجير الظلمات ، وأمم تم نضوجها حينا من الدهر ثم عصفت بها عواصف الركود والانحلال ، فرجعت إلى الوراء ، وخسرت جهود من نهضوا بها فى وقت من الأوقات .

وربما كانت بلاد العرب أبعد من غيرها عن نظم وتقاليد القرن العشرين وربما كانت أنسب من غيرها لظهور القبيلة فيها ، ذلك لأنها بلاد جبلية كانت تكسوها الغابات والأدغال يوم أن كانت أوروبا مغطاة بالثلوج ، وقد دار الفلك دوراته المختلفة فانصهرت طبقة الجليد فى أوروبا وظهرت الشعوب التى تقبض اليوم على صولجان المجد ، وانقطعت السيول والأمطار التى كانت تغذى مجارى الماء فى بلاد العرب فاختفت الغابات وجف العشب ، وأضحت أرضا قاحلة مجدبة كما وصفها الله فى كتابه العزيز « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد

غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

لذلك ظلت الجزيرة على حالة الفطرة أحقابا طوالا بينما قامت الحضارة فيما جاورها من البلاد ، كحضارة بابل بين دجلة والفرات وقدامتدت إلى الخليج الفارسى ، وحضارة الفراعنة فى مصر وهى إلى الآن آية الدهر ومعجزة الزمن وحضارة الفينيقيين ، وحضارة الرومان فى البحر الأبيض المتوسط .وكانت بلاد العرب فى خلال ذلك كله منعزلة عن العالم لولا أن بعض التجار من بلاد الهند وأفريقيا كانوا يذهبون إليها بقصد التجارة فى فصول معينة من السنة ، ولكن نظرا لعصمتها لم تكن مطمعا للغزاة والفاتحين، إلا أن الناس كانوا يقصون الخرافات بخصوص مناطق التجارة التى أنشأها اليهود فى مكة والمدينة ويذكرون أن فى الصحراء مدنا عظيمة يمكن أن تدر ثروة واسعة ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقرن من الزمان، فأمر الامبراطور اغسطس واليه فى مصر بأن يقوم بحملة إلى بلاد العرب للبحث عن تلك المدائن ، فلم يجد الوالى إلا صحراء مجدبة تعمرها قبائل همجية وقد ابتلعت الصحراء أكثر رجاله فباء بالخسران .

بلاد لاأنهار فيها ، وإنما يعتمد أهلها على بعض الينابيع والآبار التى يغمرها الماء إذا هطلت الأمطار ، لذلك نقرأ فى أشعار العرب وأقاصيصهم قطعا يتغنون فيها بنزول الغيث من السماء . وفى العبادات الدينية نوع من الصلاة اسمه «صلاة الاستسقاء» يتضرعون فيها إلى الله تعالى ، فينزل عليهم ماءيروون به إذا اشتد الجفاف وخيف الموت .

من أجل ذلك كان سكان الجزيرة رعاة متنقلين يبحثون عن العشب ومنابع الماء ، ومن أجل ذلك كان الغزو والسلب مباحين فى عرفهم ، وتلك ظاهرة من ظواهر تنازع البقاء .

على أن هذه الطبيعة الجامحة قد أكسبتهم خصالا طيبة ، فتعودوا الصبر والجلد ، وتعلموا الفروسية ، ورضوا بالعيش البسيط ، ولم يتقيدوا بأغلال المدنية ، وجبلوا على الحرية حتى صارت عندهم طبيعة ثانية ، تجرى فى عروقهم مجرى الدم ، وفى سبيلها يضحون بالمال والولد ، والروح والجسد . كذلك فطروا على الشجاعة والمخاطرة ، وإكرام الضيف وحماية الجار ، والدفاع عن الحرمات . وهم أذكياء ثاقبوا الفكر أيضا . وكل هذه الصفات وما إليها منحة من البيئة الجغرافية التى يعيشون فيها .

وإلى جانب هذه الصفات تفشت فيهم العادات الوحشية والهمجية ، كقطع الطريق ، وسفك الدماء ، والأخذ بالثأر ، ووأد البنات وشن الغارات ، ولعب الميسر ، وغير ذلك من الأمور التى قضى عليها الاسلام .

هؤلاء القوم يعيشون فى الفضاء فاذاهم يبصرون النجوم فى أفلاكها ، والشمس المحرقة فى دائرتها ، فاهتدوا إلى أن قوة خارقة تدير هذا الكون ، وتهيمن على الوجود ، وتحكم الأجرام ، ولكنهم ضلوا معرفتها وتبعوا الأوهام فمنهم من عبد الشمس ، ومنهم من عبد الأوثان . ومكثوا على هذا الحال يتخبطون ويسعون فى الأرض فسادا إلى أن من الله عليهم « إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »

قام الهادى صلى الله عليه وسلم يذيع رسالته بين الأعراب ولكن « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » إذ أخذتهم العزة بالاثم ونفخ الشيطان فى أنوفهم وآذانهم ، فقاوموا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأبوا ألا ينبذوا عباداتهم السخيفة قائلين « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وكانت قريش — وهى أعرق القبائل ، ومنها الرسول عليه السلام — أشد لجاجا وكفرا ، فحاربوه

وقاتلوه وطاردوه ، ونصبوا له الحبائل ، ودبروا المؤامرات ، وصدوا عن الحق وقد رأوا بأعينهم آيات صدقه ومعجزاته ، وقد عرفوه أمينا منذ حداثته ، وقد سمعوا منه ذكرا حكيما لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

كل ذلك لأن الاسلام كان غريبا عليهم ولأنه يحمل ثورة على نظامهم الاجتماعى ، ثورة كانت غاية فى الخطورة ،فكانت دهشتهم بالغة إذ رأوا هذا البدوى وحده يجهر فيهم ببطلان عباداتهم وضلالهم فى عيشهم فرموه بالجنون تارة واتهموه تارة أخرى بأنه يريد الملك والجاه والمال ، وطلبوا إليه أن يعالجوه إن كان مجنونا ، وأن يبايعوه بالسيادة ويلقوا إليه بمقاليد الحكم إن كان يريد الحكم والسلطان .

ولو أن الحملات التى وجهت إليه قد قام بها شعب من الشعوب ضد أى مصلح غيره مهما بلغ من التمسك بمبادئه لاحتبس صوته وأسرع بالفرار من الميدان ، بل إن بعضا من تلك الحملات يكفى لاسقاط أية حكومة مهما بلغت من العنف والجبروت ؛ وقد يكون فى طاقة الحكومات المستبدة أن تقاوم بالقوة الغاشمة ، وأن تستعبد وتستذل بهذه القوة وحدها ولكنها مهما بلغت من القوة لاتستطيع أن تغير الضمائر ، وتحول العقائد ، وتحكم القلوب .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم قام باذن الله ليبلغ الناس رسالته دون خداع أو ممالقة ، وليبلغهم الرسالة بنصها مهما أزعجتهم ومهما سببت من تغيير فى أساليب معيشتهم ، فضرب الرقم القياسى فى الشجاعة الأدبية التى لم تظهر فى حياة كائن غيره ، وقبل العذاب والاضطهاد قائلا لعمه : والله ياعمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أرجع عن هذا الأمر مافعلت أو أهلك دونه .

هذا دليل الايمان الصادق والنور الالهى ، والقناعة فى سبيل الحق ؛ ومن

شأن ذلك كله أن يزلزل الجبل فيجعله خاشعا متصدعا ، ومن شأن ذلك كله أن يمحق الباطل وأن يحكم شعور الناس .

لذلك بعد أن هاجر النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم مع نفر من أصحابه إلى المدينة تزايد عدد المؤمنين ، وقام منهم معه من كرسوا أعمارهم لرفع لواء الدين ونشره فى بقاع الجزيرة ولو أدى بهم الأمر إلى التطاحن والقتال والموت « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

وفى عشر سنوات فقط دانت بلاد العرب بأسرها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى عشر سنوات فقط اقتنع العرب جميعا فحطموا الأصنام وتحرروا من الضلال ، وأذعنوا لأوامر الله ونواهيه ، وسننه وأحكامه ، ونشطوا لنشر أشعة هذا النور فى مشارق الأرض ومغاربها . وقد ولى الأمر بعد النبي عليه السلام خلفاؤه الراشدون ، وفى عهد هؤلاء استطاع البدو الذين لا يعرفون فنون الحرب ، ولا أساليب السياسة ، أن يفتحوا أكثر من دولة وأن ينتصروا على قياصرة الروم وملوك الفرس ، ففتحوا مصر ، والشام ، وبلاد الفرات ، وامتدت سيطرتهم شمالا إلى آسيا ، وغربا إلى شواطىء المحيط الأطلسى ، حيث قامت دولتهم فى إسبانيا ، ولو ظلت هذه طويلا لشملت فرنسا نفسها ، ولأتيح لأوروبا كلها أن تكون بلادا مسلمة . فى حوالى مائتى سنة امتدت بلاد الاسلام من جبل طارق إلى بلاد الهند ، ومن أواسط أفريقيا إلى الخليج الفارسى .

ولما انتقلت بذور الاسلام إلى الأناضول ، سهر الترك على حماية دين الله ، وكانوا فى ذاك الوقت قوة يخشى العالم بأسها ، فحكموا بلاد البلقان ، وحاولوا الوصول إلى أبواب مدينة فينا ، ولو تم لهم ذلك لاكتسحوا ممالك

أوروبا المسيحية ، وقد امتد نفوذهم إلى أن عبر البحر الأسود إلى القرم والروسيا ، وعبر آسيا الوسطى إلى بلاد الصين .

وفى خلال هذه العصور تنقلت عاصمة الأمبراطورية الاسلامية من مكة إلى دمشق ، ومنها إلى بغداد ، ثم إلى القاهرة ، وفى خلال ذلك أيضا تغيرت أحوال جزيرة العرب وظروفها فلم تصبح كما كانت منبع النور ، ومصدر الحكمة ، بل عادت إلى الجهالة وسوء النظام واضطراب الأحوال . لأن حكام الاسلام قد أغفلوا متابعة حركات الاصلاح ، وأغفلوا شئون الجزيرة ، وانصرفوا إلى زخرف الحياة وزينتها ، حتى تفشت البدع التى يمجها العقل السليم ، ويمقتها دين الاسلام .

وقد حقد الفرنجة على المسلمين وأغاظهم توسع هؤلاء فى الملك ، وأحس الفرنجة أيضا أن الخطر محدق بهم ، فشبت الحروب الصليبية الحامية التى استمرت وقتا طويلا ، وانتهت بفناء عدد كبير ، حتى كانت خيول المسلمين تخوض فى بحار من الدماء . ولا شك أن هذه الحروب كان لها تأثير فى حياة الاسلام ، وأن اختلاط المسلمين بغيرهم ، ولو فى ميادين القتال أحدث فى أخلاقهم وطباعهم تغييرات طارئة كانت من عوامل ضعف دولة الاسلام ، واشتد الخطب بظهور التتار ، وأشهرهم جانكيزخان ، وهؤلاء قد عثوا فى الأرض بالفساد ، وجاسوا خلال الديار ، يبيدون الحرث والنسل . ولكن الظلم لا يعيش أبدا ، لأن الظالم أضعف من المظلوم ، والله سبحانه وتعالى يأخذ الظالمين بإثمهم أخذ عزيز مقتدر ، فقضى على التتار ، وساس الأتراك ممالك الاسلام طويلا إلى أن ساءت إدارتهم فدالت دولتهم .

أما بلاد العرب فقد عاش أهلها قابعين فى بيوتهم ، منصرفين كعادتهم للرعى وشن الغارات ، ولكن حيث تشتد وطأة الأزمات اقتصادية كانت أو خلقية ينهض دعاة مصلحون للبناء وصد تيار الفتنة والهلاك ، فمثلا لما طغت

الكنيسة فى أوربا فى العصور الوسطى واستبدت البابوية حتى خاف كل مفكر حر من أن يوصم بجريمة الالحاد فيكون نصيبه الاحراق ، قام «مارتن لوثر» بحملته الجريئة . ولما اتسعت الهوة فى القرن الثامن عشر بين الطبقات وتحكمت فى أرواح الشعوب ومصيرها فئة قليلة من الاشراف ، يسومون الناس الخسف ويمتهنون الكرامات والأعراض ، نهض الفلاسفة فى فرنسا أمثال : روسو وفولتير ، ومنتسكيو ، بثورتهم الفكرية التى تطورت حتى خلقت ثورة سنة ١٧٨٩ الدامية ، وثورات القرن التاسع عشر المشهورة .

كذلك لما شاع الفساد فى بلاد المسلمين ، قام فى جزيرة العرب محمد بن عبدالوهاب يحارب البدع ، ويدعو إلى جمع الصفوف لاعادة مجد الاسلام ، وعبادة الله بقلب سليم . ولكنه كغيره من المصلحين : اضطهد ، واتهم بالالحاد والزندقة ، وطورد حتى التجأ إلى محمد بن سعود حاكم داريا والرياض .

والرياض مدينة تتمتع بموقع جغرافى جميل يمكنها من الاشراف على جزيرة العرب كلها ، فهى واقعة فى واد غنى بمائه ونباته ، وهذا الوادى ممتد فوق هضبة نجد التى تتخللها القرى والواحات ، وتعتبر هضبة نجد قلب الجزيرة العربية ، لذلك يتيسر لحاكم الرياض أن يحكم بلاد العرب ، وهو محوط برجال أشداء عرفوا بالصبر والقدرة على مغالبة الصعاب . لذلك لما قابله محمد بن عبدالوهاب أكرم وفادته وأراد أن يستغل ظروف دعوته للتوسع فى الفتوحات فاتفق معه على نشر المذهب الجديد ولو بامتشاق الحسام ، والمغامرة فى الحروب .

ويجدر بنا قبل أن نسترسل فى سرد الحوادث أن نعرف القارىء بمحمد ابن عبد الوهاب الذى أحدث مذهبه تطورات عجيبة لها اتصال وثيق بالملك ابن سعود الذى خصصنا للكتابة عنه هذا الكتاب .

ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١٦٩١ فى بلدة «عيانا» وهى من بلاد نجد ،

وواقعة شمال الرياض ، وقد تأثر بحياة الصحراء ، وسافر الى كثير من البلاد الشرقية ، فتعلم أصول الدين ، وفى تلك البلاد شاهد مظاهر التمدين ، فاعياه الشطط والاسراف ، ولما عاد إلى بلاده صمم على نشر الدين الصحيح ، وكانت القوة المعنوية عماده الوحيد ، ولكن لابد للمصلح أن يستعين أحيانا بالجاه والصولجان ، وقد أتيحت له الفرصة لما اتصل ببيت سعود وتزوج محمد بن سعود بابنة عبد الوهاب

وعندئذ تشيع السعوديون للمذهب الجديد ، فغضب عليهم الاتراك ولم يكن غضبهم صادرا عن عقيدة وعن فكرة وصلوا اليها بعد دراسة المذهب الجديد الذى أنكروه رجما بالغيب . ظنا منهم أنه يقف عقبة فى سبيل مطامعهم ببلاد العرب .

غضب الترك وثبت الوهابيون على رأيهم ، وأصروا على مجالدة القوة الغاشمة فحمى الوطيس واندلع لهيب الحروب الدينية فى بلاد نجد .

وكان شريف مكة قد احتكم الى العلماء ليقولوا رأيهم فى مذهب ابن عبد الوهاب ، فقرروا صلاحية هذا المذهب ، كما أن محمد على باشا جمع علماء مكة فى سنة ١٨١٥ لنفس الغرض فجاءت قراراتهم فى صالح هذا المذهب ولكن الأتراك أصروا على العدوان ، ولم يكن محمد بن عبد الوهاب إلا رسول سلام ولكنه مات فى سنة ١٧٨٧ ورأى أتباعه ضرورة الالتجاء الى وسائل الابادة والتدمير ، وقد أرسلت تركيا جيشا جراراً فى سنة ١٧٩٧ رابط على مقربة من الهزا فقابله الوهابيون مشبعون بالأمل ، مزودون بالايمان والثقة بالنفس ويقال انه قبل أن يلتقى الجيشان ، تضرع قائد الوهابيين واسمه عبد العزيز إلى ربه بقوله : اللهم يامن تجيب الدعاء ، ولا تخيب الرجاء ، اكفنا السوء من مكر هؤلاء ، وأنزل غضبك على العصاة وبدد شملهم يارب العالمين .

واستبسل الوهابيون حتى يئس الأتراك وطلبوا الهدنة ، ولكن رفض الوهابيون مهادنتهم ، فزحفوا الى الخليج الفارسى ، والى ما بعد مدينة عمان فى الجنوب الشرقى ، وقطعوا الطريق بين العراق والحجاز حتى قل عدد الحجاج وهم مصدر ثروة البلاد ، فاضطر «غالب» شريف مكة لأن يهشم من كبريائه ، ويسعى لارضاء الوهابيين الذين وصلوا الى شواطىء الفرات ، واعتدوا على الشيعة والسنيين ، فخربوا دورهم وسلبوا أموالهم ، واستولوا على مدينة كربلاء فى سنة ١٨٠١ وهى التى يحكمها الآن الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية وقد وقعت فيها المجازر والمعارك التى لم يحدث مثلها فى البلاد منذ عهد التتاريين ، فاشتد الفزع وعم الرعب ، وغضب العالم الاسلامى .

أما سعود فانه حاصر الطائف وجعل يغزو بلاد العرب حتى فر شريف مكة الى جدة ، ودخل سعود مكة بغير مقاومة ، وكان يظنها مبعث الفساد فقضى على الأدران التى لوثتها ، وأمر بعبادة الله وحده ، وحطم القباب وحرم زيارة الأولياء ، وألغى كثيرا من الطقوس ثم ما لبث الوهابيون بعد أن كلل جبينهم بالغار — أن زحفوا الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط فوصلوا الى جدة . وكان ذلك فى سنة ١٨٠٣ وفى هذه السنة قتل عبد العزيز بطعنة من يد رجل شيعى رماه بخنجر وهو يصلى مع أتباعه فريضة العصر ، لأن هذا الشيعى كان قد رأى الوهابيين قبل ذلك بعامين يذبحون أبناءه فى كربلاء فانتقم لنفسه فى شخص قائدهم .

مات عبد العزيز وأعقبه ولده سعود الذى يرجع إليه الفضل فى كثير من الانتصارات ولم يتكاسل الوهابيون بعد مقتل عبد العزيز ، بل سارت جيوشهم من شمال الجزيرة إلى عمان فى الجنوب الشرقى مكتسحة كل ما فى طريقها ، الى أن وصلوا بلاد البحرين وأعلنوا أنهم يريدون الاستيلاء على بلاد فارس . وبذلك

أصبحت بلاد العرب كلها — فيما عدا اليمن فى الجنوب الغربى — تعتنق المذهب الجديد إما راضية أو راغمة، وإزاء ذلك أظهر الخليفة عجزا تاما عن حماية البلاد المقدسة ، وبلغ من خطورة الحركة أن اهتمت بها أوربا ، وفرح بها نابليون بونابرت صاحب الخطط الخطيرة فى مصر وفى بلاد الشرق ، وليس أدل على اهتمام الغربيين بهذا الأمر من التقرير الذى وضعه عن الوهابيين قنصل فرنسا فى بغداد .

وكان الباب العالى يفكر فى خير الطرق لعلاج هذا البلاء الذى كان ينبعث كل يوم بنشاط إلى جهات جديدة ، إذ أغار السعوديون مرة أخرى على المدن المقدسة فى بلاد العراق فى ابريل سنة ١٨٠٦ وهجموا على مدينة نجف التى وقفوا عند أسوارها وردوا خائبين ، فسلبوا البلاد المجاورة لبغداد وهجموا على سماوا والزبير .

وفى نفس السنة وقعت حوادث من هذا النوع فى الجانب الثانى من بلاد العرب ، إذ هجم الوهابيون على سوريا الشمالية ، فوقع الرعب فى نفوس السوريين وعقدوا محالفة مع السعوديين ، ولكن هؤلاء فى سنة ١٨١٠ نهبوا خمسة وثلاثين قرية فى حران التى تبعد عن دمشق بمسيرة يومين ، ولم يتمكن حاكم دمشق من مقاومتهم .

عند ذلك دب الخطر فى جسم الامبراطورية التركية ، فاستغاث الباب العالى بمحمد على باشا والى مصر ، والحقيقة أن محمد على لما اشتهر عنه من قوة الشكيمة وعلو الجاه كان أبا عذرتها ، وابن بجدتها ، وكان قد قضى على المماليك قضاء تاما ، وكانت تركيا تنظر إليه بعين الريبة والخوف من نفوذه الذى يشتد يوما بعد يوم فى بلاد النيل ، وكان من صالح محمد على أن يغامر بجيوشه فى بلاد غير وادى النيل ليجد مجالات للانتصار خارج وادى النيل ، لذلك

أجاب الباب العالى إلى طلبه فأعد جيشا أبحر فى السنة التالية تحت قيادة ولده طوسون ، وكان فى عداد هذا الجيش مايقرب من ألفى جندى من الألبانيين ، وثمانمائة فارس من الاتراك . فانتحى طوسون فى أول الأمر ناحية المدينة واستولى عليها فى سنة ١٨١٢ — ثم خضعت له مكة والطائف وظل سعود يجاهد المحتلين بكل ماأوتى من صبر وقوة وثبات حتى انتصر فى سنة ١٨١٣ على حملة كان يقودها محمد على نفسه فى «ترابا» وبعدها مات سعود فأفل نجم الوهابيين فى ذلك الحين

مات سعود ذلك القائد النابغ ، وأخذ محمد على يستميل البدو إلى جانبه بالرشوة والمال ، والبدو لا يرفضون المال حتى فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولقد تفككت القبائل واضطربت وكان قد تولى عبد الله بعد سعود إمارة نجد فلم يستطع أن يوقف تيار الفتن بين القبائل ، وبذلك استطاع طوسون أن يتقدم إلى القاسم وأن يستولى على «راس» فاضطر عبد الله أن يفتح باب المفاوضة ويدعو للسلام .

وكان السلام مجرد هدنة إذ تأهب حاكم مصر للحرب من جديد وفى سنة ١٨١٥ أرسل جيشا تحت زعامة ولده البطل ابراهيم الفاتح العظيم ، فأخذت القبائل تنضم إليه واحدة تلو الأخرى ، ووقعت قوات الوهابيين تحت براثن الجيوش المصرية ، وقد أرسل عبد الله إلى القاهرة ومنها أرسل إلى القسطنطينية مقيدا بالسلاسل والأغلال ، وهنالك لقى حتفه بأن قطع الأتراك رأسه فى ميدان أياصوفيا .

فأصبحت بلاد نجد قطعة من ممتلكات المصريين ، وقد أحدث إعدام عبد الله رد فعل فى بلاد العرب ، فثارت ثائرة الوهابيين من جديد ضد المصريين وأبادوا حامية الرياض ، واستطاع الأمير الجديد من بيت سعود أن يطرد

المحتلين وأعلن نفسه حاكما لنجد و الهزا وعمان ، وكان محمد على قد شغل بما هو أخطر من الحروب فى بلاد قفراء ، خصوصا وأنه كان يحارب فى تلك البلاد تنفيذا لارادة الباب العالى ، وقد بدأ يتألب عليه فأطلق العنان للسعوديين ولكن بعد أن تضت القوة الوهابية على نفسها بنفسها فتحطمت الجبهة السعودية التى ظهرت للعالم فى وقت من الأوقات شبحا خطيرا يهدد السلام ولا يجعل الناس آمنين على أرواحهم ، ففى القرن التاسع عشر وقعت الحرب الأهلية فى تلك البلاد مما يدل على تفكك وحدتها ، ولكنها قد انتعشت قليلا فى عهد فيصل جد عبد العزيز الملك الحالى.

وبينما كان فيصل يرفع راية السلام فوق منطقة الهزا ، ثار ضده الأمير المشارى بن عبد الرحمن - وهو ينتسب إلى فرع من فروع آل سعود - وكان رجلا خائنا حتى لقد انقلب على الأتراك بعد أن أمدوه بمساعدات كثيرة وقد استطاع فيصل بمعاونة عبد الله بن رشيد أن يقضى على المشارى وأن يطرده طردا شنيعا .

على أن مشاغل فيصل الكثيرة أنسته الضريبة التى كان مطالبا بدفعها لمصر ، فجردت مصر عليه قوتها فى سنة ١٨٣٧ وأخضعته ثم حكمت مصر بلاد نجد حكما مباشرا ، وكان فيصل قد سجن فى القاهرة ، ففر من سجنه فى سنة ١٨٤٣ وعاد إلى الرياض ، وسعى لفرض سلطان الوهابيين من جديد على بلاد عمان والهزا والقاسم وجبل شمر ولكن بعد أن فقد نشاطه وفتوته ثم مات فى سنة ١٨٦٧ .

وقام مقامه ولده عبد الله الذى عزله أخوه فى سنة ١٨٧١ فأعلنت القاسم وشمر استقلالها ، وكان ذلك نذيرا بانحلال دولة الوهابيين ، ولكن لحقت المنية سعودا فى سنة ١٨٧٢ وعاد إلى الحكم عبد الله ، وقد استمر ثمانية أعوام

مله فى خلالها أقرباؤه الذين رأوه غير أهل للحكم فألقوا به فى غياهب السجن وبذلك أوشكت أن تنتهى سلسلة الأمراء من بيت سعود .

وقد ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر محمد بن رشيد على مسرح السياسة ، وأخذ يناضل وتناضل معه أسرته السعوديين ، حتى استولى على الرياض فى سنة ١٨٨٥ بعد معارك حامية انتهت بهزيمة السعوديين ، حتى خاف كبيرهم عبد الرحمن مما يلحق به من أذى ، ففر إلى الخليج الفارسى واختفى فى إقليم الكويت كما سيأتى بيانه .

وبين هذه الظلمات وسط تلك الأعاصير التى جعلت بلاد العرب فى خلال القرن التاسع عشر ميدانا للفوضى وسفك الدماء ، والحروب والغزوات ، حتى لم يعد المسافر إلى تلك البلاد يأمن على حياته — بين ذلك كله ظهر الملك «عبد العزيز بن سعود» الذى ولد فى صبيحة يوم من أيام نوفمبر سنة ١٨٨٠ فى ساعة مباركة قد وقف فيها المؤذن ينادى لصلاة الفجر «حى على الصلاة حى على الفلاح» ولد إذن «عبد العزيز بن سعود» ليقضى على الفوضى ويقيم العدل بقسطاسه المستقيم

وهنا نستطيع أن نعرف بأن أبطال العالم وقادة الانسانية يولدون فى بلادهم وهى أحوج ماتكون إليهم كما سيبين للقارىء فى حياة «ابن سعود» .

آل بيت سعود

سعود بن محمد

محمد {تزوج بنت ابن عبد الوهاب}

ثنايان

عبد الله

عبد العزيز
الأمير الثاني ١٧٦٥ – ١٨٠٣

ابراهيم

تركي {الأمير السادس ١٨٢٤
قتل ١٨٣٤}

سعود الأكبر
الأمير الثالث ١٨٠٣ – ١٨١٤

ثنايان

فيصل
{الأمير السابع ١٨٣٤ – ١٨٣٧
وفيصل واعيد بصفته
الأمير العاشر ١٨٤٣ – ١٨٦٧}

عبد الله
الأمير الرابع
قتل في القسطنطينية ١٨١٨

مشاري
الأمير الخامس
١٨٢٠

خالد
الأمير الثامن
١٨٣٧ – ١٨٤١

عبد الله
وهو الأمير التاسع ١٨٤١ – ١٨٤٣

عبد الرحمن

محمد

سعود
الأمير الثاني عشر
١٨٦٩ – ١٨٧٧

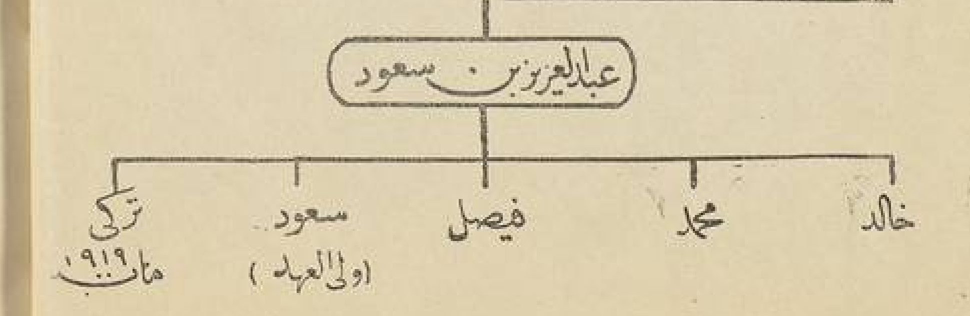
عبد الله
الأمير الحادي عشر
١٨٦٧ – ١٨٦٩

وفيصل واعيد بصفته الأمير
الثالث عشر ١٨٧٧ – ١٨٨٥

سعود

محمد

(كانوا اعداء لابن سعود)



الفصل الثانى

عبد الرحمن والد الملك «ابن سعود»

ولدته أمه وهى سيدة من بيت عريق ؛ هى ابنة أحمد صديرى أحد زعماء قبيلة داوازير الجنوبية ، ولدته فى قصر الرياض الشامخ فتأثر بها وكانت سيدة جسيمة وسيمة ولكنها كسائر شريفات العرب كانت مغلفة بالحجاب من سن السابعة،وقلما خرجت من قصرها لترى العالم وما تعلمت القراءة أو الكتابة ولم تساهم فى الحياة العامة،وهكذا كانت نساء الجيل ونساء العرب بصفة خاصة ومع ذلك امتازت بصواب الرأى والحكمة التى غذت بها أبناءها .

وكما تأثر «ابن سعود» بأمه تأثر أيضا بالقصر وهو محل ميلاده والطفل فى العادة يولد صحيفة بيضاء فتتكون حياته ويكتب مستقبله تبعا للمحيط الذى يعيش فيه وللناس الذين يحتك بهم فى الحياة والمرء يكون أكثر استعدادا لاكتساب الصفات والملكات وهو فى دور النشوء والحداثة . لذلك لم نر بدآ فى تحليل حياة بطل عظيم من أن نشير إشارة مجملة إلى القصر الذى ولد فيه : كان قصرا عالى الجدران فسيح الحجرات تخترقه طرقات طويلة مظلمة ولم يكن مشيدا على طراز فنى بل بنى كيفما شاء أن يبنى البناء وألحقت به بيوت أخرى حتى أصبح شاملا لأواسط المدينة كلها .

فلما يفع الطفل قليلا نقلوه من بين أحضان النساء فى القصر وعهدوا به إلى خادم زنجى مسئول عن راحته وسلامته ولكنه كان يزور أمه فى القصر

بين الفينة والفينة حيث يلهو ويلعب مع أخته نورا [١] ولكنه كان يقضى أكثر أوقاته مع الرجال .

وكان يرافقه عدد من الصبية الزنوج كلهم من سنه وهم الذين صاروا فيما بعد أصدقاءه وجنده المخلصين، وكثيرا ما كان يضع يده فى يد والده عبد الرحمن كلما سار .

وكان عبد الرحمن مثال القوة والحزم فهو إمام الوهابيين وقائدهم وكان الوهابيون جماعة متعصبين لمذهبهم لا يعرفون ملذات الحياة وزينتها ونعيمها وإنما يعيشون فى بيوت غاية فى البساطة مكشوفة للسماء ويكتفون بعبادة الله آناء الليل وأطراف النهار فى مساجد لا تعلوها مآذن أو قباب ولا يكسو جدرانها نقش أو طلاء ؛ أناس لا يشربون الخمر ولا يأكلون طعاما شهيا ولا يتناولون لفائف التبغ ولا يتزيون بالملابس الناعمة ؛ أناس يكرهون الغناء والموسيقى والضحك بصوت مرتفع وإنما هم كرسوا حياتهم لعبادة الله ونشر دينه بين كافة البشر ولو بحد السيف

وبطبيعة الحال عاش أبناء عبد الرحمن فى ظل مذهب الوهابيين وقد أرسل عبد الرحمن ولده «ابن سعود» إلى مدرسة فى الرياض فلم يظهر استعداداً لتلقى العلوم وغاية ما هنالك أنه وهو فى سن السابعة كان يصلى مع والده فى الجماعات خمس صلوات كل نهار ويصوم مع الصائمين ويحفظ آيات من الذكر الحكيم

وكانت لعبد الرحمن غاية واحدة فى الحياة وكان يعتبرها رسالته إلى الناس يؤديها هو أو يقوم بعده أبناؤه فيؤدونها ، ورسالته تتلخص فى احياء امبراطورية السعوديين وجمع الشعوب العربية كلها تحت لواء واحد ونشر مذهب الوهابيين فى سائر الأنحاء .

فلقن أبناءه هذا الغرض وأفهمهم بأنه واجبهم فى الحياة وأن الله ما خلقهم

---

(١) لعلها « نوار » .

إلا لأداء هذا الواجب ، وفى سبيل الواجب قد يحاربون و يلاقون المتاعب ولكنه علمهم كيف يتحملون المشقات و يقطعون المسافات الطوال فى بلاد موحشة و كيف يستعملون البنادق والسيوف ويعدون بخيولهم، وعود ولده «ابن سعود» على النهوض قبل الفجر بساعتين لأداء الفريضة حتى فى الشتاء القارس حينما تهب رياح قاتلة من أعالى الهضاب كما دربه على المشى حافى القدمين فوق الرمال المحرقة والصخور الملتهبة ، وشجعه على منازلة الصبية والحصول على مبيته ومأكله وشرابه .

ولا شك أنه أفاد ولده بهذا النوع من التربية الخشنة فصهره فى بودقة الحياة وبث فيه عناصر الرجولة الحقة، وسرعان ما كبر الطفل وقويت عظامه فكان عالى القامة عريض الاكتاف ، مفتول العضلات ، جم النشاط ، مع أن والده كان قصيرا نحيلا .

لم تتسع المملكة فتمتد إلى ماوراء الرياض وهى واقعة خلف صحراء تعزلها عن الكون وقد اشتهر أهلها بالتقوى و كراهية الأجانب واحتقارهم ، وكان يأتى إليهم من الأجانب بعض التجار الذين لا يجسرون على ارتياد المسالك الوعرة مخافة البدو الواقفين لهم فى قارعة الطريق بالمرصاد ، أما تجارتهم فتختلف حسب البلاد التى يفدون منها، فأولئك الذين كانوا يأتون من عجير والكويت على الخليج الفارسى تجار ملابس وأدوات نحاسية، وأما من يأتون من شاطىء البحر الأحمر فكانوا يحملون البن من اليمن والأفريقيون يتجرون فى التوابل والرقيق وكلهم كانوا يحطون رحالهم أمام قصر السعوديين .

تلك كانت أيام المخاطر لأن المناطق المحيطة بالرياض كانت غاصة بالبدو الغزاة وقد ظهرت فى الشمال قبائل شمر تحت زعامة محمد بن رشيد الذى اتخذ مدينة حائل عاصمة له وجعل ينازع الرياض و يناضلها .

فبنوا خلف الرياض حائطا منيعا وأقاموا عليه حماة ساهرين فلا يأذنون لأحد بالدخول قبل أن تفتش ملابسه ويمحص ويعرف أنه مأمون جانبه وقلما تفتح أبواب المدينة إلا فى أوقات الصلاة .

وكذلك كان قصر الرياض حصنا من حصونها وقد نشبت فى الرياض ثورة أهلية إذ أن أخوين من إخوة عبد الرحمن وهما سعود وعبد الله تنازعا السيادة وتحاربا من أجلها عشر سنين تمت الغلبة بعدها لعبد الله ففر سعود ولجأ إلى قبيلة عجمان التى تعمر فى منطقة الهزا شرقا . فلما انضم إلى عجمان غزا معها الرياض وطرد عبد الله ولكنه مات فجأة فعاد عبد الله الذى استمر الخصام بينه وبين أبناء أخيه سعود .

وقد انقسم سكان الرياض إلى شيع وأحزاب متنافرة متقاتلة حتى فى داخل القصر، وحاول عبد الرحمن مع أخيه الرابع أن يرفعا راية السلام محتجين على المتحاربين مخافة أن يطمع ابن رشيد فى الهجوم عليهم ولكن فشلت دعوة السلام وهدد المتخاصمون أنصار السلام فسكت عبد الرحمن واحتجب مع أبنائه فى جناح من القصر .

وأخيرا جمع أبناء سعود قبيلة عجمان وحاصروا مدينة الرياض وسجنوا عمهم عبد الله . وفى هذا المعترك وفى ظروف الفتنة والشقاق زحف عليهم ابن رشيد فاستولى على الرياض وأخرج منها أبناء سعود وأخذ عبد الله أسيرا إلى حائل، ونصب سالما من قبله حاكما فى الرياض — قال تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

وإزاء ذلك كله خرج عبد الرحمن من القصر ليطفىء الفتنة بما عرف عنه من حب السلام وتأثر شديد بالمذهب الوهابى .

ومرض عبد الله فى تلك الأثناء وحضر للكشف عن علته طبيب فارسى

كان من حجاج بيت الله ، فقرر المريض أن المرض خطير وحذر الرشيديين مما يترتب على موت عبد الله فى ديارهم من النتائج فخاف الرشيد أن يتهم بقتل عبد الله فاستدعى أخاه عبد الرحمن إلى «حائل» وأمره بنقله إلى الرياض وقبل وصولها مباشرة مات عبد الله ·

وبموت عبدالله أصبح عبدالرحمن كبير بيت سعود وكان عبدالله رجلا فقيرا خاملا ضعيفا عليلا ، ولكن عبدالرحمن كان رجلا وقورا قوى القلب عالى الهمة فلا يمكن أن يقر له قرار أو يهدأ له بال ووطنه الرياض مكبل بالأغلال واقع تحت مخالب الأعداء ولماذا لا يطرد الرشيديين ويحرر المدينة ويحكمها بنفسه ؟

لقد بدأ يعمل لهذا الغرض بغير توان وحاول أن يصل إلى اتفاق مع أبناء أخيه سعود ليكسب معونتهم ولكنهم خضعوا لجهلهم فرفضوا واعتبروه مغتصبا قائلين انهم دون سواهم أحق الناس بالامارة.

فأراد أن يوقد النار داخل المدينة بطريق الهجوم من الخارج واجتمع مع زعماء نجد فى جلسات سرية وحرضهم على الثورة فى الرياض ثم أرسل إلى القرى والقبائل المجاورة رسلا ينشرون بذور الانقلاب إلا أن الناس كانوا فى فزع مستمر وكانوا يخافون حامية الرشيد التى أقامها فى الرياض

ثارت الثورة فأخمدت واستطاع سالم أن يجر بعدد من الرجال إلى المقصلة بلا شفقة ولا هوادة .

وصمم سالم على اتخاذ خطة حاسمة للقضاء على الاضطرابات التى أوجدها السعوديون وقد جرت العادة أن تقام الحفلة الكبرى كل عام وفى نهايتها يتزاور زعماء العرب ويهنىء بعضهم بعضا . وقد قربت نهاية تلك الحفلة ففكر سالم فى استغلالها للغدر بالسعوديين وذبحهم عن آخرهم وذلك بأن يذهب لتهنئة عبدالرحمن محوطا بجنده وبعد أن يتسامر معه قليلا يطلب منه إحضار

سائر أفراد أسرته ليحادثهم فاذا ما اكتمل عقدهم ينهال عليهم جنوده فيبيدونهم وكأنه أراد أن يكرر مأساة المماليك ليضيف وصمة إلى التاريخ ، والغدر من شيم الرجل الجبان الدنىء، وإنما الشجاع من يجالد عدوه علانية و يقاتله وجها لوجه، ولذلك نعيب على محمد على باشا غدره بالمماليك وإن يكن قد أنقذ الوطن من شر جسيم ، لأنا كنا نود من رجل قوى كمحمد على أن يصل إلى غرضه بوسيلة شريفة [1] .

وكذلك أراد الرشيد أن يفتك بالسعوديين فى دارهم وهم غافلون إلا أن عبد الرحمن قد تناقل إليه السر وكشف المؤامرة فأعد عدته للحرب فأولى له أن يموت فى ساحة الوغى من أن تقطع رأسه فى ساعة لا يقدر أن يقاوم فيها

وصل سالم فى الساعة المحددة محوطا بحراسه فاستقبله عبد الرحمن فى القصر بكل ترحاب وقد جلس معه عدد قليل من رجال الأسرة لاستئصال الشك من نفس ابن رشيد، وكان بينهم طفل صغير مع زنجى يخدمه وكان ذلك الطفل « عبد العزيز بن سعود ».

ومما يذكر أن عبد الرحمن والرشيد قد تبادلا التحية والتهانىء الطيبة وطلب كل من الآخر أن يبدأ بالجلوس فجلسا وتجاذبا أطراف الحديث وتكلما عن البنادق والسيوف وكل منهما يخفى فى نفسه ما يضمره وكل منهما يرقب حركات الآخر بدقة واهتمام — وأخيرا طلب سالم من عبد الرحمن أن يحضر بقية أفراد العائلة ليتمتع بالجلوس معهم هيئة واحدة .

وعندئذ أشار عبد الرحمن الاشارة المتفق عليها إلى عبد من عبيده فحضر

---

(١) يعيب المؤلف على محمد على باشا فتكه بالمماليك، ويعتبر الوسيلة التى تخلص منهم بها وسيلة غير شريفة ؛ ولكنه لو علم كم وفرت هذه الطريقة من أنفس وأرواح بريئة ، لأقر محمد على باشا فيما ذهب إليه ، وعلم أن الخير كل الخير فيما أتى ، والكياسة كل الكياسة فيما فعل « الناشر »

رجاله إلى الغرفة مدججين بالسلاح مشهرين السيوف وأخذوا يذبحون جنود سالم حتى أفنوهم ثم قبضوا على سالم وأسروه ، وتلك كانت أول مرة شاهد فيها « ابن سعود » مذابح البشر ، ورأى بعين رأسه مناظر الحروب .

وعلى اثر هـذا الحادث هبت المدينة كلها فأخرجت حامية ابن رشيد واستعدت للمقاومة وساهم معها أهل القرى والجهات المجاورة .

فاسرع الرشيد لسحق الثوار وقد خرج عبد الرحمن لملاقاته فظلا يتقاتلان بضعة أسابيع قتالا مرآ فى الصحراء وكان عبد الرحمن يتقهقر شيئا فشيئا حتى دخل الرياض وسقطت البقعة المجاورة كلها فى يد الرشيد .

وتوالت الأيام فقل الطعام وجف الماء وأخذ الأعداء يقطعون جذوع النخيل ويخربون مجارى الماء والآبار ويتلفون الحدائق والمروج فخشى أهل الرياض من الهلاك وطلبوا من عبد الرحمن أن يصل إلى تراض مع الرشيد ولكن رفض ذلك عبد الرحمن فهددوه بالتمرد والعصيان وكان بوده أن يستمر على رأيه للنهاية ولكنه اضطر أخيراً لارسال فريق من رجاله يحملون علم الهدنة ومعهم ولده « ابن سعود » .

فوجدوا الرشيد على تمام الاستعداد للاتفاق لأن رجاله قد أتعبهم الجهاد المتواصل وخارت عزائمهم لأنهم لم يغنموا كثيرا ؛ وتم الاتفاق بتسليم سالم وفك أسره وتعيين عبد الرحمن حاكما فى الرياض من قبل الرشيد وانسحاب هذا الأخير .

ولكن القبائل هاجت من جديد وعضدها عبد الرحمن آخذا معه إلى الميدان ولده « عبد العزيز بن سعود » وكان وقتئذ فى سن العاشرة . إلا أن الرشيد استطاع أن يمزق القبائل الثائرة كل ممزق ، وأن يتحول إلى عبد الرحمن ويقضى على السعوديين

ولم يكن عبد الرحمن قادرا على مواصلة الجهاد لقلة رجاله وشدة خوفهم من ابن الرشيد وتراجعهم ولأن من شايعه من العرب قد انفضوا من حوله فعاد إلى الرياض ليختفى خلف جدرانها من الخطر . وليجمع شمله للدفاع عنها ولكن القوم لم يلبوا دعوته لأنهم رأوا الخراب محدقا ببيوتهم فمالوا إلى المسالمة

وقد لحق بهم الرشيد طلبا للانتقام ووصفهم بالأفاعى قائلا انهم خونة لا يؤمن جانبهم فلا بد من القضاء عليهم . فخشى عبد الرحمن مغبة الأمر وأيقظ أسرته ليلا لما رأى الغزاة من قبيلة شمر قد أتوا من الشمال وأصبحوا قيد خطوات منه ؛ وفى ظلام الليل الحالك حملوا حاجياتهم على ظهور الجمال وركب «ابن سعود» مع أخيه محمد على جمل واحد وقبل مطلع الفجر قاد عبد الرحمن القافلة خارج الباب الشرقى .

وعدا بها إلى صحراء دهناء ومن ورائه رجال يحمونه مما عساه أن يصادفه فى الطريق ووصلوا إلى منطقة الهزا سالمين وهنالك طلب عبد الرحمن حماية قبيلة عجمان .

فحمته هذه القبيلة جريا على سنة العرب ولكن أبناء أخيه سعود كانوا يعيشون مع هذه القبيلة ، وقد ارتبطوا معها بأواصر المصاهرة ، فسعوا لطرد اللاجئين إلى عجمان لما طلب الرشيد تسليمهم .

ورأى عبد الرحمن أنه لا يأمن على نفسه وعياله إذا عاش فى كنف هذه القبيلة ، فقد تتألب عليه فى أى وقت ، ولذلك فكر فى الانتقال بأسرته إلى جزيرة بحرين حيث يعيش صيادو اللؤلؤ وهى واقعة فى الخليج الفارسى ، وقد أصيب ولده «ابن سعود» بالحمى فى أثناء ذلك .

ولقد جعل يبحث عن أعوان له كى يفر من وجه الرشيد ، ولكن لم يساعده أحد من شيوخ القبائل ، بل جمع حوله شرذمة من البدو وكر بهم على الرياض فلم يساعده النجديون وصدته حامية نجد بسهولة .

ولما رجع أرسل والى الترك فى الهزا فى طلبه ، وكان الأتراك وقتذاك يحكمون بلاد العرب بصفة اسمية والواقع أن حكمهم لم يخرج عن بلاد اليمن وعسير والحجاز على شاطىء البحر الأحمر وسوريا الشمالية وما بين النهرين إلى بغداد فى الجنوب و إمارات الكويت والهزا غربا على الخليج الفارسى ولم تكن لهم قوة أو اشراف فى داخل البلاد

وكان موقفهم غريبا إذ لم يكونوا يرجون أكثر من حماية أنفسهم من شر القبائل فى الداخل ولذا حاولوا تقوية سلطانهم بايقاظ الفتنة بين مشايخ العرب وخلق المشاكل والمنازعات وإعانة الضعيف على القوى ومساعدة المغلوب

فلما رأوا أن للرشيد سطوة تهددهم وتعرقل سياستهم لجأوا الى خصمه ولذا قابل واليهم عبد الرحمن بكل حفاوة واحترام وأمده بفرق تركية منظمة وقوة من المدفعية وطلب منهم أن يعود الى نجد ليحكمها على شرط أن يقبل وضع حامية تركية فى الرياض وأن يعترف بسيادة الترك ويدفع لهم الجزية

وتلك سياسة استعمارية قاتلة تأباها النفس العالية و يأباها الغيور على بلاده مهما أدرت عليه من نفع ومكنته من أن يشفى غليله من حساده وقد رأى عبد الرحمن أن الترك غرباء عن البلاد فلا يصح أن يمكنهم فى وطنه ليساعدوه على مقاتلة منافسه وهو عربى مثله وأنه فى ساعة الخطر ويوم أن يتدخل الأجنبي بين اثنين متخاصمين من أبناء الأمة يجب أن يطارد الأجنبي أولا ولذلك رفض شروط الأتراك رفضا باتا مدفوعا بنزعاته العربية وتربيته الوهابية وقد صرح للوالى التركى بذلك غير وجل ولا هياب فرأى الأتراك أنه أخطر مما يتصورون وتذكروا أنه حرك ثائرة القبائل ضدهم فى أقليم قبل ذلك بعشرين سنة « فياليت الساسة المصريين تكون لهم شهامة عبد الرحمن وغيرته ووطنيته

فى الاحتكاك بالانجليز ، وهم أعداء البلاد وأصل الفتنة والفساد !

وكانت الاضطرابات قائمة فى الرياض على قدم وساق وكان شيخ قطار من الثوار وقد ذهب عبد الرحمن لزيارته ففهم الأتراك أن هذا الأخير يحرك الثورة من وراء ستار . فاستدعوا لدرء الخطر وأنذروا عبد الرحمن والشيخ المذكور .

ورأى عبد الرحمن أنه محوط بالخطر من كل جانب من قبيلة عجمان ومن أبناء أخيه سعود ومن الترك أيضا ، وكان ولده «ابن سعود» قد عوفى من الحمى فاصطحبه وسار به جنوبا . حتى وصل إلى واحة جابرين ومنها الى الربع الخالى وهو مكان رملى يبلغ طوله خمسمائة ميل وينتهى عند المحيط الهندى .

وعلى مقربة من آبار قيران الملحة وجد قبيلة المرّة قد نزحت من الربع الخالى لرعى الجمال ، فاحتمى بها عبد الرحمن .

وعاش «ابن سعود» مع والده بضعة شهور بين أحضان هذه القبيلة وكذلك عاش معهما أخوه الأصغر محمد وابن عمه جلوى ، وكان شابا قليل الكلام ولكنه على أتم استعداد للمخاطرة . أما أمه فقد عاشت آمنة فى البحرين مع بقية نساء الأسرة .

على أن حياته فى تلك الشهور كانت شاقة مضنية إذ أن المرّة كانت أكثر قبائل العرب توغلا فى الهمجية ، فرجالها ذوو شعور طويلة مغبرّة ، وعيونهم حادة ، ووجوههم بشعة يعيشون كالدواب و يتعرضون لخطر الموت من الجوع ويتغذون بما يجمعونه من البلح فى موسم نضجه ، وقلما ينهض مؤنة تكفيهم طوال العام . أما شرابهم فهو لبن الجمال لأن مياه ينابيع «قير» كانت غضة ملحة لا تصلح لبنى الانسان ، وأحيانا يأكلون اللحوم إذا تصيدوا الغزلان وما على شاكلتها من حيوان الصحراء . ويأكلون «الجبرو» وهو نوع من الفيران يسكن بين الصخور ويأكلون الضب ، وأحيانا يعثرون على بيض النعام مدفونا فى

الرمل . وهذه الأغذية كلها لاتنفع الرجل المسلم الورع . أما أشهى أطعمتهم فهو كرش الجمل يغمسونه فى الملح ويأكلونه مشربا بدمائه .

ولم تكن لهم قرى يأوون إليها وإنما هم فى تنقل مستمر يبحثون عن العشب أينما كان وكانوا مصدر فزع القبائل الأخرى لأنهم مجبولون على الغزو وسفك الدماء وسلب القوافل وبعد هذه العملية يختفون بين الأعشاب اليابسة فلا تصل إليهم يد إنسان وقد غزوا حضرموت التى تبعد عنهم بأربعمائة ميل جنوبا ، وسرقوا منها الجمال.

بين هؤلاء الهمج عاش «ابن سعود» عيشة البدو فى فضاء الصحراء وقد سافر معهم واشترك فى غزواتهم وعرفوه طرق الصحراء وعلموه كيفية اقتفاء الآثار وكيف يقطع المسافات الطوال وكيف يعالج الجمال إذا مرضت وكيف يمشى رحلات طويلة وليس معه إلا حفنة من البلح ، وقربة من اللبن

وبذلك صار شابا جريئا قوى الساعدين يغالب الصعاب فتصبح هشيما تذروه الرياح ، قوى الثقة بنفسه مستعدا للعمل المتواصل فى كل آن .

ولكن تلك الحياة لم تكن مرضية فى نظر والده عبد الرحمن الذى احتقر المرة لقذارة أهلها وفظاظتهم وتدنسهم ووحشيتهم وكونهم قوما لادين لهم . فأبت عزة نفسه أن يحتمى بشرذمة وضيعة كهؤلاء . إلا أنه أقام هذه المدة معهم ليحاول تحريضهم ضد الرشيد ولكن استطاع الرشيد أن يقف فى وجههم ولما يئس عبد الرحمن من استغلالهم فى استعادة الرياض ولما كان يتقدم به العمر إذ نيف على الخمسين وأمله العيش الوضيع ، أراد أن يتخذ له مكانا يستريح فيه ومن حوله أبناؤه ونساؤه فأرسل رسله إلى كثير من مشايخ العرب يطلب الاحتماء بهم ولكن من غير جدوى لأن أولئك السادة رأوا أن له أعداء كثيرين وأنه إذا احتمى بهم يستهدفون لخصومة أولئك الأعداء .

وأخيرا و بعد أن فقد الرجاء أرسل إليه محمد شيخ الكويت يدعوه لزيارة بلاده والاقامة معه شهرا ؛ وكان الاتراك قد عينوا فى الهزا واليا جديدا اسمه حافظ باشا، ورأى هذا الوالى أنه محتاج لمعاونة عبدالرحمن بعد أن قويت شوكة الرشيد ولما يعلمه من كبرياء عبد الرحمن وعلو نفسه اتفق سراً مع محمد حاكم الكويت على دعوة عبد الرحمن وأسرته .

فقبل عبد الرحمن الدعوة بكل سرور وجمع أسرته من البحرين ثم استقر فى الكويت طلبا للراحة بعد طول العناء .

الفصل الثالث

فى منطقة الكويت

تلك المنطقة واقعة على رأس الخليج الفارسى ، وهى قطعة من بلاد العرب الصخرية منحدرة نحو الشاطىء ؛ الشمس فيها ساطعة والبحر يجاورها من ناحية ورمال الصحراء تحف بها من الجهة الأخرى ، وتلك بلاد جافة لا تتخللها حديقة أو مزرعة خضراء أو شجرة باسقة ، اللهم إلا بعض شجيرات صحراوية قاومت لهيب الشمس المحرقة .

وقد عرفنا فى الفصل السابق أن عبد الرحمن السعودى انتقل بأسرته إليها وهنالك عاشوا فى منزل صغير مكون من طابق واحد يحتوى على حجرات ثلاث ويحيط به فناء رحب متسع ومسقوف بعروق من الخشب قد التصقت بالجدران بصورة نلمحها فى بيوت القرى المصرية ، ومن هذا البيت البسيط يمتد طريق طويل ينتهى به إلى الشاطىء حيث ترسو السفن ويقيم صيادو اللؤلؤ .

ولكن شتان بين الحياة فى هذا الكوخ المكون من ثلاث حجرات وبينها فى قصر الرياض حيث الخدم والأرقاء إلا أنه أفضل مقرا من العيش مع قبيلة المرة المتوحشة ومع ذلك فقد ضاق صدر عبد الرحمن . وكان قد وصل إلى حضيض الفقر والمتربة فى بلاد غريبة ، إلا أن الأتراك فكروا فى إرجاع عبد الرحمن إلى الرياض بقوة من جيشهم ، ولكنه رفض أن يستمد القوة من دولة غاصبة كما رفض ذلك فى المدة الأولى مع أن أسرته قد تعرضت

للجوع والعراء ولايهم الجوع ولايهم الفقر مادامت النفس العاليـة محتفظة بكبريائها متمتعة بالشرف وهو الرأسمال الأكبر فى الحياة.

أبت عليه نفسه العالية أن يأكل من أيدى المستعمرين وأن يبنى مجده من دم الوطن الغالى. وحقيقة ماقاله المرحوم شوقى بك أمير الشعراء :—

تأكل الهرة الصغار إذا جا عت ولا تأكل اللباة الشبولا

وكان «ابن سعود» وقتئذ فى الخامسة عشرةمن عمره فبحثت له أمه عن فتاة بدوية ليتزوج بها ولكن كيف يتاح لعبد الرحمن تكاليف الزوجيـة لولده وهو لايجد ما يكفيهم السؤال؟ فتأجل الزواج على مضض خضوعا للحقيقـــة المرة.

حياة تعسة، وعيش ذليل، وغم مقيم، وظلام حالك وفوق ذلك تفد ميكروبات الحمى من الخليج ومن أوحال الميناء ومستنقعاتها !!

ولكن كان يفد إلى تلك البلاد بعض أهالى نجد والرياض بقصد التجارة حاملين معهم أخبار الرياض وكلها لاتبشر بالأمل لأن الرشيد قبض على صولجان الحكم بيد من حديد على أن «ابن سعود» وجد فى الكويت مجالا للدرس والاختبارات الجديدة خصوصا وأن معلوماته لاتتعدى حياة الرياض وحياة المرة، أما الكويت فانها تشبه ميناء مرسيليا فى فرنسا إذ يسكنها خليط من الأجناس ويحج إليها التجار من بمباى وطهران ودمشق باعتبارها مفتاح الخليج الفارسى كما يزورها بعض الأمريكيين واليهود والأوروبيين والشرقيين كما أن القوافل تقوم من الكويت إلى أواسط بلاد العرب وسوريا

عاش «ابن سعود» حياة عادية كما يعيش شاب بدوى عادى يجوب الميناء ويخالط الملاحين ويجالس التجار فى المقاهى كما يجالس المسافرين من مشايخ الصحراء ويتلقط منهم أخبار بغداد ودمشق والقسطنطينية وكذلك احتك

بالشبيبة واتخذ منهم صفوة وأصدقاء ، وفى ساعات الصلاة كان يلحق بأبيه فى المسجد لأداء الفريضة ويصوم لله طوعا . وكان جسمه الضخم يعطيه سنا أكبر من سنه الحقيقى ، وكان سريع الذكاء لين الطباع .

أما والده عبد الرحمن فقد اتصل به «مبارك» أخ محمد شيخ الكويت وكانت العلاقات بين محمد ومبارك متوترة حتى لقد تشاجرا قبل ذلك بسنوات وانتهى الأمر برحيل «مبارك» إلى بمباى حيث بدد ماله فى العربدة ولعب الميسر مما اضطره إلى بيع مصوغات أمه ليسدد ديونه وعاد أخيرا إلى الكويت وكان أخوه لايزال مصرا على كراهيته إلا أنه كان يخشى بأس مبارك ، لأن أهل الكويت يحبونه ومع ذلك رفض أن يمده بالمال وتعمد إذلاله كلما أتيح له ذلك .

اتصل مبارك «بابن سعود» فأحبه وعامله كما يعامل الوالد ولده ودعاه لبيته مراراً ليتجاذبا أطراف الحديث وكانت تلك مناسبات حسنة تعلم فيها «ابن سعود» أصول الحكمة من «مبارك» .

فلما بلغ سن السابعة عشرة تغيرت الأمور بغتة اذ أن مباركا لما سئم معاملات أخيه زحف فى احدى الليالى مع أبناء عمه وخادم له من عجمان الى قصر أخيه فقتله وجلس على كرسيه ليحكم ، وكان الجو مهيئا لقبوله لأن محمدا كان يشدد الخناق على رعيته ويثقل كاهلهم بالضرائب الفادحة وينفق أموال الرعية فى ملذاته وشهواته .

وحدث بعد ذلك بأسابيع موت محمد بن رشيد الذى بسط سلطانه بالشدة واللين فى بقعة واسعة من شمال «حائل» الى جنوب الرياض . ولم يكن خليفته عبد العزيز حاكما قويا بل كان دأبه السلب والنهب فصدف عنه العرب واتجهت أفكارهم الى بيت سعود ، وجاءت رسل من الرياض تقول بانهم متأهبون

للثورة وأن قبائل نجد فى قلق دائم ولا ينقصهم إلا قائد حاسم يقود حركتهم

ومع أن «ابن سعود» كان مصابا بالحمى الا أنه أراد أن يقتنص الفرصة فاستعار جملا يسافر عليه ولحق به بعض أصدقائه لمهاجمة الرياض ، والحقيقة أن الرسل كانوا متفائلين أكثر مما ينبغى ؛ فان القبائل لم تتحرك كما زعموا ومباركا لم يقدم لابن سعود أدنى مساعدة خشية الاصطدام بالرشيد وكان الجمل الذى ركبه «ابن سعود» جملا مسنا أجربا مصابا بعرج فى احدى سيقانه فأوقعه فى الطريق مما اضطر راكبه للسير على قدميه حتى مرت به قافلة أرجعته الى الكويت . وكانت قصة الجمل من القصص المضحكة التى يتحادث بها أهل الكويت

على أن الكويت أصبحت لها أهمية عالمية بين عشية وضحاها ؛ لأن ألمانيا وقتئذ كانت غاصة بالسكان متقدة حياة وقوة فرأى الامبراطور ضرورة التوسع وأن طريق التوسع الوحيد هو طريق الشرق وبلاد الهند .

وفى الكويت فى سنة ١٨٩٧ تلك السنة التى ولى فيها «مبارك» وقفت أقوى دولتين فى العالم وجها لوجه بسبب المطامع الاستعمارية وقفت انكلترا ضد ألمانيا وأصرت على منعها من السير فى ذلك الطريق ، ووقف مبارك موقف الحياد محاولا ارضاء الطرفين وإرضاء الروسيين الذين أرادوا هم الآخرين أن يكون لهم نفوذ فى الخليج ، وكان مبارك رجلا بعيد النظر خصوصا بعد أن تغير مجرى حياته بتأثير المنصب والجاه فكف عن الاسفاف والمقامرة وجعل يدقق فى سائر أموره ويزنها بميزان الحكمة والسياسة .

ولما كان تابعا للسلطان أراد أن يستقل فى الكويت ورأى أنه فى مأمن من ناحية الانجليز الا أنه كان يخشى أن يصل الألمان بخطهم الحديدى الى الكويت ، فكان مبارك يمدهم ويماطلهم الى أن ضجروا منه وأشاروا على الباب العالى أن يعزله من منصبه ، وكان الباب العالى يعتبره حاكما من قبله وكان

لا يأمن شره لأنه قتل أخاه في سبيل الوصول الى الحكم فرأى الباب العالى أن يعمل بمشورة الألمان ، فلما أن وصل ذلك الى علم مبارك أسرع بالاتفاق مع انكلترا فلما هددته تركيا وجدت بريطانيا من ورائه فتراجعت عن ايذائه

ولكنها مع ذلك فكرت فى استخدام حيلة أخرى وذلك أنها حرضت الرشيد على محاربة مبارك قائلة للرشيد: ان حاكم أواسط بلاد العرب يجب أن يحكم الكويت أيضا وانها على استعداد لمده بالمال والاسلحة الى أن ينتصر ويحكم الكويت بشرط أن يوافق على مد الخط الحديدى المذكور . وعندئذ يكون الخلاف بين أميرين عربيين فلا يكون هناك مبرر لتدخل الانكليز .

وهنا يتبين لنا الفارق العظيم بين نفسية عبدالرحمن بن سعود العالية وبين نفسية الرشيد الخاوية، فلقد رفض عبد الرحمن بكل اباء وهو فى أشد الحالات وأقساها أن يعود الى داره ويحكم بلاده على أيدى أعداء وطنه الذين لا ينوون الا تدعيم الاحتلال ؛ أما الرشيد فقد رضى سياسة الغاصب مهما جرت على البلاد من ويلات فأخذ يستعد للقتال .

وتلك كانت سياسة ملعونة أصبح مبارك بسببها فى خطر خصوصا وأن أهل الكويت ليسوا مجبولين على المغامرة فى الحروب فلا بد له من حلفاء يشدون أزره ضد الرشيد ؛ ولذا أرسل إلى مشايخ القبائل فى الصحراء يطلب معونتهم فانضم اليه كثيرون ، نذكر من بينهم قبائل المرة ، وعجمان ، وسعدون شيخ المنتفق الذى كان يعيش بجوار البصرة .

ثم نظر إلى عبد الرحمن وولده «ابن سعود» فوجدهما خير من يستعان به فى إشعال الثورة فى بلاد نجد فى الظروف المناسبة ، فأشركهما معه فى كل تدبيراته واجتماعاته .

إلا أن عبد الرحمن لم يكن يميل إلى مبارك لما سمعه عن حياته الماضية ،

وقد عرف أنه لم يكن يخلص فى عبادته إخلاص رجل وهابى صميم ، وأنه اقتبس كثيرا من العادات والتقاليد الغربية ، وأنه يلبس الحرير ونفيس الديباج وأن بعض فروض الصلاة تمر وهو فى غفلة عنها . وأنه يعنى بابهة الحكم فيركب عربة فاخرة ، ويعنى بالمظاهر الرسمية ويحلى بيته بالأثاث الفاخر ويضع فيه رسوما لفتيات راقصات ، وأنه يستقبل ضيوفه بكل مظاهر السلطة وإذا رأس الجلسة يجلس على كرسى كبير فكأنه ملك من ملوك أوربا ، كما وأنه يدخن لفائف التبغ واذا أراد الترويح عن نفسه أرسل الى البصرة فى طلب فتيات يرقصن أمامه على نغمات الموسيق وألحانها .

وكل ذلك وماشابهه لايتفق ومبادىء عبد الرحمن الذى ترفع عن الذهاب إلى قصر مبارك وغضب مرارا مع ولده «ابن سعود» لأنه يزور بيت مبارك حتى لقد كان «ابن سعود» يذهب إلى مبارك سراً دون أن يخبر والده .

مما جعل مبارك يحب «ابن سعود» حبا جما حتى أشركه معه فى المجتمعات والتصرفات ، والخطب والجلسات ، وكان ذلك مجالا للدراسة ، ولتكوين الرجال ، فتعلم «ابن سعود» كثيرا فى مدرسة مبارك العملية ، بعد أن هجر القراءة والكتابة والدرس ، منذ خروجه من الرياض ؛ وفى صحبة مبارك اطلع على أخبار جديدة وطرق حديثة فى التفكير ، واحتك بأجناس جديدة إذ عاشر الأجانب من سائر الملل والنحل ، وخالط التجار والمسافرين . ومن رجال السياسة ، اتصل بممثلى فرنسا ، وانكلترا ، وألمانيا ، والروسيا ، ورأى بعينه كيف يعاملهم الشيخ مبارك ، وكيف يواجه مشاكله العالمية ، وفوق ذلك لقنه مبارك كثيرا من فن الحكم ، وقيادة الأمم .

ولم يكن حكم الكويت بالأمر السهل فان سكانها خليط من قبائل العرب وفى الكويت ترى بدو القوافل الذين لايخضعون لقانون ، وترى صيادى

اللؤلؤ المشهورين بالفوضى والشغب، وترى تجارا من شعوب مختلفة يتشاجرون ويتقاتلون ، ولكن مباركا استطاع أن يحكم هؤلاء جميعا ، وأن يفرض عليهم سلطته المطلقة . وهو ذلك المستبد العادل الذى يجعل الناس سواسية أمام القانون ، وبفضل مبارك استتب الأمن فتقدمت بلاد الكويت ونهضت نهضة مباركة .

ولقد تعلم «ابن سعود» بسرعة ونمت ملكاته حتى لقد أصبح تفكيره أبعد من سنه ، وهو — كما ذكرنا — لين العريكة ، سليم الطبع ، وهذا شرط يجب أن يتوفر فى كل من تصدى للحكم .

وكثيرا ما كان يفاخر أقرانه بمجد آبائه ويشرح لهم كيف أنه كان وارث عرش الرياض ونجد وكيف أنه قد يستولى على الرياض يوما ما ، ويفرض حكمه على العرب حتى يشيد امبراطورية واسعة كامبراطورية جده الأكبر وكان أقرانه يقابلون هذا القول بالسخرية ، وكثيرا ما أغضبته سخريتهم ، وما كانوا ليسخروا لو أنهم قدروا مبلغ ثقته بنفسه .

وكان «ابن سعود» إذا حضر فى المجمع مع مبارك يجلس على ركبتيه متلفعا بعباءة عربية وفى يده سبحة الصلاة يحرك حباتها وهو منصت لكل شىء مترقب كل شىء ، مفكر فى رسالته ، والدور الذى يلعبه فى حياته .

الفصل الرابع

«ابن سعود» يستولى على الرياض

استعد مبارك لملاقاة الرشيد بمعونة حلفائه وقد استطاع أن يجمع حوله عشرة آلاف من الرجال فسار بهم ومعه عبد الرحمن ثم أرسل «ابن سعود» على رأس قوة من الجهة الجنوبية بقصد المناوشة وإيقاظ الناس فى منطقة الرياض

وقد استصحب «ابن سعود» من أقربائه جلوى ، كما استصحب عددا من النجديين لاقتناص الفرصة التى طالما بات فى انتظارها إذ كان ينتظر ثورة القبائل ضد الرشيد ليظهر على رأس تلك القبائل ويقضى على خصمه اللدود فيثبت لمن كانوا يسخرون من أحلامه أنه لم يكن فيما قاله واهما أو مغالياً .

وسار ابن سعود بسرعة البرق فحرك أهل القرى وقبائل نجد الذين ضاقوا ذرعا بالرشيد وتمنوا حكم السعوديين، وقبل أن يصل إلى الرياض كانت معه قوة كبيرة من هؤلاء . ولكن سرعان ماوردت أخبار فجائية من الشمال مؤداها أن الرشيد قد هزم مباركا عند سريف وكاد يقضى على جيشه لولا عاصفة فجائية وأمطار غزيرة عرقلت مسالك الرشيد فنجا مبارك وفر إلى الكويت بعدد قليل من رجاله .

شاع الخبر بين العرب ففر رجال القبائل الذين تطوعوا لمعاونة «ابن سعود» مخافة جبروت الرشيد وعندئذ عاد «ابن سعود» إلى الكويت بعدد قليل من المقاتلين متمنيا أن يجد والده ومباركا قد نظما جيشا للمقاومة .

على أن الرشيد قد أحرق القرى المالئة لابن سعود فى نجد ودمرها عقابا لها وفى مدينة بريرة وحدها أعدم مائة وثمانين زعيما وفرض على الباقين فروضا

مرهقة ، ثم انقلب إلى الكويت وهزم مباركا فى «جاهراء» وحاول تخريب الكويت بأسرها .

ولم يكن لمبارك جيش أو حصون ولم يعد له حلفاء فى هذه الساعة الحرجة والعدو أمامه والسعوديون قد أحسوا بالخطر حتى استعد عبد الرحمن للفرار فماذا يفعل فى هذا الموقف الدقيق ؟

يحدثنا الأستاذ « آرمسترونج » بأسلوبه الخلاب عن تدخل الانكليز فى هذا الوقت بحجة محالفتهم لشيخ الكويت ويحاول إقناع القارىء بأن الانكليز هم الذين أنقذوا مباركا ، فأمروا الرشيد بالعودة إلى الوراء ، وأرسلوا اليه قوة تهدده ففر الرشيد ، وهدأت أعصاب مبارك .

يريد « آرمسترونج » أن يثبت فضل الانكليز على هذه البلاد ويدعو لسياسة وطنه ليوهم القراء بأن الانكليز حلفاء أوفياء ، والحقيقة سر يعلمه الله ، وأما ما نعرفه نحن عن الانجليز فلا يتغير : نعرف أنهم كالأفاعى ، فاذا كان ثم تحالف بينهم وبين الكويت فلأن الكويت ميناء على البحر واقع فى طريقهم إلى الهند ، فمن مصلحتهم أن يكون هذا الميناء تحت إشرافهم مباشرة أو تكون علاقتهم حسنة مع الحاكم فى هذا البلد . ولا ننسى أنهم فى تلك الظروف كانوا يحاربون سياسة ألمانيا وحليفتها تركيا ويستعينون بشيخ الكويت وغيره من مشايخ العرب ضد الأتراك .

دعك من سياستهم الملعونة التى ظاهرها الرحمة وباطنها الغدر والاجرام

ودعك من أخبارهم ولنحصر الكلام فى هذه الشخصية العظيمة شخصية «ابن سعود» التى نحبها ونجلها بصدق وصراحة .

لاشك أن صاحب هذه الشخصية قد هزم فى ذاك العراك ولكنه كان أبيا لا يرضى الهزيمة ، وكان فتيا فى سن العشرين ضخم الجسم عالى القامة غيورا

على مجد آبائه متحفزا للموت مقاتلا فى سبيل هذا المجد العريق ، له عينان وقادتان تقرأ فيهما الحماسة الملتهبة ، ولكنه لم يهزم لضعفه بل ضعفت القبائل الموالية له فتركته فى الميدان ، وغدرت به قبيلة عجمان الخائنة وأهاجه أن يسمع بأن الرشيد قتل أنصاره فى الرياض فأخذ يوجه اللوم إلى مبارك محاولا أن يستفزه لمقاتلة الرشيد مرة أخرى ، ولكنه يئس من هذه الناحية فحاول أن يجد أنصارا له بين المشايخ المجاورين ولكنه كان يحاول محالا فقد أخذوا درسا قاسيا وخشوا بطش الرشيد

وقد سعى عبد الرحمن لمنع ولده من مقاتلة عدوه العنيد ظنا منه أن الفرصة لم تأن، وأن الثمار لم تنضج بعد، وأنه يستحسن أن يكفوا عن القتال حتى تتغير الظروف وينظموا أنفسهم ، ولكن ولده الكمى الباسل لم ينصت لمنطق الشيوخ الرزين الهادىء لأنه شاب ولأن للشباب ثورة لا تعرف الموت ولا تعرف الخطر ولا تحتمل طأطأة الرءوس ، خصوصا وأن هذا الشاب المجيد قد مكث يتسكع فى الكويت ست سنين وقلبه يحترق ودمه يغلى وهو فى ظلمات المنفى . تلك كانت حياة عادية يأباها الرجل الكامل ، حياة لا تصلح إلا لتاجر فى حانوت أو كاتب فى ديوان من الدواوين ، ولكنها لا تصلح لعبد العزيز «ابن سعود» ولا يرضاها ، والرجل الفذ لا يذعن للشدة ، ولا يخضع لقوانين الطبيعة نفسها . وكان «ابن سعود» لا يزال واثقا من نفسه ، والثقة بالنفس كفيلة بتحطيم المصاعب ، وكان لا يزال يحسن الظن بالنجديين ، فقد يثورون من جديد إن تقدم لقيادتهم وبهذه الثقة صمم على الهجوم وأخذ يتدبر فى أمر الجمال والأموال والأسلحة ، وليس عنده شىء من هذا .

وقد أخذ ينفخ فى أذن مبارك بكل وسائل الاغراء وطلب المعونة من ممثل انكلترا السياسى فى الكويت فلم يجبه، وأخيرا عطف قلب مبارك فأعطاه

ثلاثين جملا بعضها مصاب بالجرب، وأعطاه ثلاثين بندقية بذخيرتها، ومائتى ريال من الذهب .

فتحرك «ابن سعود» عند ذلك وكانت أولى زوجاته قد ماتت بعد زواجهما بستة أشهر فتزوج بعدها باثنتين ورزق من إحداهما بغلام اسمه «تركى» فاتفق مع والده على أن يذهب إلى ساحة الوغى ويترك زوجتيه وولده فى رعايته .

وقد تم ذلك فعلا وسرعان ما انضم إليه ثلاثون من أصدقائه للجهاد تحت لوائه كما انضم إليه جلوى ومحمد أحد إخوته فسلح هؤلاء جميعا وذهب إلى أمه ليودعها فبكت بكاء حارا وحاولت منعه من المخاطرة ولكن شجعته أخته نورا، ودعا له والده بالنصر .

تحرك هذا الشاب فى أواخر فصل الصيف وفى ظلام الليل الهادىء وكان القيظ شديدا ولكنه أراد أن يتستر فسار مع رفقائه فى ممرات طويلة يمخر معهم عباب الصحراء .

وقد كتب له النجاح فى أول الأمر ، إذ أنه تعلم أثناء إقامته مع قبيلة المرة كيف يتحرك بسرعة، وكان كل جندى من جنوده لا يملك أكثر من بندقيته وحفنة من البلح وقربة من اللبن تكفيه غذاء مدة أسبوع، وعرف أيضا كيف يرتب خطواته وينظم صفوفه فى دوائر، ويجعل رجاله على أتم استعداد للقتال.

وكان يريد أن يكتسح كل ما فى طريقه لأنه الشاب الذى لا يكل ولا يمل والذى إذا نام جيشه لا ينام إلا قليلا حيث يرقد فى الرمال ساعة أو ساعتين ثم ينهض للعمل فقد خلق للحرب وفى الحرب مهابا فلا يجسر عدوه على مواجهته مخافة قوته الممتازة، وبهذه القوة وبهذا النشاط أوحى إلى رجاله فكان من حقه أن يقول كما قال نابليون : إنى أصنع جنودى بيدى .

ولم يكن «ابن سعود» مدفوعا كغيره للقتال بشهوة السلب، بل قام لانهاض

بنى وطنه فى نجد والرياض وتحريضهم على مقاتلة الرشيد إلا أنهم لم يكونوا طوع إرادته لأنهم نالوا الجزاء فى المدة الأولى ولا يمكن أن يثوروا إلا إذا أظهر لهم أنه قادر على حمايتهم .

ومرت به أوقات رهيبة إذ فشلت هجماته وضاعت نقوده وقلت مؤنه وأجهدت جماله ، والبدو لايحاربون إلا للأسلاب ولا أمل لهم فى ذلك والرشيديون قد أرسلوا رجالهم إلى نجد فقاتلوه وتحول إلى الحزا فحاصرته قبيلة عجمان، وأرسل الترك إلى مبارك يطلبون إليه استدعاء «ابن سعود» فغضب عليهم كما غضب على عجمان، ولكن غلقت دونه الأبواب فسار الى الربع الخالى وجاءه رسول من قبل والده وصاحبه مبارك يحمل قولهما : لقد تملكنا القلق من ناحيتك فننصحك بالعودة الى الكويت فليس هذا أوان الكفاح .

على أنه جمع رجاله وشرح لهم حقيقة الموقف وأعلن أنه مصر على المضى فى سبيله ، وليس هناك مايثنى عزيمته حتى لو ظل يقاتل فى الميدان بمفرده ، ومن شاء فليعش معه متحملا ماقدرته مشيئة الله من ظروف ومن أحداث ، وعندئذ تخلى عنه بعضهم واستمر معه ذوو القلوب الحية الصامتون المستبسلون كابن عمه جلوى وأخيه محمد ورجاله الثلاثين الذين خرجوا معه من الكويت وعشرة من أهل الرياض ، وقد أقسموا جميعا أن يقاتلوا معه للنهاية .

موقف غاية فى الدقة محفوف بالمخاطر والمشقات ، فقد اقتادته آماله الواسعة ولكنه كان تحت رقابة الجواسيس الذين يكشفون كل حركة من حركاته ، وليس له نصير من أهل الصحراء ، وهنا يصح لنا أن نتشكك وأن نقول بأن الانكليز — وهم أمهر الناس فى الجاسوسية — قد نشروا الجواسيس فى بلاد العرب

ومهما يكن من أمر الجواسيس ومن أمر الأعداء فان «ابن سعود» لم يتراجع وهو يحمل بين جنبيه قلب الأسد وعقيدة قوية لاتعرف اللين ، لذلك كان

جوابه على رسول والده وصاحبه : ارجع وأخبر أبى بما رأيت وما سمعت ، أخبره أنى بعد هذا كله لن أصبر على الضيم ووطنى فى ربقة الرشيد ، وأسرتى تداس بمناسم النعال ، إننى سأنتصر فى طريق الموت ولن أعود قبل أن أنتصر ، فان الموت خير من الهزيمة ، والأمر كله لله وهو أرحم الراحمين.

ثم أخذ يفكر فى مصيره فرأى أن الهجوم لا يفيده، نظرا لقلة رجاله ، ثم أرسل أحد جنوده للتجسس ، فقرر هذا الجاسوس أن الرياض محصنة بحامية على رأسها حاكم اسمه عجلان ، وهو من قبيلة «شمر» ويسكن فى بيت مقابل للقلعة وأما أهل الرياض فانهم ناقمون على الرشيد ، متطلعون لقائد من السعوديين يسير بهم إلى مواكب النصر ؛ وبعد أن عرف هذه المعلومات رأى أن المصلحة تقضى عليه بأن يكمن وأن يتستر وأن يذهب برجاله إلى بقعة غير عامرة

ومكث مختفيا خمسين يوما ، وقد تأثر رجاله بمتاعب الطريق ، وهم بطبيعتهم كسائر العرب إذا ما صادفهم النجاح يقدمون على أشق الأعمال ، وإذا ما حاقت بهم الخيبة خارت قواهم ، ونزلت إلى الحضيض ، وهم لا يستطيعون الوقوف مشلولين فرأوا أحد أمرين ، إما الجهاد ، وإما العودة إلى نسائهم ، ولكن «ابن سعود» لا يسمح لهم بالعودة ، وقد استخدم لباقته وحذقه فى إنعاشهم ، وقد اشتد بهم الأمر خصوصا وأن شهر الصوم قد بدأ ، فصاموا جميعا لا يأكلون ولا يشربون من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس .

وفى اليوم العشرين من رمضان وبعد صلاة المغرب وتناول الافطار ، أمرهم «ابن سعود» بالتحرك فساروا متسترين وكان القمر فى الربع الأخير والليل شديد الظلام ، وكان لابد من السير ببطء لأن جمالهم كانت مرهقة تعبة

وقد أدوا صلاة العيد عند آبار أبو جيفان ، ثم وصلوا إلى تلال طويق التى يخرج منها الطريق شمالا إلى الرياض ، وكان لابد من الاسراع مخافة أن يراهم أهل القرى الواقعة فى طريقهم .

وفى مكان يقال له ديل الشوايب ، وهو يبعد عن الرياض بمسيرة ساعة ونصف ، ترك «ابن سعود» جماله ، وترك معها عشرين رجلا أمرهم بالبقاء إلى أن تصلهم إشارة فيلحقون به ، وإذا لم تصلهم تلك الاشارة فليفروا إلى الكويت قائلين لوالده إنه قد مات ، أو أسره الرشيديون .

ثم سار ومعه أربعون رجلا من جنوب الرياض ولم يكن قد رسم لنفسه خطة معينة بل كانت ذخيرته الأمل والايمان بقوة الله وقدرته . وفى مكان يقال له شمسية حيث تظهر الحدائق والمروج الخضراء قطع جذع نخلة وتسلق عليه ومعه جلوى وستة من رجاله ، وأما الباقون فقد تركهم تحت إشراف أخيه محمد وأمرهم بأن يكونوا على اتصال بمن تركهم خلفا وأن ينتظروا أوامره قائلا لهم :

أيها الرجال لا قوة لنا إلا بالله فاذا لم تصلكم منى رسالة فى الصباح ففروا واعلموا انا قتلنا . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وهنا دب دبيب الخطر فى نفوسهم واستعدوا للرحيل صباحا ولكن «ابن سعود» وقف على أبواب الواحات ونظم فرقته ثم تسلق جدران الرياض بوساطة جذع النخلة وقد ساد السكون ولم يره أحد ، فلما وصلوا بيت جاوازير وكان مجاورا لبيت الحاكم قرع «ابن سعود» الباب فصاحت فى الدار سيدة « من الطارق ؟ »

فقال : رسول من قبل الحاكم جاء ليشترى بقرتين من جاوازير .

فقالت السيدة : ابتعد عن البيت فلسنا فاسقات وليس هذا وقت طروق بيت ليس فيه إلا نساء .

قال لها : اذا لم تفتحى الباب فسأبلغ أمركم الى الحاكم وغدا يحيق الويل بجاوازير . ثم وقف جانبا وبعد برهة أطل من النافذة رجل عجوز كان خادما فى البيت وهو يحمل مشعلا فى يده . وبمجرد أن رأى «ابن سعود» هتف قائلا « حاكمنا عبد العزيز » فأذعنت الأسرة كلها وفتح الباب

وكانت القلعة مكتظة بجيش الرشيد ولكن لم يتخذ الجيش احتياطاته لأن «ابن سعود» جاءه من الخلف ومن مكان غير منتظر وقد تعود الحاكم أن يسهر ليلته فى القلعة، وفى الصباح يحضرون له الجياد فيذهب الى بيته راجلا أو راكبا ولكنه لا يسير بغير جنود يحرسونه ولم يكن يترك عند البيت حامية .

صعد «ابن سعود» الى أعلى الدار وكان فى البيت المجاور رجل ينام مع زوجته ولكن هذا البيت رغم ملاصقته لبيت الحاكم كان منخفضا عنه بقليل انتقل «ابن سعود» الى هذا البيت ومنه صعد رجاله الى بيت الحاكم وكل تسلق على أكتاف أخيه بكل حذر بحيث لا يشعر بهم أحد .

وقد نزلوا الى قاع البيت حفاة فوجدوا الخدم فى الطابق الأول فزجوا بهم جميعا فى طرقة تحت إشراف جندى منهم . وفى الطابق الثانى وجدوا الحجرة التى ينام فيها الحاكم . فوضع «ابن سعود» خرطوشا فى بندقيته وترك رجاله عند الباب وسار الى جانب جلوى حتى دنا من فراش الحاكم فوجد فيه امرأتين هما زوجة الحاكم وأختها . فوقفت زوجة الحاكم فزعة مضطربة ولكنه وضع يده على فمها واشتغل جلوى باسكات أختها وقد عرف «ابن سعود» تلك المرأة وعرف أنها إحدى نساء الرياض وأن أباها كان يشتغل فى قصر والده عبد الرحمن .

فقال لها : كونى هادئة يامطلبة وإلا قتلتك فانى أراك قد ضللت وتزوجت برجل حقير من شمّر ، لقد أتيت لقتل عجلان . فقالت له : عجلان فى القلعة ومعه مالا يقل عن ثمانين مقاتلا فأولى لك أن تفر قبل أن يراك فيقتلك .

قال «ابن سعود» : متى يرجع الى البيت ؟ فأجابته : لن يعود إلا بعد شروق الشمس بساعة على الأقل . قال لها : إذن فاصمتى لأنه إذا أحدثتن صوتا فسيكون نصيبكن القتل . ثم زج بالمرأتين مع الخدم وأغلق الباب .

وكان الليل قد مشى بخطوات سريعة ولم يبق على الفجر إلا أربع ساعات فأخذ يتدبر الأمور وكانت إحدى نوافذ البيت مطلة على القلعة فرأى من هذه النافذة أن الحاكم يستعد للنوم ولكن رجال «ابن سعود» لم يكونوا ليناموا ليلتهم هذه فشربوا قهوة الحاكم وأكلوا تمره وأخذوا يرتلون القرآن ترتيلا .

وحسنا ما فعلوه ، فان قراءتهم القرآن قد أيقظت أرواحهم فلم يبق عندهم أثر للخوف حتى إذا انبلج الفجر من مطلعه فتح الحراس أبواب القلعة الثقال فشاهد العسس الأرقاء يخرجون خيول الحاكم ، وقبل شروق الشمس بقليل ظهر الحاكم محوطا برجال من حراسه فصاح «ابن سعود» فى رجاله الستة فخرجوا من البيت وهجموا على الحاكم وحراسه فحمى الوطيس وتبودل استعمال السيوف واطلاق الرصاص ، وانتهى الأمر بقتل عجلان ، وكثير من عبيده «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين»

وسار «ابن سعود» إلى القلعة ، وكان عجلان قبل أن يقتله جلوى قد حاول الوصول إليها عبثا ، فالتفت الجماهير «بعبد العزيز» وسلمت حامية ابن رشيد ، ونادى المنادون من مآذن المساجد وأعالى القلاع : انه بعد أحد عشر عاما خرج سعودى من منفاه يحكم فى العاصمة .

وتناقل الرواة الخبر وقال الناس : حاكمنا عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن سعود ، الحمد لله !! وكان أهل الرياض قد أملهم الرشيد فذهب حكمه غير مأسوف عليه .

وعجيب جدا أن ينتصر «ابن سعود» بتلك الصورة وربما يستفظع القارىء دخوله بيت الحاكم وازعاجه للنائمين ، ولكن الرجل الحصيف يعلم أن الحرب لا تعرف القوانين

الفصل الخامس

أمير نجد وإمام الوهابيين

تم النصر لابن سعود على الرياض منبت آبائه ولكن الرياض وحدها لا تكفى ، ونشوة الظفر تحمله على ارتياد مجالات جديدة وتحمل متاعب جديدة وهو لا يستطيع أن يطمئن على مصيره إذا اقتنع بالرياض وحدها ولا يجسر سكان نجد على الانضمام إليه لمجرد استيلائه على الرياض لأنهم رأوا فيما مضى رجالا يفتحون بعض البلاد ثم تسقط تلك البلاد من أيديهم فى نفس اليوم ورأوا أيضا أن الرشيديين قد قضوا على السعوديين عشرين سنة مستمرة ولا يفوتهم أن عدد أعوانه مائة من الرجال وهؤلاء لا يصح الاعتماد عليهم وحدهم فى تحصين الرياض ضد هجمات الألوف من قبيلة شمر .

وقد حاول «ابن سعود» تحصين الرياض من كل ناحية وساعده فى ذلك سكانها، وذلك بعد أن سقطت أسوارها من جهات كثيرة فبنوا كل تلك الأسوار المتساقطة بهمة عظيمة وباتوا مستعدين لصد الحملات عنها فى أى وقت ثم استحضروا المؤن وخزنوها ونصبوا القلاع وعثروا على البنادق والذخائر التى أخفاها الرشيديون فى بطن الأرض ونظم «ابن سعود» سائر الخطط ورتب الحاميات .

وصل هذا إلى علم الرشيد ولكنه سخر واستهتر حيث لا يبالى بابن سعود وهو فى نظره عربى متمرد يستطيع أن يعطيه ويعطى من معه درسا قاسيا ويجعلهم عبرة للبدو ويستطيع أن يعاقبهم أشد العقاب لأنهم قتلوا حاكمه وشقوا عصا الطاعة .

ولم يكن « ابن سعود » نابليونا آخر ولم يكن قد تعلم فنون الحرب ولكنه رجل يمتاز بمعرفة الحرب بغريزته وهذه الغريزة حذرته من أن يحاصره عدوه وهو داخل أسوار المدينة بقوة لا يمكن صدها وفى إمكانه أن يقوى حصون الرياض ، ولكن يجب عليه أن يحارب من خارجها .

لذلك أرسل إلى والده يبشره بانتصاره وطلب إليه الحضور إلى الرياض لأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يعول عليه فى صد الهجوم . وعندئذ هرول عبد الرحمن مسرعا إلى الرياض ومعه ولده عبد الله وقد سارا بكل احتياط عن طريق الهزا لأن الطريق كان غاصا برجال الرشيد وكان الرشيد نفسه يتقدم نحو الرياض وأرسل « ابن سعود » جلوى ومعه مائة وخمسون فارسا لمقابلة والده حتى وصل عبد الرحمن سالما إلى مقر أسرته الأصلى .

فرحب به أهل الرياض وفرحوا بمقدمه وبعد أيام قلائل جمع العلماء والأشراف وأعلن حقوقه أمامهم .

وعين « ابن سعود » وارثا له ورمزا لهذا التعيين أعطاه سيف سعود الأكبر ، وهذا السيف قد توارثه آل سعود منذ مائة سنة وهو سيف جميل له مقبض محلى بالذهب والفضة .

وفى تلك المدة عامل « ابن سعود » أباه بكل احترام وإجلال كما هى عادته فكان يقف خلفه فى الصلاة وكان ينصت لنصائحه ، وبفضل هذه النصائح أصبح حاكم الرياض والمطالب بعرش نجد ، بل وبلاد العرب بأسرها

ترك « ابن سعود » الدفاع فى داخل الرياض لأبيه واخوته وأخذ عددا من الرجال ، ومائة من الجمال وأربعين حصانا ، وأخذ معه أخاه سعدا وهو أحب إخوته لديه ثم سار نحو الجنوب فى مناطق الأفلاج والخارج الواقعة فى جنوب نجد وذلك بعد أن رتب الأمور بكل حزم وقد أخذ يتنقل من قرية

إلى أخرى يوقظ الشعور العـام و ينظم للشعب خطط الدفاع و يمده بالأسلحة ويترك فى كل منطقة بعض جنوده لتشجيع البدو .

وقد لحق به جيش الرشيد ولـكنه لم يتمكن من محاصرته بل وجد الطريق مغلقا فى وجهه فاذا دخل جنود الرشيد قرية قبض عليهم وإذا هاجموا جهة ومهم أهلها ووقعوا تحت قبضة «ابن سعود» . ولـكنهم مع ذلك ألحقوا به بعض الخسائر فتراجع إلى الخلف ، وأشعل ضدهم البدو ، وسكان القرى ، حتى اشتد خوفهم من «ابن سعود» وقد باغتهم من كل جانب ، وعند ذلك تيقظ الرشيد وعرف أن خصمه رجل لم يعد يستهان به فأتاه من حائل جنوبا ومن ورائه قوة كبيرة من قبيلة شمَّر . ولما اقترب من الرياض حذره الجواسيس قائلين له ان المدينة محصنة من كل مكان وأنها ستقاوم وتجالد ونصح له البعض أن يستولى على الآبار الواقعة فى خارجها أولا وبذلك يمنع المـاء عن أهلها ولـكنه كان يريد التمثيل بالثوار قبل الحصار وقد سمع أن « ابن سعود » فر الى الجنوب مخـافة بأسه وقد أذعنت ديلم عاصمة الخارج «لابن سعود» وهى واقعة فى جنوب الرياض فاستحسن الزحف عليها أولا . وقد استطاع أن يصل الى نجعان التى تبعد عن ديلم بأربعة أميال شمالا . فلما علم بذلك «ابن سعود» رأى أن الفرصة سانحة وأن عليه أن يقابل الرشيد فى الفضاء هذه المرة ويحاربه وجها لوجه ، ولـكنه حاول اجتذابه الى الجنوب . ولما رأى أن جنده أقلية لا تصلح المعارك الحامية عمل على جمع قوة كبيرة فسافر فى أنحاء البلاد ليلا ونهارا لتحريض رجال القبائل على الانضمام اليه ولـكنهم كانوا لايزالون يرهبون الرشيد ومن يحارب معه من شمَّر ، ولـكن «ابن سعود» اقتلع الخوف من نفوسهم تدريجيا .

وكان جهاده متواصلا فلا ينام إلا قليلا ويأكل طعامه فى أثناء العمل وأخيرا

اجتمع حوله ألف جندى وكانت قدوصلته أخبار الرشيد فرأى أن الوقت ثمين جدا وأن المسافة التى يقطعها سبعون ميلا ، وأن عليه أن يصل قبل مطلع الفجر وقد أوهم الناس بانه سيسافر غربا ولكنه سار شمالا ليضلل الجواسيس.

أسرع فى السير ولكن الجمل الذى ركبه ما لبث أن تعب ليلا فلما أن ضربه بعصاه ألقى به فى الأرض وكادت تسحقه الجمال الخلفية لولا أن أنقذه جنوده بعد أن أصيب برضوض . ومع ذلك لم ينى دقيقة واحدة فقاد رجاله طول الليل وهو فى أشد حالات التعب، وأبى عليهم الراحة حتى وصلوا الى ديلم .

وكان فى شمال نجعان حيث رابط الرشيد نخيل كثيفة ووزع فرقه فى هذه المنطقة ولما دخل المدينة أمر باغلاق أبوابها وأن يحرس عدد من جنوده هذه الأبواب . وكان قد واصل سيره سبعة أيام لا يستريح فيها ولا يجد كفايته من الطعام فحمله خفراؤه الى إحدى البيوت ودلكوه بالزيت ونام حتى الظهر، ثم استيقظ متعبا ، ولكنه على أتم استعداد .

وتقدم الرشيد نحوه نهارا فأطلق «ابن سعود» الرصاص على جيشه وقتل ستة من رجاله وأربعة جياد وفر الباقون الى الخلف . وزود الرشيد رجال الطليعة ولكن تغلب عليهم «ابن سعود» ومزق شملهم وكر وراءهم ومعه أنصاره من الديلم والبدو ، ولم يوقفه إلا قلة الذخائر وتعب الجمال

وشاعت أخبار انتصاره بسرعة البرق ولاشك أنه انتصار غريب، انتصار سعودى على الرشيد لأول مرة فقامت الخارج والأفلاج وانضمتا اليه وشتتوا شمل البقية الباقية من قوة الرشيد ، كما انضمت اليه نجد الجنوبية .

ولكن الرشيد كان غاية فى الجرأة فلا يسهل القضاء عليه بسرعة ، فقد صمم على الحرب طول حياته وبغير تباطؤ قبل أن تنمو قوة « ابن سعود » فبمجرد أن عاد إلى حائل جمع قوة جديدة وقصد الكويت ، فاستغاث مبارك

«بابن سعود» ولي هذا الأخير نداءه فسار إلى الكويت .

وكان يقصد الرشيد إخراج عدوه من الرياض حتى يتيسر له دخولها من جهة الجنوب ولكن عبدالرحمن كان يقظاً فصده فى الحال . ولما علم «ابن سعود» بذلك لم يتعجل فى العودة إلى الرياض ولكنه أراد أن يقطع خط سير العدو وأن يثير القرى المجاورة ، فأسكتت شمر واختفى جيش الرشيد ، وسقطت القرى فى يد «ابن سعود» واحدة بعد الأخرى ، وطارد الرشيديين حتى أصبح له الاشراف على نجد نحو خمسين ميلا شمال الرياض . وبذا تغير موقف «ابن سعود» بهذا النجاح ، وأصبح يحكم نصف بلاد نجد فجمل لنفسه اسما ممتازا بين المحاربين ، إذ هزم الرشيد ، وأضحت له قوة هائلة . واستمرت الحرب فى خريف سنة ١٩٠٢ وربيع سنة ١٩٠٣ التى انتشرت فيها المجاعة .

على أن الحرب كانت قائمة على منازعات شخصية بين «ابن سعود» والرشيد وكان اعتماد الرشيد على قبيلة شمر المجاورة لحائل ، أما «ابن سعود» فانه اعتمد على أهل الرياض والجهات المجاورة ، وكانت القوة تتراوح بين الطرفين ، وقد انضم إلى «ابن سعود» رجال من مطير ، وحرب ، وعتيبة ، وعجمان ، وهؤلاء اشتهروا بالغدر والمطامع والشهوات ، ولم تكن هناك جيوش منظمة ، وإنما النصر يرجع إلى حزم القائد ، وقوة شخصيته .

وكان الرشيد رجلا قصير القامة ذكيا غاية فى الخبث والمكر وغاية فى البخل فلا يحبه الناس وليس له صبر ومقدرة فى حسن معاملة العرب ، وكان حكمه قائما على القوة والجبروت ، يحارب للسلب والتخريب . أما «ابن سعود» فرجل باسل كريم صبور إلى غير حد ، يعرف كيف يعامل البدو ويستهويهم وله جميع الميزات الشخصية التى تعجب العرب . وقد امتاز بمواهبه الحربية وشجاعته ، وبشاشته ، وكان شابا أمينا يثق بشعبه ، ويعمل لرقيه وارتفاعه

ويوحى إلى هذا الشعب بروحه القوى، وإذا هاجم فانما يهاجم ليحكم ويصلح لاليخرب ويدمر، فالمقارنة بين الرجلين مقارنة بين مستبد جاهل، وعبقرى حازم، أو هى مقارنة بين الأوتوقراطية، والديموقراطية، اللتين تمثلتا فى هذين الرجلين.

ولما أن تفشت المجاعة فى سنة ١٩٠٣ سار «ابن سعود» نحو الشمال وكان بينه وبين شمر منطقة القاسم ومن أشهر مدنها عنيزة وبريدة وهى لاتزال تحت سلطان الرشيد، ولما كان الرشيد معنيا بثورة القبائل ضده فى الشمال هجم «ابن سعود» على هذه البقعة، وقتل حاكم الرشيد فيها وأخذ عنيزة وبريدة.

وقد أرسل الرشيد مجموعة من الرجال تحت قيادة عبيد أحد أبناء عمه إلى حصن بريدة ولكن «ابن سعود» هزم عبيداً هزيمة منكرة ففر معه الشماريون وأسر عبيد، ولما مثل عبيد بين أيدى «ابن سعود» جعل يقول هذا الأخير: هاهو عبيد بن رشيد الذى قتل عمى محمداً فى الرياض. ثم مد يده إلى سيفه فى قرابه — سيفه الذى أعطاه له والده — فصرخ عبيد: آه! لاتقتلنى ياأباتركى! قال «ابن سعود» هذا ليس وقت الرحمة، إنى أقيم العدل، والعدل يأمرنى بالقصاص من القاتل. وقطع عنقه بهذا السيف ومزق صدره، وقبل السيف قبل أن ينظفه ويرده إلى غمده.

وعندئذ أصبحت حامية بريدة لاتؤمل فى النجاة فسلمت نفسها وأذعنت القاسم «لابن سعود» كما أذعنت شمر.

وبعد هذه الانتصارات كلها عاد «ابن سعود» ظافرا إلى الرياض، فخرج الوهابيون يستقبلونه كما يستقبل الفاتح المنتصر الذى كلل جبينه بالغار، وقد اجتمع رجال الدين، وأعاظم الرجال والحكام فى المسجد الكبير بعد صلاة الظهر، وحضر «ابن سعود» ووالده فنودى بالأول أميراً لنجد وإماماً للوهابيين

الفصل السادس

بين « ابن سعود » والأتراك

لم يطمئن الأتراك لهذا الأمير الجديد وهم حكام بلاد العرب بصفة اسمية إذ كانت امبراطوريتهم مترامية إلى تلك الجهات فشملت بلاد اليمن والحجاز وما بين سوريا والفرات إلى بغداد والأراضى الممتدة على الخليج الفارسى إلى الهزا وكانت سياستهم فى بلاد العرب عبارة عن إثارة الفتنة بين القبائل وتقوية فريق ضد الآخر ، فعارضوا الرشيد لما كان قويا والآن أصبحوا يفكرون فى مقاومة « ابن سعود » .

وكان السلطان عبد الحميد يطمع فى إحياء الامبراطورية من جديد وباعتباره خليفة المسلمين أراد أن يحكم بلاد العرب بأسرها ، وشجعه على ذلك حلفاؤه الألمان الذين أرادوا بناء سكة حديد الشرق لعرقلة الانجليز فى مستعمراتهم ولطردهم من الخليج الفارسى والاستيلاء على الكويت .

فلما تلألأ نجم عبد العزيز « ابن سعود » فى سماء نجد أحسوا بخطورته لا سيما وأنه صديق الشيخ مبارك حاكم الكويت وظن أيضا أنه نصير الانكليز فهو أصعب خضوعا لهم من ابن رشيد ولذلك حرضوا عبد الحميد على مساعدة الرشيد ضد « ابن سعود » .

على أن « ابن سعود » الذى اكتسح الرشيديين وطردهم إلى ماوراء نجد أصبح أمامه غايتان : (١) جمع البلاد كلها تحت لوائه (٢) إصلاحها وإنعاشها ليوطد قدمه فيها ، وكثيرا ما فكر فى تغيير حياة البدو الرحل بجعلهم زراعا

مستقرين فى أراض معينة ، وإلا لو بقوا على حالتهم من حيث التنقل وشن الغارات فان دولته يكون مآلها التفكك والدمار .

وكان لابد قبل هذا الاصلاح من نشوب المعارك واشتعال الحروب لأن البدو رأوا هذا الاصلاح لا يتفق مع ما جبلوا عليه من حيث الغزو الذى يعتبر عندهم ألعابا رياضية يتسلون بها فى ساعات الفراغ .

على أنه من الناحية الدولية رأى « ابن سعود » نفسه أمام دولتين هما تركيا صاحبة السيادة الاسمية كما ذكرنا ، وبريطانيا التى وضعت قدمها فى الخليج الفارسى وتحالفت مع أكثر مشايخ العرب لتستخدمهم فى مآربها الاستعمارية .

وقد أرسل عبد الحميد فرقا كثيرة إلى اليمن والحجاز وضاعف الجند فى حاميات بغداد والهزا وأمر بانشاء خط حديدى من دمشق إلى المدينة (١) واتفق مع الرشيد على أن يحكم هذا الأخير بلاد العرب الوسطى باعتباره والياً من قبله . ولما كان الرشيد فى حاجة إلى القوة التى تمكنه من ذلك أمر السلطان تابعه فى بغداد أن يرسل جيشا إلى الرشيد لاكتساح « ابن سعود » وقد أرسل قوة بالفعل .

فجمع « ابن سعود » من هب ودب من الرجال لملاقاة العدو وكان عدوه قوى الجانب خصوصا وأن الأتراك أمدوه بالمال والأسلحة فى حين أن « ابن سعود » كان لايجد القوت الكافى لرجاله ولكنه كان يسليهم بالأمل ويمنيهم بالنعيم، بعد انتصارهم واستيلائهم على ذخائر الأعداء .

وقد داهم عدوه على حين غرة مخترقا صفوفه بعدد قليل من الرجال ولما ظهرت بوادر انتصاره تشجع الأقاية واستماتوا فى القتال وكان ذلك فى منتصف يونيو حين يشتد لهيب الشمس ، ولكن « ابن سعود » ظهر فى طليعة جنوده

---

(١) ذلك الخط الذى كان مزمعا أن يفتتحه زعيم مصر الاكبر المرحوم مصطفى كامل باشا

ليشجعهم حتى جرح فى عدة مواضع مختلفة من جسده فخسر الرشيد فى المعركة ألفا من المقاتلين وفر الأتراك من لافح الحر فأخلوا له السبيل وفكروا فى استرجاع القاسم والجزء الشمالى من نجد .

ويجب أن نذكر هنا أن «ابن سعود» وقف فى هذه الحرب أمام جيش منظم لا أمام قبائل مبعثرة وكان على رأس القوات التركية ضابط مشهور هو أحمد نورى باشا، ولذا عنى بتجهيز جيشه أتم عناية فاستعمل المدافع الحربية الحديثة ودقق فى اختيار مناطق القتال فلم يكن عجيبا أن ينتصر وأن يجتاح صفوف الأتراك، وهو فى غاية الهدوء ورباطة الجأش والشجاعة، مع أن رجاله لم يكونوا على درجة كافية من المهارة الحربية .

ومع ذلك تعب كثيرا فى هذه المرة وكاد جيشه أن يسلم للعدو ، وتقدم الأعداء لاحتلال خيام السعوديين لولا أن جاءه مدد من القاسم ، ولولا أن تفشت إشاعة فراره من الميدان مما أدى إلى تكاسل أعدائه وركونهم إلى الراحة . إذ ترك الأتراك مواقفهم فى بقيرية ولجأوا إلى الواحات الجميلة المحيطة بمدينة راس فلحق بهم «ابن سعود» وحاصرهم بجيشه .

وفى ساعة الحصار توقف الجيشان عن القتال وبعد ثلاثة شهور بهذه الكيفية اشتد الحر ، وألقى الأتراك القنابل ، فانتشر وباء الكوليرا بين الوهابيين ، وتلك طريقة وحشية فى القتال .

فاضطر «ابن سعود» للتخلى عن شىء من كبريائه وطلب المسالمة مما جعل ابن رشيد يسخر منه . وقد حل فصل الخريف والأتراك فى الميدان وتحرك مابقى من قوات ابن رشيد نحو الشمال الغربى لراس ولكن كر عليهم فرسان «ابن سعود» وقد ظهر «ابن سعود» بنفسه على رأسهم مما أشعل الحمية فى قلوب جنوده ، فأذعن الأتراك وتقهقر ابن رشيد .

وسر «ابن سعود» بهذا الانتصار ولكن رجاله اهتموا بالغنائم والأسلاب ولجأ الأتراك إلى إرشاء النجديين فأصبح « ابن سعود » مهددا بالخطر. ولكن فتك الجو بالأتراك فسلم بعضهم وفر آخرون إلى شمر ، ومات منهم كثيرون بسبب الجوع والظمأ . وضاق الخناق عليهم فى بلاد اليمن حتى أعلن الامام يحيى استقلال بلاده فصمموا على نشر الوباء والفتنة فى هذه البلاد .

ولم تكن الدولة العثمانية — مهما كانت الظروف — لتترك المجال رحبا أمام الوهابين ولم يكن «ابن سعود» يحارب من أجل الاستقلال بل كان يحارب دولة أعانت عليه عدوه وعدو آبائه ، وعلى كل انسحب الأتراك واجتهد «ابن سعود» فى ثمانية عشر شهراً أن يحصل على مساعدات جدية من القاسم وقد وقع فى يده ميثاق كان قد أجرى بين حائل والكويت فصمم على الحرب ولم يكن ابن رشيد مستعدا إلا للمناوشات .

ولكن هجم الوهابيون على العدو فى مكان يقال له «ردهة المهانا» على مقربة من بريدة فاكتسح « ابن سعود » خصومه واضطربت شمر ولم يستطع أميرها أن يجمع شملها، وبذلك انتهت دولة الرشيد بعد أن قتل زعيمها وانتشرت الفوضى بين رجال حائل فلم يصبحوا خطرا يهدد «ابن سعود» .

ولا شك أن هذا النصر المبين كان سرا من عند الله فان «ابن سعود» فى أحرج المواقف كان يقرأ القرآن باستمرار، ويحافظ على أوامر دينه الحنيف فأنار الله سبيله ونصره على عدوه «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم»

الفصل السابع

قبيل الحرب العظمى

كان «ابن سعود» فى السابعة والعشرين من عمره قوى البنية ، محبوبا لرعيته مشهورا بين العرب بالبطولة لأنه انتصر على الترك ومزق قوة الرشيد وفتح نجدا معتمدا على نفسه . إلا أن طريق المجد دائما محفوف بالمخاطر والصعاب وقد ألمت «بابن سعود» فى داخل البلاد وخارجها ، فلم يكن من السهل أن يذعن العرب المحافظون لسيد جديد بل كانوا كما وصفهم الاستاذ « آرمسترونج » كالرمال فكل قبيلة بل كل رجل يعتبر وحدة قائمة بذاتها وكما يسهل جمع الرمال فى حفنة واحدة كذلك يمكن جمع هؤلاء فى قبضة رجل قوى ولكن الرمال تتناثر ولا تتماسك وتصبح كتلة كقالب الطوب ، كذلك إذا ضعفت اليد القوية يتفرق أولئك ويتناثرون .

وقد التف مشايخ القبائل حول الزعيم الجديد لا بدافع الاخلاص بل ظنوا أن الانضمام إليه يتيح لهم فرصة السلب والنهب حينما يهزم الرشيد ولكن لم يكن «ابن سعود» ليستبيح السلب والنهب ، وما قام إلا ليقضى عليهما فمنعهم من الغزو بغير إذنه وأنزل العقاب القاسى بكل من يعصى له أمرا ، فاشتد قلقهم وثارت ثائرتهم .

فقد تغزو قبيلة « حرب » مثلا أختها « شمّر » وقد تصطدم قبيلة مطير بالجيوش التركية ، إلا أن «ابن سعود» لا يرغب فى هذا وانما أراد أن يستولى

على «القاسم» وعلى مملكة « حائل » مع افتقاره للاستعداد الحربى اللازم لمثل هذا العمل الشاق

ولذلك ثبت فى موقفه ازاء الترك المهزومين الذين أرادوا أن يرابطوا فى جهة منيعة بين حائل والرياض، وقالوا بأن القاسم يجب أن تكون تابعة لهم ولكن «ابن سعود» عارض هذا القول بشدة، وانتهى الأمر بأن أعلنوا حسن التفاهم من ناحيتهم.

وبعدئذ أمن « ابن سعود » جانبهم كما أمن جانب الرشيديين تبعا لذلك ولكنه لا يستطيع مع هذا أن يتفرغ لاصلاحاته الداخلية لأن علماء الرياض لم يطمئنوا اليه ، فحقيقة كان مواظبا على صلواته وصيامه وزكاته ولا يشرب الخمر ولا يدخن التبغ ولا يحنث فى يمين ، شأنه فى ذلك شأن المسلم الطاهر القابض على دينه إلا أنه كان مزواجا نظرا لقوته وحدة غريزته الجنسية، وهل حرام أن يكثر من الزوجات ؟؟ ذلك عندى أفضل من الجرى مجرى بعض الملوك الذين يكثرون من الخليلات فى قصورهم وذلك عندى خير من الزنى وهو فاحشة و إثم مبين .

ولكن الرجعيين من الوهابيين ربما أغضبهم هذا وخصوصا أنه لم يسلك مسلكهم فى التفكير وهم الذين يمقتون المرح والضحك وقد وصل الى علمهم أنه أذن لجنوده بأن يغنوا ويترنموا وسمعوا أيضا أنه وجد أهل عنيزة يدخنون التبغ فما زجرهم ولا عاقبهم، وفوق ذلك يعلمون أنه صديق لمبارك ذلك الرجل العربيد الملتوى فى أخلاقه ،وأنه خالط الاجانب وشجعهم على مزاورته .

إلا أن أباه كان موضع ثقتهم جميعا فاستعان به ولده «ابن سعود» الداهية الذى أمكنه أن يعامل المتطرفين على قدر عقولهم، أولئك الذين يعتبرون أنفسهم حراسا لضمائر الناس ولضمير الحاكم بصفة خاصة ، فاضطر لمجاراتهم فى الظاهر مع الاحتفاظ بتفكيره السليم قلبيا .

كل ذلك هين فى نظره ولكن الأخطار الخارجية كانت أشد تعقداً فقد خشى مبارك من انتصارات «ابن سعود» المتكررة التى أخلت بالتوازن بين حكام العرب ، وجعلت صاحبها يصل إلى درجة من القوة ، تهدد الكويت نفسها ، فبدأت تنفصم عرى الصداقة بين الطرفين ، إذ أن مباركا الذى عرف «ابن سعود» فى منفاه لما كان تحت رحمته حقد عليه وآلمه أن يصبح «ابن سعود» فى هذا السن رجلا يعتد به ، وجرت مقابلات ومراسلات بين «ابن سعود» ومبارك ، وكلها كانت فى حدود اللياقة والآداب ، ولكن مباركا بدأ بالعدوان فانضم إلى الترك الذين أدروا عليه المال ليضعف من نفوذ صديقه القديم ويوقفه عند حده .

ومن ذا الذى يعلم سر الخلاف ؟ إنى كمصرى وقف على بعض ألاعيب الساسة الانكليز يخيل إلى أن الانكليز هم الذين أفسدوا العلاقات الطيبة بين الطرفين جريا على سنتهم «فرق تسد»

وبين نجد والكويت كانت تعطن قبيلة مطير التى فضلت أن تشترك فى الدسائس الخارجية على أن تكون تابعة للرياض ، وقد ادعى «ابن سعود» حق السيادة عليها ، فاتصل مبارك بزعيمها «فيصل الدويش» وحرضه على عصيان «ابن سعود» كما حرض الرشيد على الانضمام إلى مطير ، وكما حرض حاكم بريدة على عدم الاعتراف «بابن سعود» وبمجرد أن سمع «ابن سعود» بأن حاكم بريدة أغلق الأبواب فى وجهه هجم عليه وحدثت معركة حامية ، وفى هذه المعركة كبا جواد «ابن سعود» فسقط من على صهوته وأصيب بكسر فى عظام الترقوة ، وقد انجلت الموقعة وكانت نتيجتها تعادل القوتين . ونام «ابن سعود» ليلة يشكو من كتفه ، فلما رآه رجاله بتلك الحالة فترت عزائمهم وفكر بعضهم فى الفرار . ولكنه كعادته استهان بالألم وقاد جيوشه فجراً ، فطرد

قبيلة شمر إلى الوراء ، وانتقل إلى مطير فدمرها ، وسلبها ، وأحرق القرى الواقعة فى طريقه إلى الكويت ليلقى على المترددين درسا رهيبا .

وأخيرا تحول إلى بريدة التى أوصدت أبوابها ، فوجد أن بعض أتباعه يقيمون فى داخلها ، فلما أحسوا به فتحوا له الأبواب وخرجا كمها أمامه على ركبتيه ظنا منه أن «ابن سعود» عازم على قتله ، وغايةماهنالك أمره بالخروج مع أسرته من تلك البقعة توا ، ثم عين جلوى حاكما لها بدله ، فاستطاع جلوى أن يقضى على الفتن والقلاقل فى شمال نجد .

لم يكن «ابن سعود» يحارب لارضاء نفسه، ومن أجل كبريائه ، وإلا لباء بالخسران . وقد رجع إلى الرياض قبل أن تتولد مشكلات جديدة ، وقبل عودته بسنة ظهرت فى تركيا «جمعية الاصلاح والترقى» وخلعت السلطان عبدالحميد إلا أن هذه الجمعية أيضا سارت على سياسة عبدالحميد فكانت لها أطماع امبراطورية خصوصا وأن قادتها تجرى فى عروقهم دماء الشباب فصمموا على حكم البلاد العربية حكما مباشرا ، وأسرعوا ببناء السكة الحديدية بين دمشق والمدينة المنورة لنقل الجنود والحجاج إلى بلاد العرب ، وعينوا الحسين بن على للامارة وليحكم باسمهم فى مكة والحجاز .

وكان حسين أنموذجا للحاكم العربى التركى ، فقد قضى سنوات عديدة فى البلاد المتمدينة وتقلد مناصب كبيرة ، ولما عين كان فى سن الستين ، وقد مات بعد ذلك التاريخ بعشرين عاما طريدا فى شرق الأردن .

أقسم حسين يمين الاخلاص للباب العالى ، وقد أعجب به الأتراك فى سنة ١٩١١ لما فرض سلطانهم على البدو وكانوا فى هذه السنة منشغلين بحرب طرابلس فانتهز الادريسى هذه الفرصة وقام فى عسير بحركة ترمى إلى تحطيم نير الأتراك ، فقاومه حسين وأوقفه عند حده ، وكذلك قام حسين بواجبه على أتم وجه .

وتنازع حسين مع «ابن سعود» لما أراد الأخير أن يحكم عتيبة — وهى بين نجد والحجاز — وأن يجند رجالها فى جيشه ويجمع منها الضرائب وأنكر حسين عليه هذا الادعاء . فسار «ابن سعود» إلى عتيبة من ناحية الشرق وأخضعها وأرسل حسين ولده عبد الله ليهجم من جهة الغرب فتقدم «ابن سعود» إلى الأمام ومعه أخوه سعد الذى يحبه حبا جما، واستطاعت جيوش حسين صدفة أن تقبض على سعد وتزج به فى الأسر بينما كان سعد يجمع المؤن من عتيبة للقضاء على الاضطرابات القائمة فى الولايات الجنوبية .

وإزاء ذلك لم يتردد «ابن سعود» وهو الذى لا يعرف التردد فى جهاده ؛ لم يتردد فى الخضوع للأمر الواقع ولم يتغافل عن الحقيقة، فقبل الشروط التى عرضها عليه الشريف حسين، وهى تتلخص فى الاعتراف بسيادة تركيا على القاسم ودفع جزية سنوية مقدارها ستة آلاف مجيدى (ألف جنيه انجليزى) وفى نظير ذلك يفك أسر أخيه سعد .

وعاد حسين إلى مكة فرحا مسرورا وهو لا يعلم أن خصمه المهزوم هو الذى جلس على عرشه فيما بعد . على أن «ابن سعود» رجل ثابت باسل فلم يستسلم للأسى والحزن ، بل نشط للقضاء على ثورة أبناء عمه الذين انتحلوا لأنفسهم لقب العرايف وقاموا ضده بالثورة مدعين أنهم أحق منه بالسيادة وقد قضى عليهم بسرعة مدهشة ، ففر بعضهم ووقع أغلبهم فى الأسر وحاول عدد كبير منهم أن يختفى فى مكة فاستقبلهم الشريف حسين وأكرم مثواهم ظنا منه أنه يستطيع أن ينتفع بهم فى إدارة أموره ومشروعاته .

كذلك ثار الزعماء الحزانيون وكان قد قبض عليهم وعفا عنهم قبل ذلك بشهور فلم يشفق بهم بل أعدمهم دون تباطؤ ؛ وكان إعدامهم من المصلحة فمنذ هذا الحادث رأى النجديون أن «ابن سعود» حاكمهم الفعلى وأن الثورة

ضده مقضى عليها بالفشل فوضعوا ثقتهم فى شخصه، وما أثمن ثقة الشعوب بزعمائها خصوصا الثقة برجل عبقرى كعبد العزيز «ابن سعود» .

وبذا ظهر الأداة السياسية ورأى أن ينصرف بجنان ثابت إلى علاج الأمراض التى تفتك بجسم الأمة . وفى هذه الأثناء اضطرم فى نفسه لهيب الغيرة الدينية وتزايدت أطماحه الامبراطورية ، وهذان العنصران ظهرا فى ثلاث مراحل من حياته :

(١) عند ماطرد الأتراك من الحزا سنة ١٩١٣

(٢) عند ماضم مملكة حائل إليه سنة ١٩٢١

(٣) عند مااستولى على الحجاز من سنة ١٩٢٤ — سنة ١٩٢٥

وقد ظل العاملان الدينى والسياسى يغذيانه حتى صار إماما وملكا .

الفصل الثامن

سياسة الاصلاح

جهاد متواصل ، ومسئولية شاقة ينوء دونها الكثيرون ممن يتوارثون الملك عن آبائهم وأجدادهم أما « عبد العزيز بن سعود » ذلك الملك العصامى فانه أراد أن يكون من قبائل العرب — المتقاتلة الهمجية — شعبا منظما يخضع فى رقيه لقوانين العصر الحاضر ، ولذلك فكر وتأمل ، وكانت دعوته لا تستند إلا الى شخصيته القوية الجبارة ، ولا شك أنها صادفت نجاحا فى بلاد العرب ؛ ولكى يكون نجاحها خالدا أبديا رأى « ابن سعود » بثاقب فكره أنه لابد من احلال النظام محل الفوضى .

رأى أنه قد جعل النشاط يسرى بين قبائل العرب وأنه لكى يسير بشعبه نحو المجد يجب أن يقضى على السلب والنهب وإحلال القوة مكان القانون ورأى أن يقوم باصلاح ذى ثلاث شعب : اصلاح دينى ، واصلاح سياسى واصلاح اقتصادى ، وربما كان الاصلاح الأخير أكثر الثلاثة صعوبة لأسباب جغرافية وطبيعية .

أما من الناحية الدينية فمنذ عهد الرسول عليه السلام اشتدت الغيرة الدينية عند العرب وقد ظهرت حركة القرامطة من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ، وتبين أنه لابد لنوال الاصلاح الاجتماعى من تقرير المساواة بين الناس . والقرامطة هم الذين انتزعوا من مكة الحجر الأسود ولكن دولتهم لم تعمر طويلا فما لبثت أن تداعت واختفت وظهرت حركة الوهابيين التى

سبق بيانها، ويكفى فى هذا الصدد أن نشير الى بعض أوجه الخلاف بين مذهب الوهابيين وبين عقائد غيرهم من المسلمين :-

أولا : يرى الوهابيون أن لا معبود إلا الله وأن الرسول عليه السلام بشر فوق مستوى البشر، وأنه لا يصح أن يقرن اسمه باسم الله وإن كان ذلك لا يقلل من احترامهم لصاحب الرسالة عليه السلام [١]

على أنى لما قرأت ذلك فيما كتبه الاستاذ « كينيث وليامز » وقفت حائرا بين هذا الرأى وبين قوله تعالى فى كتابه العزيز « إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » فانى لم أعثر على دليل شرعى يستند اليه الكاتب فى تبرير هذا الرأى، ولذا وجدت أن أكتفى بسرد هذه الحقيقة تاركا الحكم لأئمة الدين وللمختصين فى دراسة المذاهب

ثانيا : أنكر الوهابيون ما كان يظنه البعض من أن الخليفة له سلطة روحية وهذا الخلاف أصبح عديم الأهمية لانقضاء عهد الخلافة .

ثالثا : أعلن الوهابيون كراهيتهم لعبادة الأولياء وهى متفشية بين المسلمين حتى اضطر « ابن سعود » لتدمير قباب الأولياء . وأنا من انصار هذا الرأى فانك لا تكاد تذهب الى ضريح فى مصر الا وترى الجهال يقبلون الأعتاب ويستغيثون بالأولياء غير ذاكرين الله ولا معتمدين إلا على العظام المدفونة فى تلك القبور [٢] .

---

(١) هذه فرية على الوهابيين ، إذ أنهم يقرنون اسم الرسول عليه السلام فى أذانهم كل صلاة ، وأجمعت الأمة على أن من يقول « لا اله الا الله » بدون أن يقرنها بقوله « محمد رسول الله » متعمداً : كفر.

(٢) لم نر ولم نسمع أن شخصا — بالغا ما بلغ من الجهل — زار وليا عبادة له ، بل المعلوم شرعا أن زيارة القبور مرغوب فيها ، مستحب الاكثار لها ، للاتعاظ والتفكر ؛ وأن انكار كرامات الأولياء فرع من انكار معجزات الأنبياء ، وقد جعل الله كرامة الأولياء دلالة على معجزة الأنبياء ، لأننا لم نرها ، وواجب علينا التصديق بها « الناشر »

نحن لا نستطيع أن نحكم على ولى بالصلاح أو عدمه لأن ما نعرفه عنه انتقل الينا عن الرواة ، وهؤلاء الرواة تأثروا بظلمات العصور التى أنتجتهم ولذا لا نسرف فى الحكم على ولاية الولىّ حتى ننزله منازل الرسل كما يفعل ذوو المدارك المنحطة والعقول السقيمة وانما نعتمد على الله وحده ولا نجعل للأولياء أكثر من قيمة تاريخية،لكى نسلك مسالك الصالحين منهم ولو فعلنا لصرنا فى منزلتهم « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأظننى قداسترسلت فى هذه النقطة ولكنى أعتقد انها تحتاج لبحث مستفيض ليس هذا مجاله ونحن محتاجون الى هذا البحث لنقضى على الخرافات التى وقفت حائلا بيننا و بين الرقى والاصلاح

رابعا : يحتفل المسلمون سبع حفلات دينية ولكن الوهابيين لا يحتفلون إلا فى أيام عيد الفطر ، وعيد الأضحى .

ومهما يكن الخلاف المذهبي بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين ، فاننا نجل الوهابيين لأنهم يدققون فى عباداتهم فيحفظون القرآن ، والحديث ، ويأتمرون بما جاء فى الشريعة الغراء ، و ينتهون عما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فيحرمون على أنفسهم لبس الحرير ، والتحلي بالذهب ، وشرب الخمر ، وتدخين التبغ ، ويحاربون السحر ، والميسر ، وغيرهما من الأرجاس .

على أن أشد الناس عداوة للوهابيين ليسوا من المشركين وغير المسلمين وإنما هم : الشيعة ، والسنيون من المسلمين . وقد شاع مذهب الوهابيين فى بلاد العرب فى القرنين : الثامن عشر ، والتاسع عشر ، وقد هزم المذهب ، ودالت دولة الوهابيين فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يمت .

فلما ظهر «ابن سعود» تنبه إلى مذهب آبائه ، وعرف أن الرجل الذى يجاهد جهادا مقدسا، لايخاف الموت ولا يخاف لومة لائم ، وعرف أن دولة

الوهابيين الأولى قد أساءت إلى المذهب بتعصبها . والحقيقة أن البدو عندما دعاهم محمد بن عبد الوهاب إلى سنته تشككوا وظلوا متشككين وإذا كانوا قد تشيعوا إليه فلم يفعلوا ذلك بناء على اعتقاد منهم وإنما فعلوه ليصطدموا بخصوم المذهب ، فيجدون فرصة للسلب ، والنهب ، لذلك لما قدم لهم الغزاة الدراهم والدنانير تخلوا عن حكامهم ، وانضموا إليهم . فكانوا يساعدون الوهابيين تارة ، وتارة يعاونون الأتراك ، وتارة يجاهدون مع المصريين ، وأحيانا يحاربون مع الرشيد ، وأحيانا مع غيرهم لأنهم أناس لا عقيدة لهم ، والعقيدة الصحيحة لا تزعزعها الأعاصير مهما قويت ولا تضعفها الرشوة مهما أدرت على صاحب العقيدة من منافع شخصية ، وإنما تبقى ثابتة لا تعرف إلا طريقا واحدا ، ويتفانى صاحبها من أجلها حتى يموت ويتركها تنير بين الناس .

قال «ابن سعود» فى دخيلة نفسه : ولماذا لا نغرس فيهم الايمان ؟ وكيف نستثير غيرتهم الدينية ونقودهم إلى النجاح ؟ تلك رسالته ، وهى متعبة مضنية وقد رأى أن الحل الوحيد ، حل اقتصادى دينى .

وذلك أنه أسس حركة الاخوان المشهورة ، واختار الاخوان من الرجال الذين أقسموا أمامه يمين الولاء ، والاخلاص ، فأراد أن يستخدمهم فى تعمير البقاع التى قرر زراعتها .

وتلك سياسة لها خطورتها وأهميتها ، ففى القرون الغابرة كان سكان المدن دون سواهم يتعلمون نظريات الوهابيين وكان طبيعيا أن يقاوم البدو انتصارات السعوديين . وقد رأى « ابن سعود » أن القبائل البدوية هى العمود الفقرى فى دولته فلا بد من استقرارها فى الأراضى الزراعية ولا بد أيضا من أن تتعلم أصول الدين ، ولا بد من القضاء على العادات التى اكتسبوها بالتنقل والرحيل ، وذلك بتربيتهم تربية خلقية ، حتى يستأصل الشر من نفوسهم .

وفى فصل الربيع تيسر له أن ينشىء بلادا زراعية وكلما تكونت قرية أرسل إليها واعظا من قبله ينشر فيها العلم والنور ويعلم العرب القراءة والكتابة وأصول الدين وكان يريد أن يجعل كل قرية معسكرا حربيا وموطنا زراعيا ومعبدا دينيا ، يقوم على أساس مذهب الوهابيين .

وهو فى ذلك كان يحارب طبيعة بلاد العرب المجدبة وطبائع البدو الجامحة فقد كانت نجد منذ قرون خلت بلدا عقيما لا ماء فيه ولا نبات فاضطرت القبائل لأن تتجول فى الفيافى باحثة عن مواطن الكلأ ومنابت العشب فاحتاجوا للغزو والقتال حتى أصبح شن الغارات عندهم طبيعة ثانية ولذلك رأى « ابن سعود » أن هذه الطبيعة التى تفتك بجسم الدولة لا بد من القضاء عليها بواسطة جيش نظامى وربما لم يفكر فى مثل هذا الجيش ملك قبله من ملوك العرب .

وقد بدأ فعلا فى سنة ١٩١٢ فى مكان يقال له « أرتاوية » ولم يكن هذا المكان إلا ينبوعا صحراويا تعمره قبيلة مطير فلما نفذ سياسته الاقتصادية فى هذه البقعة أصبحت عامرة مطمئنة يسكنها أكثر من عشرة آلاف نسمة . وقد نفذ هذه السياسة أيضا فى جهات كثيرة حتى يوجد الآن أكثر من مائة إمارة منزرعة فى الصحراء .

وكانت خطواته الأولى غاية فى الدهشة إذ أنه أغرى الاخوان وحثهم على مكافحة روح القبيلة حتى قبائلهم التى ينتسبون إليها وأمدهم بالأسلحة اللازمة وقد استطاع أن يؤثر عليهم حتى تناسوا أسماء قبائلهم واندمجوا تحت لواء واحد جاعلين الاخاء شعارهم وأجزل لهم العطاء حتى شيدوا البيوت ، وحفروا الآبار ، وزرعوا الصحراء .

وبعدئذ انتظم أتباع « ابن سعود » فى ثلاثة فروع : —

(١) سكان المدن والقرويون وهم الذين ترعرعوا فى أحضان المذهب الوهابى

(٢) الجنود المحاربون فى سبيل المذهب وهم الأداة التى استطاع «ابن سعود» بفضلها أن يهذب روح القبيلة .

(٣) البدو المتنقلون ، ووظيفتهم نشر التعاليم الوهابية .

على أنه لا يفوتنا أن نقول بأن حركة الاخوان فى بلاد العرب تشبه حركة الانكشارية فى الدولة العثمانية فهم سيف ذو حدين وربما استعمل الحد الآخر من السيف ضد « ابن سعود » يوما من الأيام ولكن من ذا الذى يقدر على استخدام حد السيف ضد هذا الملك القوى الباسل !!

الفصل التاسع

حرب الهزا

بينما «ابن سعود» منهمك فى إصلاحاته الواسعة ، ظهر أعداؤه ومنافسوه من جديد . فأخذ فيصل الدويش يعمل مع قبيلة مطير للانتقام من «ابن سعود» وتأهبت عجمان للهجوم على نجد ، واستعد حسين بن على لمناضلته ، وقد حرضه عظماء سوريا وطلبوا منه أن يعلن نفسه حاكما لجميع العرب ، وشجعه أيضاً على هذه الفكرة أقارب «ابن سعود» الملقبين بالعرايف والذين تقدم ذكرهم وكذلك لعب مبارك من وراء ستار .

ومن خلف هؤلاء جميعا وقفت تركيا تقدم المال والرجال لقبيلتى شمر ومطير وللشيخ مبارك، وتمنى حسيناً بالأمانى المعسولة وترسل الكتائب من الجنود إلى حاكم حوفف عاصمة الهزا ، وقد أمرت هذ الحاكم بمعاونة قبيلة عجمان . ولسنا نعرف بالضبط متى صمم «ابن سعود» تصميما قاطعا على مناهضة الدولة العثمانية ويقول بعض العارفين بأن هذا التصميم حدث قبيل الحرب العظمى ، ويقول آخرون بأنه حتى فى سنوات الحرب وقد اشترك فيها عدد قليل من العرب لتحرير بلادهم من سلطان الاتراك، ظل «ابن سعود» محافظا على حسن العلاقات مع تركيا رغم أنها ساعدت عدوه الرشيد . وتدلنا الحوادث على أنه خشى من انتصار دول الوسط فى الحرب العالمية وما يترتب على هذا الانتصار من تقوية سلطان الأتراك، ولكن قبل نهاية الحرب يعتبر الاصطدام معهم سابقا لأوانه .

ومن الثابت أنه فى السنة التى قبل الحرب كانت العلاقات متوترة بين حكومة

القسطنطينية وحكومة نجد ؛ لأن الأولى كانت تدبر الدسائس مع الشريف حسين فى الحجاز ومع قبيلة عجمان فى شرق نجد ومع الرشيد فى حائل ، وذلك لتجبر «ابن سعود» على منازلتها . ولم يكن قصد الاتراك من هذه السياسة التفرقة للحكم لأنهم لم يعودوا يطمعون فى حكم أواسط بلاد العرب بل كانوا يبغون السيطرة على البحار لمنع أى زعيم فى الداخل من تقوية نفوذه ، ولما رأوا أنهم لا يستطيعون الهجوم مباشرة على «ابن سعود» لجأوا إلى إثارته ليبدأ بالعدوان .

وعندئذ فكر «ابن سعود» فى أسهل الطرق للقضاء عليهم وتردد بين الزحف على مكة أو الهجوم على حائل أو الاتجاه نحو الشرق ، وكان ذلك فى ربيع سنة ١٩١٣ وهو منشغل بمقاتلة قبيلة المرة التى لم تذعن له حتى ذلك التاريخ . وأخيرا أسرع فى السير بكل تكتم إلى أن رابط على مقربة من مدينة حوفف بعد أن قطع رحلة طويلة تستغرق خمسة أيام ، فى يوم ونصف .

ونظرا لطول المسافة تحمل مشقات كثيرة ، وكان عدد رجاله ستمائة فمات بعضهم ومرض البعض الآخر . وبمعاونة بعض أصدقائه درس مواقف الجيوش التركية وعرف كيف رتب الترك خططهم وكانت هنالك أسوار منيعة وقف خلفها فرقتان من الجند الاتراك هادئين مطمئنين واثقين أن «ابن سعود» لا يجسر على مهاجمتهم فى تلك الجهة ولكن «ابن سعود» كشف كل شىء واستطاع أن يتسلق الجدران على جذع نخلة كما فعل فى مهاجمة الرياض . وتسلقت فرقة معه ودخلوا القلعة واسمها قلعة «كت» على حين غفلة من حراسها فتمكن من ذبح حماتها ، والقضاء على من فيها ، وأحل محلهم جنوده . وأعلن من أعالى القلاع كلها أن «ابن سعود» هو الحاكم ولكن رغم ذلك الفوز لم تتح له الفرصة ليحتاط من الدسائس التى دبرها الخونة ولما رأى أن عددا كبيرا

من رجال الحامية ومن الموظفين أخذوا معهم عائلاتهم واختفوا فى المسجد حفر تحت المسجد لغما . وطلب إلى المتصرف أن يسلم المسجد وإلا أباد المختفين فيه فلم يتباطأ المتصرف فى تسليمه ، وعند ذلك دانت له موانى عقير والقاطف واعترفت المنطقة كلها بالحاكم الجديد .

أما الجنود الأتراك المدججون بالسلاح الذين وقع الرعب فى نفوسهم من جسارة هذا العربى فقد ساروا تجاه الشاطىء دون أن تطلق رصاصة واحدة وبذلك انتهى عهد الأتراك فى تلك البلاد وهم أذلة فنقلوا جنودهم على مراكبهم وكانوا آخر جنود أجانب خرجوا من منطقة الهزا .

إذاً استرد بيت سعود البقعة التى اقتطعها منه الأتراك قبل نصف قرن من الزمان واستطاع «ابن سعود» لأول مرة أن يكون له حصون بحرية فصار على اتصال مباشر ببريطانيا ، وكان لهذا الاتصال أهمية خاصة فى سياسته ، ويقول «وليامز» أن الفضل فى ذلك يرجع إلى نفوذ بريطانيا صديقة «ابن سعود» وهذا القول عبارة عن دعوة استعمارية فكثيرا مانادى الانكليز بأنهم أصحاب الفضل فى تقدم الأمم واتساعها ورقيها ، وصدقنى أنهم إذا تركوا المجال لأمة من الأمم فانهم يخدمون أنفسهم ويرمون دائما لفرض سلطان وهمى عليها ونحن نربأ برجل عظيم كعبد العزيز «ابن سعود» أن يكون مدينا للبريطانيين فى بناء مجده وأن تخدعه أقوالهم المعسولة التى تتساقط من أفواه الأفاعى .

ولما تم استيلاؤه على الهزا قوى مركزه الأدبى بين العرب وأضحت له صلات مباشرة مع بريطانيا فى الخليج الفارسى ولم تتباطأ حكومة الهند رغم أخطائها ومعايبها فى تتبع سير الحوادث فى بلاد العرب فخطا الكابتن شكسبير ممثلها فى الكويت خطوة موفقة بأن زار الرياض فى الشتاء الذى أعقب استيلاء الوهابيين على الهزا وأعجب «بابن سعود» كل الاعجاب وأحبه

«ابن سعود» كذلك وأخذ الكابتن شكسبير يرسل إلى حكومته تقارير وافية شارحا حسن إدارة الوهابيين، فاعتقدت بريطانيا أن نجما جديداً سطع فى سماء جزيرة العرب.

وربما فكر «ابن سعود» بسبب دسائس خصومه ولمصلحته الخاصة فى إبرام معاهدة صداقة وتحالف مع الامبراطورية البريطانية فى سنتى ١٩١٣، ١٩١٤ خصوصا وأن الأتراك فكروا فى اتخاذ موقف جدى إزاء الفاتح الجديد الذى انتصر عليهم فى الهزا. ولكن اضطروا للاعتراف به وضعفوا أمامه. فسعوا إلى اتفاق معه واعتبروا منطقة الهزا جزءاً من بلاد نجد فعينوه حاكما من قبل تركيا فى نجد والهزا ولقبوه «بصاحب الدولة» وأمدوه بالمال والأسلحة ووعدوه بألا يتدخلوا فى شئونه فى المستقبل ولكن «ابن سعود» لم يكن ليرضى أن يستمد سلطانه من الحكومة التركية.

على أن لهذه الحقيقة وجها آخر فلم يكن من الممكن فى هذه الظروف أن يعلن «ابن سعود» نفسه حاكما أعلى للعرب لأن الوطنية العربية لم تكن قد تم نضوجها. ولما أن اتقدت نيران الحرب الكبرى وضع الأتراك ثقتهم فى شخص «ابن سعود» إلا أن «ابن سعود» نظر باحدى عينيه إلى منافسه فى الغرب: الشريف حسين، ونظر بعينه الأخرى إلى منافسه فى الجنوب: ابن رشيد.

ولكن لم ينظر إلى أحدهما بعين التقدير والاكثرات لأنه يؤمن بالله ويعتمد على قوته واستعداده

الفصل العاشر

الوهابيين فى الحرب العظمى

وبعد فتح الهزا أصبحت «لابن سعود» أهمية دولية فزادت مطامحه وأراد أن يوسع رقعة بلاده حتى يصل الى المحيط الهندى وشواطىء البحر الأحمر . وأن يحكم الكويت ويغزو شمّر ويستولى على حائل وما جاورها .

فانحصرت مجهوداته فى الحروب ولكنه اهتدى الى نصيحة والده له وأيقن أنه يحمل رسالة من قبل الله لأن الشعب العربى هو شعب الله المختار ، أوجده الله ليحكم العالم وينشر فيه دين الاسلام ولكنه أحس بالضغائن والاحقاد تأكل قلوب منافسيه ومع هذا رأى أنه لابد من جمع شتات الشعوب العربية تحت لواء الاسلام وقيادة تلك الشعوب الى أوج العزة والسيادة .

وللوصول الى هذا الغرض تحبب الى الوهابيين وأخلص لمذهبهم لأنه يعلم مبلغ تأثيرهم الدينى على الشعب فحطم الحاكى الذى كان قد اشتراه ليتسلى به وحرم الموسيقى ، وهى مكروهة عندهم .

وأخذ يفكر فى هدوء ورزانة فلم يبادر بالحروب وشن الغارات مع علمه بأن خصومه ضعفاء ولكنه جعل يبحث عن الجيش الصارم الذى يستخدمه فى تنفيذ برنامجه الحافل بجلائل الأعمال ، فاستمر فى سياسة الاصلاح التى سلف بيانها غاضا النظر عن حسين وغيره من الخصوم وقد وفد اليه رسل من سوريا يطلبون معونته . لأن الحكومة التركية أرادت أن تقضى على قوميتهم

ففرضت عليهم قوانينها ولغتها و أخذت تجندهم فى جيشها وتجمع منهم ضرائب جديدة .

فثار عرب الشام ورفضوا أن يصطبغوا بصبغة الأتراك وكونوا الجمعيات الثورية فى دمشق وغيرها ولم يكن «ابن سعود» أقل منهم فى الاعتزاز بالقومية العربية ولكنه وجد أن السوريين يجرون وراء الخيال ولا يقومون بأعمال إيجابية ملموسة فانصرف هو الى العمل المنتج لأن العرب الذين لم تتغير طبيعتهم يخضعون له مخافة بأسه ولا يبعد أن ينقلبوا ضده إذا تراخى أو ضعف فعمل على تغيير طبيعتهم البدوية كما أسلفنا بأن كون حركة الاخوان . جاعلا الدين أساس إصلاحاته فمال إلى رجال الدين وعلماء الوهابيين وتزوج من أسرة ابن عبد الوهاب بسيدة أنجبت ولده فيصلا ، وجد فى نشر التعليم وتعميم الاصلاح .

وفى تلك الأثناء كانت المنافسة التجارية والاستعمارية بين ألمانيا وبريطانيا بالغة أشدها وكانت كل دولة تحشد قواتها استعدادا لمحاربة الأخرى . لأن ألمانيا الفتاة تريد لنفسها السيادة وهى بلد مزدحم بسكانه ويريد أن يجد بلادا يصرف فيها تجارته و بريطانيا واقفة فى طريق ألمانيا شرقا وغربا وتطلعت ألمانيا لأبواب الشرق التى تسيطر عليها بريطانيا كقناة السويس والخليج الفارسى . ومع أن تركيا صاحبة النفوذ فى بلاد العرب إلا أن الانجليز مافتئوا يدسون ويتآمرون ضد الأتراك فى كل آونة ليحطموا امبراطورية الاسلام التى كانت تخيفهم وتزعجهم .

وأخيرا أعلنت الحرب الكبرى ودخلت فيها تركيا سنة ١٩١٤ فانتعش الأمل فى قلوب زعماء العرب الأقوياء الذين عملوا على تحرير بلادهم من الدولة العثمانية ولكنهم فشلوا فى الوصول إلى الحرية المنشودة وأخذت بريطانيا

تبحث فى جزيرة العرب عن حلفاء أقوياء تستعين بهم ضد تركيا وقدوجدت هؤلاء فى كل مكان إلا فى منطقتين : فى اليمن التى يحكمها الامام يحيى وقد ظل مواليا لتركيا بموجب الاتفاق الذى أبرمه معها ومدته عشر سنوات ، وفى حائل حيث ظل الرشيديون مخلصين للأتراك الذين ساعدوهم فى مناسبات عدة.

ولكن الشيخ مبارك حالف الانكليز بموجب الاتفاق الذى يقضى باستقلال إمارته عن تركيا وجعلها تحت حماية بريطانيا وفى ابريل سنة ١٩١٥ أبرمت معاهدة بين بريطانيا وبين الادريسى فى عسير وهو الذى تجلت كراهيته للأتراك قبل الحرب . وفى يوليو سنة ١٩١٥ بدأ الانكليز يتراسلون سرا مع حسين شريف مكة وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٥ اتفقوا مع «ابن سعود» على المعاهدة التى صودق عليها فى ١٨ يوليو سنة ١٩١٦ .

وبذا استطاع الانجليز أن يخلقوا الفتن بين تركيا و بين رعاياها فى جزيرة العرب وأن يجعلوا جزيرة العرب مفككة و يستعينوا بكل فريق منها على حدة ولا يحالفونها بجبهة متحدة وساعدهم على ذلك ضعف الوطنية عند العرب وأن الشريف حسين الذى وكله عنهم الأتراك فى بلاد العرب انضم إلى خصومهم زعما منه أن هذا الانضمام يمكنه من الاستقلال ببلاد العرب ولا يبعد أن الانجليز خادعوه ووعدوه وعودا كاذبة كما فعلوا مع رشدى باشا فى مصر حتى حاربت مصر فى جانبهم ، وبعد الحرب لم يتقيدوا بعهود أو مواثيق لأن من شأنهم عدم الوفاء.

وفى هذه الظروف كان موقف «ابن سعود» غاية فى الدقة ، فوجد نفسه فى عزلة تامة ، ودعا مشايخ العرب طرا للاجتماع والتشاور فى الأمر والاتفاق على خطة واحدة ولكنهم لم يلبوا دعوته ، لأنهم انصرفوا للمنازعات الشخصية وأرسل حسين ولده عبد الله للاتفاق مع الانكليز الذين تؤكد أنهم خدعوه ومنوه بأن يجعلوه ملكا لبلاد العرب وخليفة لسائر المسلمين .

وفى خريف سنة ١٩١٤ دخل الانكليز البصرة وتقدمت جيوشهم فيما بين النهرين إلى بغداد ، وأرسلوا من قبلهم الكابتن شكسبير إلى «ابن سعود» وكانت قبائل المنتفق وشمر تحارب الانكليز فى تقدمهم نحو بغداد فحاولوا أن يستعينوا « بابن سعود » على هاتين القبيلتين . وأن يكتسبوا صداقته مخافة انضمامه إلى الأتراك .

ولكن «ابن سعود» لم يكن ليخدع بسهولة ولم يكن ليكتفى بالوعود الخلابة فاشترط أن توقع معه معاهدة جلية ، وبينما كان يتفاوض مع شكسبير بشأن هذه المعاهدة بلغته رواية تقول بأن الرشيد يزحف على نجد لأن الأتراك أرادوا منع «ابن سعود» من إبرام معاهدة مع الانكليز .

وإزاء هذا الخطر أرجأ إبرام المعاهدة حتى ينقذ بلاده من هجوم الرشيد فجمع قواته فى الحال وتحرك إلى الشمال بثلاثة آلاف جندى ، ووجد العدو فى جاراب ، وهنالك حمى الوطيس . وكانت معركة حامية قتل فيها شكسبير وخسر «ابن سعود» خسائر جمة ، إذ خانته قبيلة عجمان ، وأشيع بين العرب أنه انهزم فعملت القبائل المختلفة على الخروج عن طاعته خصوصا وأنه حارب طبيعتهم الجامحة ، وأخذهم بالشدة ، ومنعهم من السلب والنهب .

فلما رأى «ابن سعود» الخطر محدقا به من كل جانب ، وأن عدوى الحرب قد انتقلت إلى القبائل العربية التى يحفزها ضده الأتراك ويمدونها بالمال والذخائر صمد للشدائد ولم يتقهقر مع أن المتقاتلين معه فروا من الميدان ، إلا أنه ظل يتفاءل ويضاعف من جهوده فجمع بعض الرجال من القرى والاخوان ولما لم يجد معونة من زعماء العرب نظر إلى الانكليز مع الأسف وكانوا منتصرين فى بلاد العراق فعاونوه كما عاونه حليفهم مبارك لما أن هجمت عجمان على الكويت وأنقذه «ابن سعود» من خطرها .

وعندما تتفاقم الخطوب تظهر العبقرية وينطلق النبوغ من مكامنه ، وقد كثر أعداء «ابن سعود» فأخذ يهادنهم تارة ويخادعهم تارة أخرى ، ولم يعتمد على مساعدة مبارك ، بل اعتمد على جيشه القليل العدد . وتحرك لملاقاة عجمان رغم اشتداد الحر ، لكى يقضى على الثورة قبل طغيانها وباغت عجمان ليلا على مقربة من مكان يقال له «كنزان» وفى هذه الموقعة قتل أخوه سعد وجرح «ابن سعود» شخصيا وفر رجاله عند ذلك وفر معهم هو الآخر .

وتلك هزيمة بلا شك ، فأصبح ملكه مهددا بالزوال ، إذ تشجع البدو على الخروج عن طاعته فى كل جهة ، وتقدم الرشيد إلى بريدة فاستغاث «ابن سعود» بوالده فى الرياض وبمبارك فى الكويت كما استغاث بالانكليز .

وجاءته النجاة من الاندحار صدفة ، فان أهالى بريدة استطاعوا أن يصدوا الرشيد ، وكذلك استدعى حسين ولده عبد الله إلى مكة لأنه كان مشغولا بتدبير الثورة ضد الأتراك ، كما أن عبد الرحمن جمع قوة من القرى المجاورة للرياض وأرسلها تحت قيادة ولده الأصغر محمد إلى «ابن سعود» وأرسلت إليه انجلترا المال والأسلحة ، أما مبارك فقد تردد قليلا ثم أرسل إليه قوة تحت قيادة ولده سالم .

وكان «ابن سعود» فى أخطر الظروف وأقساها ، ولكنه لم ينم ولم تفتر عزائمه مع أن قتل أخيه أحدث فى قلبه جرحا لايندمل ، ولكن هذا الجرح استفزه للقتال والانتقام ، والشخصيات الجبارة فى العادة تتجلى فى المواقف الحرجة ، فبمجرد أن وصله المدد أخذ يعد العدة .

وكانت عجمان قد أملها الجلوس عند حوفف وسط الشمس المحرقة ومال الجنود إلى السلب والتخريب فلم يستطع قائدهم حثلين أن يجمع شملهم .

أما «ابن سعود» فانه ترك محمدا وسالما على رأس فرق السوارى وتقدم

إلى عجمان و باغتها فجرا فامتشق الطرفان الحسام و أطلق الرصاص فأصيب « ابن سعود »
ووقع فى الميدان فحمله حراسه وأبعدوه عن ساحة الوغى ، ولكنه أرسل محمدا
وسالما فى الحال للقيام مقامه فحاصروا عجمان ، ولكن حدث أن سالما خرج
على محمد وانضم إلى عجمان .

فاشتد الخطر من جديد و بلغ أقصاه فى هذه المدة لأن « ابن سعود »
لا يستطيع الجهاد وهو جريح وقد اضطرب رجاله وارتعدت فرائصهم .
وأشيع أن فرقا جاءت من الكويت لمساعدة عجمان . وأشيع أيضا أن « ابن سعود »
قد قتل ففكر جنوده فى الفرار حتى أصدقاؤه منهم الذين ظلوا مستميتين معه
فى ساعات الخطر .

فرأى « ابن سعود » أنه لابد من عمل سريع جدا وأنه لابد من مغالبة
الجرح الذى أحدثته فى جسده رصاصة العدو ليظهر للناس رجولته على الأقل .
وسأسرد عليك نبأ غريبا وغاية فى الدهشة وربما يضحكك لأنه شاذ لا يتصوره
العقل ولكن يدل على أن العبقرية تسبح فى فلك غريب جدا لا كتلك
الأفلاك التى يسبح فيها سائر الناس . وخلاصة هذا النبأ أن « ابن سعود »
وسط تلك الشدة طلب إلى شيخ من قرية مجاورة أن يحضر له فتاة عذراء
فى الحال تكون ملائمة له ليتزوج بها وجىء بالفتاة فعلا واحتشدت الجماهير
المقاتلة تحضر زفافها فى خيمته المقامة فى ميدان القتال وبهذه الحيلة المضحكة
أنقذ الموقف ، إذ أحيا السرور والمرح فى نفوس رجاله اليائسين وأتى لهم بمنظر
شاذ أنساهم متاعب الهزيمة وخرج بهم عن دائرة الرعب والفزع .

وعند ذلك فكر فى مكافحة عجمان دون تباطؤ ، وظل محمد يحاصرهم ليؤدبهم
و يؤدب معهم سالما ذلك الخائن العنيد ، ولكن « ابن سعود » كان بعيد
النظر فرأى أن يمهل سالما كيلا يثير مباركا ضده فى هذه اللحظة وهو لا يريد

أن يكثر من أعدائه بل اكتفى بأن أرسل إلى مبارك يقول : ولأنى أحترمك وحدك يا أبى امتنعت عن مهاجمة سالم وعن معاقبته . فكانت إجابة مبارك فاترة سخيفة، ومما جاء فيها : إننى أرسلت سالما ليرقبك لاليقاتل معك . . . وإذا هجم « ابن سعود » على عجمان فاننا ننضم إلى عجمان، ولكن إذا هجمت عجمان على « ابن سعود » فاننا لانساعدها ولا ننضم إليها .

وهنا أيقن « ابن سعود » من سر الخيانة فجمع مجلسا لمشاورته فى الأمر ونصحه المجلس بالقتال حتى لو أدى الأمر لمحاربة الكويت ووافق «ابن سعود» على هذا الرأى وأمر بالهجوم، وعندئذ أخبر بأن سالما ترك عجمان وعاد بعذقه إلى الكويت لأن مباركا قد مات فجأة فقال « ابن سعود » إنا لله وإنا إليه راجعون ، وتحرك للقتال .

وجرت حرب وحشية عنيفة خلال سنة ١٩١٦ وكان ينتصر «ابن سعود» أحيانا وينتصر الفريق الآخر أحيانا وعموما خربت الآبار واحتاج الطرفان الى الماء ولكن لا يستطيع أحدهما أن يترك الميدان ويفتش عنها مخافة أن يلحق به الفريق الآخر فيقضى عليه . وكان السعوديون أسرع من خصومهم وفى كلا الجانبين نهضت المرأة البدوية تضمد جروح المصابين ولكن أخذت تثأر للرجل، ودليل ذلك أن امرأة من عجمان طلب منها أحد الجرحى الوهابيين أن تسعفه بالماء فأجهزت عليه . وحدث أيضا أن أحد الجرحى من عجمان كان يموت عطشا وهو يسيح مضرجا بدمائه الى جانب بئر فمرت به امرأة وهابية ولما استغاث بها أوهمته بأنها تحاول انقاذه ثم قبضت على بندقيته وذخيرته وألقت به فى البئر وعادت الى قريتها زعما منها أن جبينها كلل بالغار .

وانتصر «ابن سعود» بعد جهاد طويل وأحرق قرى عجمان وقتل رجالها بلا شفقة ولا هوادة . وفر زعيمهم ومعه بعض رجاله الى الكويت فطلب «ابن سعود» تسليمهم .

وكان على رأس الكويت فى ذلك الوقت جابر ولد مبارك ، ولكنه كان ضعيفا وكانت السلطة الفعلية فى يد سالم ، فرفض سالم تسليمهم ولم يكن «ابن سعود» فى ذلك الوقت على استعداد لمهاجمة الكويت . ولو فعل ذلك لأغضب الانجليز لأن مهاجمتهم تعتبر خروجا على المعاهدة التى أبرمها مبارك مع بريطانيا . وقد صمم «ابن سعود» على تحين الفرصة للانتقام من سالم ومن عجمان. ثم عاد الى الرياض ليقضى على الفتن ، وليقضى على ثوران القبائل التى شجعها فرصة ضعفه فيما مضى، وليعيد الأمن كما كان . ولكن لما أن عاد منتصرا اختفى الذين تألبوا عليه ، وأخذ يطوف فى نجد ليصلح ما أفسدوه ويوطد سلطته ، فعادت له القوة وتقشعت سحب الظلام

على أن المعاهدة التى أشرنا اليها فى هذا الفصل معاهدة ديسمبر سنة ١٩١٥ هى التى حددت موقفه بالضبط ، وتتلخص موادها فيما يأتى : —

أولا : تعتبر نجد والهزا وقاطف وجبيل وما يتبعها من مرافىء فى الخليج الفارسى حقا «لابن سعود» ولمن يخلفه، ويعتبر الحاكم الوهابى صاحب السلطان المطلق فى هذه البلاد وأن له الحق فى تعيين خلفائه عليها

ثانيا : تلتزم الحكومة البريطانية بالوقوف الى جانب «ابن سعود» إذا ما اعتدت عليه أية دولة أجنبية

ثالثا : تعهد «ابن سعود» بألا يرتبط بعلاقات مع أية دولة أخرى .

رابعا : تعهد بألا يسلم جهة من تلك الجهات أو يمنح امتيازا فيها لأية دولة أجنبية الا بموافقة الحكومة البريطانية ، وأن يأخذ بنصائح هذه الأخيرة طالما كانت نصائحها غير ضارة بمصالحه .

خامسا : تعهد بحماية سائر الطرق الموصلة من أراضيه الى الأراضى المقدسة وبحماية الحجاج الذين يسيرون فيها .

سادسا : تعهد بان يمنع أى عدوان يوجه للكويت أو البحرين أو مشايخ قاطار وشاطىء عمان، وهؤلاء جميعا قد ارتبطوا باتفاقات مع بريطانيا .

سابعا : اتفق الطرفان على إبرام معاهدة أخرى مفسرة لهذه المعاهدة التى أبرمت والحرب قائمة على قدم وساق .

وكان هذا الاتفاق مرآة الحوادث فى زمن الحرب العظمى، وقلما ثار بعده الوهابيون ضد تركيا لسببين :-

اولا : لأن الانكليز رأوا أن نجاحهم فى بلاد مابين النهرين موقوف على إبعاد «ابن سعود» عن الأتراك

ثانيا :- وهو السبب الأهم - أن بريطانيا اختارت ضمن حلفائها من العرب الشريف حسين وهو عدو «ابن سعود» ومنافسه، وكانت تدفع «لابن سعود» شهريا خمسة آلاف جنيه، واستمر يدفع هذا المبلغ إلى نهاية مارس سنة ١٩٢٤ ولكن حسينا كان يتقاضى من بريطانيا فى الشهر عشرين ألف جنيه ، وربما كان الوهابيون أصدق وأخلص من الشرفاء .

ومما لاشك فيه أن ماحدث فى جاراب و بعدها سبب ارتباكات كثيرة «لابن سعود»

بقيت مسألة البحر الأحمر : وهو الطريق الرئيسى لبريطانيا فى بلاد الشرق وقد أصبح موضع إشكال خطير بعد الفشل فى الدردنيل ، ولو بقى الشاطىء الشرقى تحت سيطرة الأتراك وحلفائهم لاستغلته ألمانيا فى تحطيم سفن خصومها .

على أن الحلفاء استفادوا بثورة الحجاز فى كل المناسبات خصوصا لما أعلن الشريف حسين نفسه حاكما أعلى للعرب واشتدت كراهية «ابن سعود» له .

أما «ابن سعود» فانه بعد موقعة جاراب زاد نشاطه وأخذ يفكر فى خطط

واسعة خصوصا بعد أن نجا من الظروف العصيبة التى أحاطت به فى وقت من الأوقات. ولا يفوتنا نحن الشرقيون أن نذكر أصبع السياسة البريطانية الذى لعب فى التفرقة بين المسلمين وأن البريطانيين دائما يتبعون سياسة واحدة فيضعفون فريقا ويعينون فريقا ، ويحلون حاكما محل حاكم . ولا ندرى متى تنكشف سياستهم فى بلاد العرب !

ذلك الأمر متروك للزمن ولحكمة الملك اليقظ عبد العزيز «ابن سعود» .

الفصل الحادي عشر

حسين صنيعة الانكليز

جاهد «ابن سعود» فى منطقة الهزا جهاد حياة أو موت، إلى أن تم له النصر بعد طول عناء فى نهاية سنة ١٩١٧ وفى خلال حروب الهزا كانت رحى الحرب العالمية دائرة، وقد اكتسح الانكليز صفوف الأتراك فى أعالى نهر التيجر وانتصروا عليهم على مقربة من بغداد، وجاء جيش انكليزى أكثر استعداداً من وراء البحار فأخذ بغداد وزحف إلى الموصل، ثم أرسل من مصر جيش ثالث تحت قيادة الجنرال «اللنبي» وقد غزا الترك فى شبه جزيرة سيناء وطاردهم فى فلسطين إلى أن استولى على دمشق.

وفى تلك الأثناء أعلن حسين ولاءه للانكليز وأنه فى حرب مع تركيا التى أنابته عنها فى حكم الحجاز فتصور نفسية الشريف الضعيفة الخائرة، وغدره بمن لهم الفضل عليه!! أما «ابن سعود» فانه لما توالت عليه الهزائم رأى الانكليز أنه لم يصبح ذا قيمة حربية تنفعهم فعولوا على منافسه حسين لأن الانكليز قوم لئام لا يعرفونك إلا فى أوقات الرخاء ليستغلوا قواك فى صالحهم الخاص، فاذا ما ضعفت وتملكتك الشدائد نبذوك فى العراء، وخطأ يقال: ان الانكليز خصوم شرفاء!!

نظر الانكليز النفعيون إلى حسين باعتباره حارس المدن المقدسة كى يستخدموه ضد سادته الأتراك وضد ولى نعمته خليفة المسلمين؛ لأن خليفة المسلمين كان

حليفا للالمان، ولألمانيا غواصات تجرى تحت الماء فى البحر الأحمر، فاذا ما وصل الترك والألمان إلى الحجاز قطعوا طريق انكلترا فى الشرق .

وعزم الانكليز على شراء حسين بأى ثمن مهما كلفهم واستغلوا جهله فاطنبوا له فى الوعود ، وأعطوا له عشرين ألف جنيه فى الشهر وأمدوه بالأسلحة والمهمات والذخائر وقالوا له انه بعد انتصارهم فى الحرب سيكونون اتحادا عربيا يضم شتات الشعوب الاسلامية وينصبونه على رأس هذا الاتحاد وذلك لمخادعة العرب حتى يحاربوا معهم ضد الاتراك . وعد الانكليز هذا الوعد وهم يعلمون أنه خرافة لأنهم يريدون الانتصار فى الحرب ، ولأن ساستهم يعتبرون أن الوعود الكاذبة ليست أقل منفعة لهم من الذخائر والأسلحة..!!

واطمأن الحسين إليهم فتشكك الأتراك من ناحيته وكانوا قد قبضوا على بعض زعماء العصابات الثورية التى استخدمها حسين فى سوريا وأعدموا زعماءها ، فاحتج حسين واضطرت تركيا لأن تحشد قواتها فى المدينة .

وعندئذ انطلق ينادى بالثورة مدعياً أن الغرض من الثورة تحرير العرب من نفوذ الاتراك واستخدم فى الثورة أبناءه الثلاثة ، على وعبدالله وفيصل ، وهؤلاء عاونهم البدو حتى قبضوا على مكة ، ولكن الأتراك دمروا الثورة فاستغاث حسين بالانكليز ، وأرسل الانكليز مراكبهم الحربية فرست فى مياه جدة وينبع وحملت معها الأسلحة والذخائر والمدافع والذهب وبعض الفرق من الانكليز وعلى رأسها الكابتن لورانس الذى سيرد اسمه كثيرا فى هذا الكتاب .

وبذلك تشجع العرب الذين يحبون المال حباً جماً ، وقادهم لورانس وفرقه بعد أن رشاهم حسين بذهب الانكليز فوصلوا إلى الشاطىء ووقفوا فى وجه الأتراك وقطعوا السكة الحديدية بين دمشق والمدينة ، و بذلك جعلوا الأتراك فى عزلة تامة ، واستولى لورانس وفيصل على العقبة ولحق بهما جيش اللنبى فجعلوها

قاعدتهم الحربية ، وظل الأتراك محرومين من القوت والماء والأسلحة والذخائر مما يفتت الكبد فانتشر فيهم الوباء ومات منهم الألوف واختل نظامهم . لأن الانكليز خونة فى الحرب غدارون ، يستعملون كل وسيلة شريفة وغير شريفة للانتصار ، وليس أدل على ضعفهم من التجائهم دائماً لسلاح الرشوة على أن النصر الذى يشترى بالمال لا بد أن يزول يوماً كما يزول المال فيظهر الحق ويندحر الباطل يوم تسود الكرامة ويعلو الشرف .

اشترى الانكليز النصر فى هذا الميدان بالدراهم والدنانير ، ولكن فى ميادين الحرب الأخرى ، وفى الميدان الغربى بصفة خاصة انتصر الألمان ، فاحتاج الانكليز لمحالفة كل فرد أياً كان نوعه ومذهبه ، فلما نجا « ابن سعود » من الهاوية وارتفع نجمه من جديد مدوا إليه يدهم الخبيثة ، لأنهم رأوه مفيداً لهم بعد أن غضوا الطرف عنه وهو محتاج لمن ينقذه ، فأرسلوا له بعثة مؤلفة من «جون فلبي» الذى يدعى الاسلام ويسمى نفسه «عبد الله فلبي» و «اللورد بلهافن» يطلبون محالفته .

فقابل «ابن سعود» البعثة بكل احترام وآواها فى قصر الرياض حتى غضب العلماء وسادة العرب الذين يستنكرون الاتصال بأعداء الدين وأعداء الوطن وقد أنصت « ابن سعود » لأقوال فلبي وبلهافن دون أن يعدهما بشىء إلا أنه استصوب سياسة التحالف مع بريطانيا مع احتفاظه بكرامته بحيث لا يكون مطية لغيره .

وربما استوجب البعض مؤاخذة «ابن سعود» على هذا الخطأ الذى وقع فيه الحسين بدرجة مزرية إلا أن الظروف كانت تحتم على «ابن سعود» أن يسلك هذا المسلك لأن عداءه للاتراك قديم ، وذلك منذ أن ساعدوا ضده خصمه الرشيد ولأن خصوم « ابن سعود » فى ذلك الوقت كانوا كثيرين خصوصاً

وأن انكلترا أغرت العرب بالمال ، فاذا وقف فى طريقها قضت على مابقى من حيويته ولأنه خشى أن يعود الأتراك إلى مابين النهرين إذا ماانتصرت دول الوسط فيهددوه فى الهزا ويعارضون مطامحه الواسعة كما فعلوا سالفا ، وإذا كان «ابن سعود» قد قبل محالفة بريطانيا فانه فعل ذلك فى حدود اللباقة والاحتياط لينتفع فى مشاريعه ولم تخدعه الوعود ولم يبع ضميره كما فعل حسين الذى انقلب على سادته ، لوهم باطل وخيال كاذب .

ودفع الانكليز «لابن سعود» خمسة آلاف جنيه فى الشهر وأخذ يبيع لهم الجمال والخيول بثمن غال ، وقد أمن جانب الرشيد وجانب الترك ، وأظهر امتعاضه لأن الانكليز يساعدون حسينا قائلا للبعثة الانكليزية «أنتم تخطئون فى مساعدة حسين ، وإذا امتنعتم عن إعطائه الأموال فسترون كيف أنتصر عليه ، وكيف أجمع العرب كلهم حولى »

على أن بلهافن عضو البعثة حرضه على مهاجمة الرشيد فى حائل لأن الرشيد كان فى صف الأتراك ، فقال له « ابن سعود » تذكر أن صداقتى للانكليز تساعدنى فى سحق الرشيد وإنى مستعد لمهاجمته ، بشرط أن تعطونى من المال قدر ماتعطون الحسين ، وأن تعدونى بأن حليفيكم : سالما وحسينا لا يهاجمانى من الخلف إذا ماتقدمت .

على أن «ابن سعود» احتاج للراحة والوقت ليفكر فى هدوء لأنه قضى عشرين سنة فى حروب متواصلة وقد علمته ثورة عجمان كيف يثبت طويلا . خصوصا وأنه يحكم بمفرده ويتنقل باستمرار فى أرجاء البلاد فليست له حكومة منظمة وإنما يخضع الشعب بقوته وهيبته وكلما اتسع فى الفتوحات صعبت عليه الادارة الفردية فصمم على انتهاز فترة الراحة ليضع نظاما يكفل الأمن فى البــــلاد .

فعين فى كل مدينة حاكما من قبله ووضع على رأس كل قبيلة شيخا ينوب عنه لحفظ النظام وجمع الضرائب وتنفيذ أوامره. وكان فى العادة يختار أعوانه من الأسرات المحلية ويجعلهم حكاما يتوارثون المناصب عن بعضهم.

وكان يدقق فى اختيارهم ويدرسهم بنفسه ويمحصهم بكل عناية ويعرف كيف يعامل كل فرد منهم وهو رجل خبير باسرار الرجال يعرف طباع الناس وميولهم بذكائه وفطنته.

وهو رجل داهية يستعمل السلاح الديموقراطى فى الوصول إلى غرضه فاذا نزل فى بلد زار الحاكم والأعيان وجلس معهم بكل تواضع يشرب القهوة ويسامرهم ويجاذبهم أطراف الحديث وفى هذه الجلسات يقف على أحوالهم ويفهم نواياهم وطباعهم ويكشف أسرار الحاكم الذى أنابه.

وحدث مرة أن «فلبى» سعى إليه بالوشاية فى حق عثمان حاكم زلفى قائلا انه يساعد الأتراك فلم يتطير «ابن سعود» بل عمل بقوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين» فترقب «ابن سعود» ذلك الحاكم بنفسه، ولما اتضح له صحة رواية «فلبى» كتب الى الحاكم يأمره باخلاء البلدة فلم يجادل عثمان بل فر مع أسرته بمجرد تناوله رسالة سيده.

ورأى «ابن مسعود» أن يجمع حكامه كلهم تحت رئاسته فى نظام واحد فجعل كل نفر منهم مسئولا عن نفسه وعن جيرانه بحيث إذا ارتكبت جريمة فى جهة من الجهات وجب على حاكم الجهة أن يبلغ الأمر إليه وإذا ماقصر وجب على من جاوره من الحكام أن يرفع أمره إلى السيد الأعلى. فاذا قصروا جميعا أخذهم بالشدة وعاقبهم بقسوة.

ذلك لأن الحكام كانوا متنافسين فعرف «ابن سعود» كيف يستغل هذا

التنافس لتسهيل إرادته وهو يفهم جيدا دخائل رعيته وأنسابهم وصلاتهم ومنازعاتهم فيستخدم كل ذلك لمنفعته .

وفى جميع القرى والبلاد كان الوعاظ والعلماء والتلاميذ رقباء يرفعون تقاريرهم عن كل حادثة إلى حكومة الرياض .

وبذلك استطاع أن يحكم هذه البلاد المبعثرة المترامية .

الفصل الثاني عشر

« ابن سعود » فى زمن السلام

فى سنة ١٩١٧ بلغ « ابن سعود » السابعة والثلاثين من عمره وعاد اليه نفوذه وقويت هيبته ، هيبته الفطرية المطبوعة التى تملى على الناس وتفرض عليهم طاعته فهو كالصقر ، بل كالنسر يحلق فى العلا ويجرى الى المجد بخطى سريعة فلا يعرف الراحة ولا يعرف ترف الملوك فينام على فراش متواضع ويرتدى ثيابا غاية فى البساطة فلا يلبس الحرير كغيره وهو أيضا لا يدخن التبغ لأن حاسة الشم عنده قوية ولا يحب إثارتها واغضابها حتى لقد يستعمل العطور ضد الروائح الكريهة وروى أن أحد الباشوات زاره يوما من الأيام فى قصره وكانت رائحة فم الباشا تدل على أنه أكل بصلا ثم أخذ الباشا يشعل لفافته فى حجرة الملك حتى تضايق منه ، و بمجرد خروج الزائر من حضرته أمر الخدم بتنظيف الحجرة وتطهيرها بالعطر .

كذلك يتبع البساطة فى طعامه وشرابه ففى الصباح يكتفى بقطع يسيرة من الكعك يأخذها مع اللبن ، وفى المساء يتناول طبقا من الأرز واللحم وقليلا من التمر . إلا أنه يكثر من شرب القهوة والشاى .

ثم هو دائما فى عمل متواصل وأقصى أوقات نومه أربع ساعات وذلك لأنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يستغل أكبر حيز ممكن من وقته فى العمل . لأنه يحمل فى عقله مشاغل جمة ، ويفكر فى مشروعات خطيرة لا يتسع لها وقته فيضحى براحته ويحرق دمه لخدمة بلاده ورفعتها .

وتراه يكدح بسرعة بالغة ويركز مجهوداته وتلك خير طريقة . ثم له ذاكرة حادة جدا تساعده فى مهماته حتى أنه يملى أحيانا بسرعة على اثنين من سكرتيريه فى موضوعين مختلفين ، فيخاطب أحدهما تارة فى موضوعه ، وينتقل فيملى الآخر فى موضوع يغاير موضوع الأول وفى الفترة القصيرة التى بين الاملاء والكتابة يحادث وزيرا من وزرائه فى شئون الدولة وهو مستجمع لكل قواه وإذا قطعت عليه الحديث التفت اليك حتى ينتهى من أمرك ثم يعود فيملى مرتجلا وهو يعرف أين وصل فى املائه ، لأن عقله مشتعل دائما فلا تقف له حركة حتى وهو قائم يصلى يفكر فى المشاكل ويرتب الخطط .

عاش هذا الرجل النادر فى الرياض فى شىء من أبهة المنصب فأعاد بناء بعض أجنحة القصر ووسعها حتى كاد يشمل ثلث مساحة الرياض وأقام فى خارجه سورا عظيما جعل فى كل ركن من أركانه قلعة عالية ، وفى القصر حجرة للزائرين تسع ثلاثة آلاف نسمة ، أرضها مغطاة بالسجاد وسقفها محمول على عمد ناصعة .

وفى القصر عدد وافر من الخدم والحراس . وبعضهم من الأرقاء على أنهم يختارونهم ممن توافرت فيهم ميزات خاصة ، وكلهم يلبسون ثيابا بيضاء وأحيانا يرتدون فوق ملابسهم البيضاء «عباءات» محلاة بأسلاك الذهب وكل جندى من الحرس يحمل مسدسا وسيفا له مقبض فضى .

ويحتشد فى فناء القصر جمع حافل ممن يطلبون الاحسان من وراء «المطبخ» لأن «ابن سعود» يطعم يوميا ألف فقير يقدم لهم الأرز واللحم والخبز واللبن

وفى أسفل القصر خزينة الملابس التى يعطيها للمعوزين ، والهدايا التى يمنحها للزائرين ؛ لأنه كريم إلى حد الاسراف وقد عارضه فى كرمه هذا أحد وزرائه ذات مرة فكان جوابه « لم يكن لآبائى وليس لى جيوب نضع فيها

النقود ، وماذا ينفع كنز المال ؟ هل استفاد السلطان عبد الحميد بالملايين التى جمعها ؟ » ومما قاله لآخر « نحن نجنى أينما نغرس فاذا أحسنا الغرس فى وقت السلم والرخاء جنينا الثمار فى زمن الحرب والقحط . . . فى السلم أهب كل شىء وأعطى عباءتى لأى فرد يكون فى حاجة اليها ، وفى الحرب أسأل أمتى فتعطينى كل ماتملك »

« وابن سعود » ممن يعتزون بأسرتهم فى غير علو أو تكبر ويعرف جيدا واجباته نحو ذوى قرابته ،وقد تزوج أرملة أخيه سعد ليعولها ويرعى صغارها وتعود أن يزور سائر أقربائه يوميا ، وكثيرا ما كان يجلس مع والده عبدالرحمن يسأله النصح والارشاد .

وإذا انتهى من عمله اليومى مبكرا يمتطى أحيانا صهوة جواده ويجرى به بين الحدائق ومروج النخيل خارج أسوار الرياض محوطا بأبنائه وعبيده . وكثيرا ما يبتعد عن العاصمة وعن جو التصوف وينزل إلى مستوى الصبية فيمزح مع أبنائه الصغار ويداعبهم ويلاطفهم ، وكذلك يداعب جنوده فيوهمهم بأن الحرب قائمة ويأمرهم بالاستعداد فورا ؛ فيصطفون ويصوبون بنادقهم فى نقط معينة ويحاورهم هو بنفسه ، فاذا هزموه امتعض وتضايق وإذا انتصر فرح فرحا شديدا . وذلك نوع لذيذ من الممارسة الحربية .

ولأنه يحمل أعباء ثقيلة يحيى دائما حياة شاقة ، فتراه يضحك أحيانا ويقهقه ،وقد يحب كما نحب ويحدثك بأقاصيص الحب ،وأحيانا أخرى يكتئب فيبدو فظا ، غاية فى الخطورة . وإذا غضب تغيرت صورة وجهه ولكن غضبه مؤقت لا يلبث أن يزول وإذا أخطأ اعترف بالخطأ وإذا ظلم عوض المظلوم ما لحقه من ظلم .

وقد حدث فى مرة من المرات أن أغضبه أحد رجاله فغضب وأمر ذلك

الرجل بأن يسير على الرمال حافى القدمين وهى تحترق فى قيلولة النهار وأن يخترق صحراء دهناء إلى حوفف وكان المذنب ضخم الجسم سمينا ثقيل المشية وقبيل الغروب أرسل «ابن سعود» الجمال من ورائه تبحث عن المسكين فلما أتت به أجلسه إلى جانبه وتحدث معه فترة قصيرة ثم أعاده إلى بيته وكان قد أحضر له كهدية أو عوض فتاة من الجوار البيض جميلة الشكل ممشوقة القوام.

وحدث أيضا أن فاهاد ابن جلوى «أحد أقربائه وكان متلافا مقلقا للراحة» ضرب أحد رجال الحرس الملكى فاستدعاه «ابن سعود» وهو جالس فى خيمته ومعه سكرتيروه والمستر فلبي فلما مثل فاهاد بين يديه وقف «ابن سعود» وأخذ يضربه على رأسه بالعصا وأخيرا قذف به خارج الخيمة وجلس إلى جانب فلبي رابط الجأش هادىء الأعصاب.

وحدث كذلك أن أحد العلماء سعى بالفتنة بين الاخوان فاستحضره «ابن سعود» وبعد مناقشته أجاب العالم بغير اكتراث فأخرجه «ابن سعود» من الحجرة وأمر حراسه بسجنه حتى استمر فى الحبس أسبوعا

وهذا ليلقى «ابن سعود» على العلماء درسا قاسيا.

على أن بواعث غضبه عبارة عن مؤثرات خارجية ولكنه فى أوقات المحن يضاعف جهوده ويعمل بكل حزم ونشاط. ويقول الاستاذ آر مستروبج إن غضب «ابن سعود» يرجع إلى حالات نفسية ألمت به منذ أن مرض بالحمى عقب فرار أسرته من الرياض فأثرت الحمى على أمعائه ولم يعالجها، ثم إنه يأكل بغير انتظام ويأكل بسرعة جدا، ويشرب الماء بسرعة، ويتناول أعماله بعد الأكل مباشرة؛ ولأنه لاينام نوما كافيا يحدث له إجهادا باستمرار، وقلما يهتم بمأكله أو مشربه حتى إذا عطش يشرب من أول بئر يصادفه وفى شهر رمضان يتناول عند الافطار كمية كبيرة من الفاكهة فاضطرب مزاجه وتأثرت

حالته النفسية . ولكنه على أى حال متمالك لقوته دائما ثابت منشرح الصدر.

ومن أظرف ماروى عنه أن أحد البدو — واسمه الشيخ نافع بن فضلية وكان معروفا بالصفاقة — تقدم إليه يقول إنه يرزح تحت أثقال الفقر بينما ينعم «ابن سعود» بملاذ الثروة ، ولكى يخفف «ابن سعود» من أعبائه طلب منه أن يهبه فتاة من جواريه الحسان ، فقال له «ابن سعود» : اذهب إلى الحريم واختر فتاة تروقك ، ولكن استمر يحادث الشيخ وأرسل إلى النساء سرا إشارة تخطرهم بالكيفية التى يستقبلن بها الشيخ نافع .

وما كاد الشيخ نافع يصل إلى غرفتهن بناء على تصريح الملك حتى استقبله النسوة جميعا وأشبعنه ضربا وركلا وطردنه إلى صحن الدار حيث كان فى انتظاره «ابن سعود» وعدد كبير من الرجال قابلوه بالضحك والسخرية .

فتأمل فى حياة هذا الملك العبقرى المتواضع وربما حدثناك فى نهاية الكتاب عن مناحى القوة فى حياته ، وأنا واثق من أن الكلام عن هذه الشخصية — مهما طال وكثر — ممتع ومفيد .

الفصل الثالث عشر

الانكليز يحاربون العبقرية
ولا يعملون إلا لصالحهم الخاص

فى ربيع سنة ١٩١٨ قبض «ابن سعود» على أزمة نجد ولكن علاقاته مع جيرانه بدأت تسبب له ارتباكات خطيرة والانكليز لا يمكنونه من حل مشاكله فالرشيد عدوه القديم كان يتجر مع الأتراك ويعمل فى جانبهم ، ولقد تحالف مع سالم شيخ الكويت وأخذ سالم الذى يحميه الانجليز ينقل البضائع إلى بلاده وتحملها القوافل إلى الأتراك بواسطة الرشيد .

«وابن سعود» يكره سالما كما يكره الشيطان ، لأن سالما قد خانه بانضمامه إلى قبيلة عجمان ، فصمم «ابن سعود» على الاستيلاء على الكويت حينما تتاح له الفرصة .

وتوترت العلاقات بين «ابن سعود» وبين حسين حاكم الحجاز بشكل ظاهر إذ أن الانكليز لما انتصروا على الترك قويت شوكة حسين صنيعة الانجليز وداخله الغرور فأعلن نفسه «ملك الأقطار العربية» وكتب إلى «ابن سعود» يطلب منه الاعتراف بهذا اللقب و يطلب منه التنازل عن حكم قبيلة عتيبة .

فلما رأى ذلك «ابن سعود» لعن حسينا وأصر على وجوب محاربته ولكن الظروف لاتسمح بمحاربته فأرسل الوعاظ الوهابيين يحرضون عتيبة ضد حسين . ونجح الوعاظ فى أداء رسالتهم كما أن القرما التى كانت تحارب حسينا اعتنقت مذهب الوهابين وطردت ممثل الحسين، ورفضت أن تدفع له

الضرائب طالبة حماية «ابن سعود» . والقرما بلد له أهميته فهو واقع فى واحة خصبة تكتنفها أشجار النخيل وحقول القمح ، وهى أيضا منطقة يتاجر فيها بالصوف والأغنام وفوق ذلك تعتبر مفتاح الحجاز إذ تتفرع الطرق منها إلى جدة والطائف ومكة .

ولكن حسينا يأبى أن تكون القرما تحت سلطان منافسه فأرسل ثمانمائة مقاتل لاسترجاعها ، إلا أن سكانها الشجعان عاونهم جيرانهم فصدوا حملة الحسين خاسرة مغلوبة .

وإزاء ذلك طلب الوهابيون والاخوان أن يعجل «ابن سعود» بقيادتهم إلى الحرب لحماية القرما من شر الحسين قائلين لزعيمهم : حسين عدونا ، ومن العبث أن يكون مثل هذا الرجل حارس المدن المقدسة وهو رجل خائن مغتصب ومما يخجلنا أن يهاجم ذوى الايمان الصادق و يحارب الوهابين دون أن ينال عقابه فهيا ياعبد العزيز لتقود صفوفنا ضده .

وهل يكره «ابن سعود» أن يقاتل حسينا و يدمر قوته ؟ كلا فان غرائزه وآماله وكبرياءه وشعبه كل ذلك يحفزه لمحاربة حسين ولكن الانجليز يقفون حائلا ، والبعثة الانجليزية — وعلى رأسها «فلبي» الذى يدعى اليوم أنه عبد الله فلبي المسلم الطيب القلب — طلبت من «ابن سعود» أن يحترم نصوص المعاهدة مع الانجليز وهى تقضى بعدم الاعتداء على حلفاء بريطانيا ، ومنهم حسين وحرضت «ابن سعود» على محاربة الرشيد نصير الأتراك وتكلم «بلهافن» عضو البعثة عن دمشق وطلب إليه أن يحارب هنالك ولكن «ابن سعود» رجل عاقل يعرف الحد الذى تنتهى عنده قوته .

ظل «ابن سعود» طوال الصيف يفكر فى محاربة حسين ولكنه لايدرى كيف يتحرك مخافة أن يتحرش به الانجليز مدعين أن ضرب الحسين مساعدة

لتركيا، وهو يعتقد أن الانجليز سينتصرون فى الحرب، وأن الجيش التركى على وشك التسليم؛ فان الجوع والمرض وقلة الأسلحة وتفكك الجنود كلها تبشر بهزيمة الترك خصوصا وأن الانجليز قد استحضروا فرقا جديدة وعربات حربية وأساطيل جوية.

قال «ابن سعود»: فى الواقع لو لم تكن محاربة حسين اعتداءا على الانجليز وانتصارا لتركيا ما كنت لأتردد دقيقة واحدة فى مهاجمة حسين لأنى أمقته وأكره ولده عبد الله كما أكره السم.

وتوقف «ابن سعود» فساءت الأحوال وأرسل حسين قوة أخرى إلى قورما ولكنها سحقت كسالفتها، وطلب لؤى زعيم القرما من «ابن سعود» أن يمده بالمساعدة فلم يفعل. واكتفى بأن أرسل احتجاجا إلى حسين فلم يفتح حسين خطابه بل رده إليه ومعه رسالة شفوية ينذر فيها «ابن سعود» بأنه قد يزحف على الرياض ويطرده منها مع أنصاره الوهابيين.

وعند ذلك ضج سكان الرياض ونجد وأساءوا الظن بزعيمهم واتحد الاخوان ضد من خلق نظامهم وطلب عبد الرحمن والد «ابن سعود» وطلب العلماء والمشايخ الذين يقودهم الدويش من ابن سعود أن يحارب حسينا ولكن البعثة الانجليزية واقفة بالمرصاد.

وهنا وبعد أن انتهت تلك الحروب يصح لنا أن نناقش الانكليز ونناقش المستر فلبي على الأقل فى جو هادىء قائلين لهم: كيف أنكم أيها الانجليز كنتم تحالفون «ابن سعود» وتحالفون خصومه فى نفس الوقت وتمنعونه من الدفاع عن نفسه بينما تتركون حلفاءكم الآخرين يهددونه فى كل حين ويوجهون إليه كل اعتداء؟ كان الأولى لكم عدم التدخل بين أولئك الزعماء أو منع الطرفين من العدوان، ولكن اسمحوا لى أن أقول لكم ان سياستكم الملعونة التى أملت عليكم

وجوب حماية سالم الذى أرسل قبيلة عجمان لمحاربة «ابن سعود» وحماية حسين، ومنع «ابن سعود» من درء الخطر هي سياسة الهدم ، سياسة الاستعمار التي تتبعونها فى مصر المسكينة فتعملون على تقوية فريق و إضعاف فريق ليحتكم إليكم الطرفان وكلاهما أبناء وطن واحد ، ولتكون الكلمة كلمتكم . أقول ذلك بصراحة وأنا معتقد أن «ابن سعود» يقدر ما أقول لأنه رجل عاقل لا تخدعه ألاعيب الانجليز .

طلب الانجليز منه أن يحارب الرشيد لأن لهم فى ذلك مصلحة ، ولكنهم فى الوقت نفسه تركوا المجال لسالم يرسل الأسلحة للرشيد ليستعملها ضد «ابن سعود» فما هذا أيها الانكليز المحترمون ؟ كذلك منعوه من محاربة الحسين ومافتئوا يمدون حسينا بالمال والأسلحة فيحارب بها «ابن سعود» ! ففسر لنا هذه السياسة يامستر فلبي ...

يقول الأستاذ « آرمسترونج » إن المستر فلبي لم يفهم الموقف ولم يعرف أن بركان الحرب العظمى قد تناثر منه أجزاء الآلة الواحدة التي يستخدمها الانجليز كأقسام الحكومة الانجليزية ، ومكتب الهند، ومكتب الحرب ، والمكتب الأجنبي والمكتب العربى بمصر . وكل هذه الأجزاء كانت تعمل متفرقة فتخرق المعاهدات وتتعارض أعمالها المختلفة ، فمكتب الهند مثلا كان يناصر «ابن سعود» ويمده بالمال والأسلحة ، والمكتب العربى بمصر يرسل المال والأسلحة إلى حسين ويمنيه بالوعود الخلابة ، والمكتب الأجنبي أبرم معاهدة مع فرنسا ضد «ابن سعود» وحسين .

مسكين هذا الرجل العبقرى فى ذلك المأزق الذى خلقه الانجليز وقد ضاق صدره أخيرا وفكر فى حل المعضلة وتبسيطها ليصل إلى تصميم قاطع لأنه لا يحب التردد ، وطالما ضلله المستر فلبي وخدعه فاضطر لأن ينبذ مقترحات فلبي وقال: أقسم بالله إنى لا أكترث شخصيا بمثل هذه الخزعبلات ، فعندى

ما يكفينى للعمل ومن الوسائل ما يمكننى من حكم هذه البلاد بقوة .. إنى لا أخاف إلا الله ، وسأبق كذلك حتى أموت . وتلك فلسفته فى الحياة الدنيا .

ومع ذلك مازالت علاقاته مع حسين وحماته الانجليز معقدة وما زالت خططه بسبب ذلك فى اضطراب ، خصوصا لما أن جاء شهر رمضان موافقا لشهر يونيو والحرارة فى يونيو كما تعلمها والصوم فى لهيب يونيو مؤلم جدا ، ومع ذلك يصوم العرب فكيف يجاهدون فى هذه الظروف ؟

«ابن سعود» لا ينام إلا سويعات قلائل كعادته ولكن الاخوان ينامون نوما عميقا لتمضية ساعات الفراغ إذ أنهم مشلولون عن العمل ، ولكن قائدهم يعمل باستمرار فى مجالسه وينفذ أحكامه العادلة ، ويؤدى فرائض الدين ويسمع لشكايات الرعية .

وفلبي ملازم له ، وأخيرا قال لفلبي «يحاربنى حلفاء الانجليز من كل ناحية قاتلهم الله . وأنا لا زلت حليفا للانجليز ومع ذلك يهددوننى — تذكر هذا يا فلبي وانه إن لم يحمنى الانكليز من حلفائهم فسأدافع عن نفسى» .

وكيف يدافع عن نفسه وهو مريض وهو متعب وأفكاره مشتتة ؟ والغريب أن الانجليز يظهرون دهشتهم لأنه فقد نشاطه وضاعت ثقته بنفسه وأصبح يكثر من الكلام مستعيضا به عن العمل ، والانجليز يجب أن يعلموا أنهم جناة ذلك كله — نعم جناة لأن الشعور فى بلاد نجد تغير من حيث نظرته للزعيم . وقال الناس إنه لم تعد هناك قيادة ، واستهان الوهابيون بكبيرهم ، وأرسل حسين جيشا ثالثا الى القرما فباء بالخسران ، ولكن فكر حسين فى إعداد جيش رابع وتجهيزه بمدافع التدمير ؛ لأنه يعتمد على الانكليز ويعتقد أنهم لا يبخلون عليه بآلات القتل والتخريب .

فاخذ أهل القرما يرسلون رسلهم الى «ابن سعود» . وأخيراً بعثوا اليه

برسالة قوية اللهجة جاء فيها : (إذا كنت تبحث عن الزبد فى خزائن العالم فلا تأتى لمساعدتنا ياعبد العزيز . فاخبرنا ونحن نقبل منك المعذرة فليست لنا من وراء ذلك غاية إذ نرسل رسلنا فى طلب معونتك ، ولكننا بعد ذلك سنرسل نساءنا لاستنهاض نجد بأسرها لمساعدتنا)

فأحدثت هذه الرسالة ضجـــة فى سائر أرجاء نجد ، ووجه العلماء نقدهم «لابن سعود» فى مجلس عام، وتكلم الشيخ عبد الوهاب كبير علماء الرياض بشدة قائلا : إن «ابن سعود» أهمل مطالب الاسلام والمسلمين وأصبح فى ربقة الانكليز،وردد أهل القرما عبارة «الزبد الذى فى خزائن العالم» وعلقوا على ذلك مشيرين إلى ذهب الانجليز ، وأن «ابن سعود» يخدعه بريق ذهبهم وأعقب ذلك احتجاج الوهابيين على السماح للانجليز بدخول الرياض حتى إذا قابل احدهم انكليزيا يجوب الرياض أغمض عينيه وأشاح بوجهه وبصق فى التراب، ثم بلغ من شدة كراهية الوهابيين للانجليز أن قاطعوا البدو الذين يخدمون الانكليز فى منازلهم . وخير مافعلوه،لأن الانكليز قوم غاصبون يجب احتقارهم ومقاطعتهم إن لم نقدر على محاربتهم وسفك دمائهم .

وقف «ابن سعود» بين هذه الحملات وهو لايقدر على إسكات الشعب بالقوة الغاشمة،ولا يقدر على إقناعه بالحجة والدليل ، وقد تكلم الدويش عن الحرب وتسلح الاخوان ، وقالوا «لابن سعود» بصراحة انه ان لم يخرج على رأسهم فانهم يسيرون وحدهم لمقاتلة الحسين ومساعدة القرما والاستيلاء على مكة ، وعندئذ تنعدم صفته كقائدهم .

ووردت الأخبار فجأة تقول بأن حسينا اتفق مع الرشيد ومع سالم شيخ الكويت لمهاجمة نجد،وأخذ حسين يجمع الرجال، وأخذ سالم يبحث عن عجمان ودعا الرشيد قبيلة شمر لمقاتلة الرياض .

فانتعش النشاط فى الحال ومضت فترة الركود وتخلص «ابن سعود» من الحمل الثقيل الذى ضغط على عاتقه وأوقفه موقف الحيرة والذهول ، وبدأ يتدبره فى خطة حازمة ، فصمم على محاربة الرشيد بحيث لا يشتبك مع الانكليز فيمدونه بالأسلحة والمال ضد الرشيد ، وبذا يطفىء ثائرة الوهابيين والاخوان ويقاتل حسينا وسالما بطريق غير مباشر .

وقد أخذ وعدا من «فلبى» بأن يحميه الانكليز من هجمات سالم وحسين إذا ما حارب الرشيد ، وأرسل جيشا قويا من الاخوان تحت قيادة ولده الأكبر تركى لمقاتلة الرشيد وتشتيت شمر .

ثم تحول إلى الشيخ عبد الوهاب ومن معه من العلماء محاولا إقناعهم بأن الرشيد هو العدو القديم والخصم اللدود الذى يعاونه الأتراك ويعدونه بتنصيبه سلطانا لبلاد العرب . ولا يفوت النجديين ما تصنعه تركيا إذا دخل الرشيد الرياض وطلب «ابن سعود» منهم وجوب الصبر على حسين حتى يقضوا عليه بسهولة فى الظروف المناسبة ، وسيوقف الانجليز حسينا ، وبذلك يؤمن شره ، ولكن الرشيد هو الخطر الداهم الذى استعد لهم فيجب مباغتته قبل أن تصله معونة الأتراك ، وأرسل «ابن سعود» يدعو العلماء إلى اجتماع عام بقرب مدينة شقراء .

فجاء العلماء متحمسين متحفزين للحرب ، ولما اكتمل عقدهم طلب منهم عقد مؤتمر من سكان المدن والقرى والبدو والاخوان ، وعقد المؤتمر فى الفضاء إذ جلسوا على رمال الصحراء فى هيئة مربع على أبواب مدينة شقراء ، وجلس «ابن سعود» فى ركن من أركان المربع محوطا بحراسه وأعلنهم بأن الحرب ستكون مع الرشيد وشمر ، فبدأوا يتكلمون .

وتكلم أحد الخطباء وأعقبه آخر ، وكلاهما يرفض محاربة الرشيد ثم تكلم

الدويش نائبا عن قبيلة مطير ، فقال: إننا نريد الحرب ، إما مع الشريف حسين الذى سلحه الانكليز وأصبح يهدد بلدنا القرما ، وإما مع عجمان التى يحميها الانكليز والتى تغزو اراضينا وتسلبها باستمرار وتعود من غير أن نؤدبها إننا نريد محاربة أعداء الدين ، وإننا ننتظر كلمتك — مخاطبا «ابن سعود» — لنتبعك ونجاهد من ورائك حتى الموت .

ياعبد العزيز إما أن نحارب الشريف حسين ، وإما أن نحارب عجمان .

جلس «ابن سعود» مصغيا إليهم جميعا ، وقد فهم مايجول بافئدتهم ، وأنهم أخبروا بأنه حليف المسيحيين أعداء الدين ونصير الانكليز ، وأنه يريد محاربة الرشيد بناء على أمر أعداء الدين ولمصلحة الأجانب ، ويظهر أن هذه الاشاعة كان مصدرها الدويش ، وهو رجل سياسى خطير ، وهو زعيم الاخوان والاخوان قوة لها مكانتها فى هذه البلاد فيعتمد عليهم «ابن سعود» فى حروبه ولكنهم يكرهون الأجانب والانكليز بصفة خاصة ، وربما قادهم الدويش لمحاربة حسين رغم أنف الانكليز ورغم أوامر «ابن سعود» .

جلس «ابن سعود» صامتا مطرقا برأسه مطيلا التفكير واضعا كلتا يديه على ركبتيه فلايتحرك ، والجماهير تنتظر أن يفوه لها بكلمة ، وأخيرا قبض على لحيته ووقف فجأة ينظر إليهم وهو يعرف كيف يشعل العواطف ويهز أوتار القلوب ، لأنه خطيب ساحر ، وقد بدأهم يقول «انظروا إلى» ثم جعل يرفع صوته الخافت تدريجيا حتى دوى كالرعد قائلا :—

(أنتم جنودى وليس لى جيش إلا بكم ولا أستمد قوتى إلا من الله ومنكم لاتظنوا أنى لاأزن الأمور وأعرف ماهو هام لكم ، ففيما يتعلق بالشريف لاتفكروا فيه ، فاما أن يمنعه الانكليز من مهاجمة القرما ، وإما أن أحاربه أنا شخصيا ، وإنى أعدكم بهذا ، والأمر لايكلفنى أكثر من إرسال نفر من أسرتى

أو عبد من عبيدى إلى الجنوب فيثير الناس هناك ضد الشريف ـ وفيما يختص بعجمان أرى أنكم لا تفقهون ما تقولون حينما تذكرون أن الانكليز يساعدونها ولماذا يقول لى الانكليز « أنتم بلهاء ؛ لديكم الوسائل فقاتلوا حائل الآن ؟ » هم مصيبون حقا ، فلدينا وسائل الحرب ومع ذلك نتباطأ فى الحرب ، وماذا تكون قيمة عجمان إذا أنا قبضت على حائل ؟ لو أنى كنت أحكمها لترك الانكليز قبائل الصحراء لحكمى ولخلصنا بذلك من جميع الاضطرابات التى يحدثها أولئك الجالسون على حدود أراضينا » .

ثم أخذ يقنعهم بأن الرشيد عدوهم الألد ، وطلب منهم أن يكون زعيمهم عند حسن ظنهم ، وأن يمدوا أيديهم إليه ، ثم خاطب العلماء . فاقتنع الجمع بأن الرشيد عدو الدين وعدوهم ، وصاح الاخوان (ياعبدالعزيز لماذا لم تثق بنا قبل الآن ؛ فكنا نحارب معك غير متشككين) .

وأصبح بذلك قائدهم ومحل ثقتهم كما كان ، فتوافد زعماء القبائل على سرادقه وفى المساء وقف يصلى بهم جميعا ، ومن ورائه زنجى يحمل سيفه ولا يشترك فى الصلاة بل يحرس « ابن سعود » مخافة أن تصيبه يد عدو .

أدوا صلاة الجماعة وهو يتلو عليهم سورة الفاتحة فيرددون صوته « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين » .

وبعد الصلاة قال لهم « خذوا أسلحتكم وعودوا إلى بيوتكم ـ أسرعوا وتأهبوا للقتال وقابلونى فى « بديرة » عند بزوغ القمر فسينصرنا الله برحمته » .

الفصل الرابع عشر

فى نهاية الحرب الكبرى

حارب « ابن سعود » عدوه الرشيد فى حائل وانتصر عليه وبذلك أرهب سالما وقضى على الاتحاد الذى تكون ضده دون أن يغضب الانكليز أو الوهابيين فطلب الرشيد منه السلم فسالمه وعاد « ابن سعود » إلى الرياض يحمل اكليل الغار .

ولما رجع من حائل إلى الرياض توغل الانجليز فى فلسطين تحت قيادة اللنبي كما تقدموا فى بغداد تحت قيادة مود يطاردون الأتراك فطلبت بلغاريا وتركيا الهدنة وتبعتها النمسا فأصبحت خاتمة الحرب قاب قوسين أو أدنى .

وفى ذلك الحين، فى سنة ١٩١٨ انتشر وباء الانفلونزا فاجتاح الشعوب وحصد الذين نجوا من نيران الحرب وقد تفشى الوباء فى بلاد العرب وأصاب البدو والزراع فى نجد والرياض حتى كان يلتهم القوى قبل الضعيف ، فصار فى كل بيت مأتم حتى فى قصر الملك « ابن سعود » إذ مات ولده الأكبر تركى وكان شابا غاية فى الشجاعة والنشاط وكذلك ماتت الملكة جوهرة .

فلبست الرياض ثوب الحداد وجلس « ابن سعود » وحده ينتحب ، لأن جوهرة كانت الزوجة الوحيدة التى أحبها حبا صادقا قويا وهى ابنة عمه وإحدى أميرات بيت سعود وقد تزوجها وهو فى ريعان الشباب لما كان يحارب الرشيد وتزوجته وهى فى السابعة عشرة من العمر وكانت غاية فى الجمال والذكاء فريدة بين بنات العرب

تمتع « ابن سعود » بالنساء طوال عمره تمتعا مشروعا فى حدود الزوجية

وكانت سعادته أن يرى نفسه محاطا بنسائه وهو لا يخفى الحقيقة لأنه لا يرى أن تعدد الأزواج منقصة وقال : إنى أتبع أمر الرسول عليه السلام أفعل ماكان يفعله وأتبع ماكان يتبعه وسيكون عدد زوجاتى دائما الحد الأقصى الذى سمح به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبهذه المناسبة أسوق لك بعض أقوال « ابن سعود » لتتبين منها رأيه فى تعدد الزوجات وهو أمر اجتماعى له شأنه فى البحث وخطورته فى بلاد المسلمين .

ذات يوم فى سنة ١٩١٧ تحدث مع بلهافن عضو البعثة الانجليزية وذكر له أن الانجليز يستبيحون الزنا وهو جريمة عقوبتها فى الاسلام رجم الزانى بالحجارة حتى يموت ، وأن الانكليز منهم من يترنم بالفسق فى أشعاره ، وأن تعدد الزوجات أفضل من ذلك بكثير فسأله بلهافن : كم امرأة تزوجت؟ أجاب «ابن سعود» عندى أربع زوجات كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بلهافن : ولكن كم مجموع من تزوجت وكم طلقت من زوجاتك ؟

أجاب «ابن سعود» : يبلغ عدد اللائى تزوجتهن وطلقتهن مائة وإذا أراد الله سأتزوج وأطلق غيرهن .

وفى مناسبة أخرى قال لفلبي : بالله لقد تزوجت فى حياتى نساء كثيرات والحمد لله انى لن أغلق باب الزواج ، والآن وقد رأيت خسائر الحرب سيأتى الوقت الذى يتعقل فيه الأوروبيون ويأخذون بتعدد الزوجات « وابن سعود» يكره الرجل الذى يكتفى بزوجة واحدة ويرى أنه رجل مريض يستحق العلاج ذلك لأنه يدقق فى اتباع أوامر الدين ، وقد قال تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أوماملكت أيمانكم) «وابن سعود » يستهين بعملية الطلاق ، ومن عادته أن يحتفظ بثلاث

زوجات ويستعد لزواج الرابعة ، وإذا كان متزوجا أربعا طلق إحداهن وأحل غيرها محلها . وهو يحسن معاملة نسائه وينصفهن جميعا .

أما بواعث زواجه فكثيرة ، وهي ترجع أحيانا لأسباب سياسية ليوطد قدمه في البلاد بتقوية صلاته بالأسرات العريقة ؛ فمثلا تزوج بنت عبد الوهاب لتحسين صلاته برجال الدين ، وتزوج من صدير ، ومن مطير ، ومن عنزة ، ومن داوازير ، تزوج من الأسرات صاحبة الزعامة في البلاد ، تلك الأسرات التي لم تستنكف أن يطلق «ابن سعود» بناتهن لأن طلاقهن لا تترتب عليه أضرار تذكر ، بل كان مما يشرف تلك البيوت أن ترتبط «بابن سعود» بأواصر المصاهرة

وفي بعض الأوقات كان يتزوج «ابن سعود» من قبيلة يكون حديث العهد بحكمها ، فتخلص له القبيلة ، وأحيانا يندفع إلى الزواج بعاطفة الرحمة فيتزوج من بيت أصابته المحنة لينتشله من السقوط كما تزوج بأرملة أخيه سعد .

وساعده على الاكثار من زوجاته أنه رجل قوى البنية حاد الأعصاب شغوف بالنساء ، له قلب كبير يحب الجمال كما يحب الحرب ، ويحب المرأة الصالحة

ومع تعدد زوجاته كانت جوهرة أحبهن إليه فأجلسها على عرش الملك دون سواها ؛ لذلك لم يكن عجيبا أن يتأثر لموتها كما لم يكن عجيبا أن يتصدع قلبه لوفاة ولده الباسل تركى ، حتى قضى أوائل سنة ١٩١٩ في حزن دائم ، وقد أغلق الحجرات التي كانت تستعملها جوهرة واحتفظ بخدمها وعبيدها ، وفي كل يوم من أيام الجمعة يزور قبرها بعد صلاة الصبح .

ولكنه لم يمكث ينعى زوجته ، بل انتقل من دائرة الحزن والهموم إلى العمل الجدى ؛ لأن عبد الله ولد الشريف حسين كان يعمل لمقاتلته ، وكان عبد الله قبل ذلك قد حاصر جيوش الأتراك في المدينة وعلى رأسها فكرى باشا ، وظل الحصار حتى أعلنت الهدنة مع تركيا ، ورفض فكرى باشا أن يسلم

الحامية ولكن فى باكورة سنة ١٩١٩ اضطر للتسليم حيث أصبح فى عزلة تامة محاصرا بالأعداء فلا يصل إليه القوت ولا أمل له فى المدد ، ورجاله يحصدهم المرض الذى سبقت إليه الاشارة .

وما كان تحفز عبدالله للقتال ليزعج «ابن سعود» الذى لايحب السكوت ويميل إلى الحروب ؛ لذلك لما علم بأن عبدالله يحرض القبائل على مهاجمة القرما أرسل إلى الاخوان فى شقرا يأمرهم بحمايتها ويقول لهم إنه مستعد للدفاع عنها بنفسه .

وليست أمامه صعاب فى هذه المرة لأن الاخوان رهن إشارته يرغبون فى حماية القرما من حسين الخائن الذى باع وطنه للانجليز .

ولكن الانجليز — كعادتهم — يغنمون فرصة الانقسام للتداخل والكسب على حساب المتخاصمين فأعلنوا أنهم مستعدون للفصل بين حسين و«ابن سعود» ولكن كلا المتخاصمين كانا يستعدان للقتال . فعقد الانكليز مؤتمرا فى القاهرة ولما كان حسين حليفهم النشيط فى الحرب أرادوا الاستفادة به فى السلم أيضا لأنهم لا يؤملون كثيرا فى « ابن سعود » وظنوا أنهم إن أمدوا حسينا بجيش انكليزى منظم وضباط من السوريين وبنادق ومدافع وبطاريات فمن المؤكد أنه يكتسح «ابن سعود» بسهولة .

ولذا صمموا على مساعدة حسين وطلبوا من « ابن سعود » أن يرتد إلى الوراء وأن يترك القرما لحسين قائلين له : إنه إن لم يخضع لأمرهم فلا شك أنهم يمدون حسينا بكل مساعدة ويمتنعون عن دفع الخمسة آلاف جنيه شهريا له .

فأجاب « ابن سعود » بكل رباطة جأش وشجاعة «النصر بيد الله وحده إنى لا أستحق تلك التهديدات منكم وإذا صممتم على قطع الاعانة المالية ، فحسبي أن شرفى سيظل طاهرا ، وسأعمل بما يمليه على ضميرى » .

وبمعونة الانجليز تسلح عبدالله ومعه أربعة آلاف مقاتل نظاميين مجهزين بآلات حربية حديثة، وعشرة آلاف من البدو وسار بهؤلاء جميعا إلى القرما ورابط عند قرية ترابا.

فاكتظت القرما بالمتطوعين من الاخوان وكان ذلك فى أواخر مايو والقمر فى الربع الأخير والظلام حالك ومرت عاصفة ممطرة فاشتد الظلام فانتهز هذه الفرصة لؤى شيخ القرما وبدأ بالهجوم وباغت العدو عند ترابا وأخذ يذبح فيهم وهم نيام فقام عبدالله مذعورا وركب جوادا فر به وهو لايرتدى غير قميص النوم، وأخذ يعدو بلا ابطاء حتى وصل مكة ودخل القصر يرتجف من هول مارأى حتى لم ينج من الأربعة آلاف إلا مائة ، واستولى لؤى على جميع البنادق والمدافع والخيام واختفى جيش حسين.

وبمجرد أن شاع الخبر أسرع أهل الطائف يطلبون النجاة وكانت مكة فى ذلك الوقت غاصة بالحجاج من جميع الأقطار فأسرعوا بالانتقال إلى جدة وطلبوا العودة إلى أوطانهم؛ لأن الخوف من بأس الوهابيين والاخوان شمل الحجاز كلها فلعن حسين ولده عبدالله، وأرسل إلى الانجليز يستغيث بهم.

فسار «ابن سعود» بجيشه مخترقا «ترابا» فرأى طريقه إلى مكة مفتوحا ورأى أن حسينا وحجازه أصبحا تحت رحمته.

ولكن وقف الانجليز فى وجهه لثانى مرة، فأخذ يفكر فى هدوء لأن الانكليز خرجوا من الحرب الكبرى منتصرين. فأعلن بين رعيته أن الظروف لا تسمح له بمهاجمة مكة وقد يتيسر ذلك فيما بعد، فخير لهم أن يعودوا الى بيوتهم وعند سماع ذلك أذعنت الرعية التى لم تعد تشك فى أقوال راعيها

فوضع حامية فى القرما وصار فى الصحراء الداخلية تاركا الطريق المفتوح الى مكة، ورأى أن الأتراك قد خرجوا من الميدان فحل محلهم الانكليز، والانكليز أشد عنادا لأنهم كافرون ولأنهم جبلوا على الاغتصاب وسلب الأوطان وإحداث الفتن.

الفصل الخامس عشر

حاكم أواسط بلاد العرب

إزاء تعسف الانجليز فى موقفهم الشاذ لم يشأ «ابن سعود» أن يهاجم مكة مع انه انتصر فى القرما وأدى ذلك الى تقوية مذهب الوهابيين فى بلاد العرب حتى أثر فى سياسة بريطانيا تجاه بلاد العرب ، وكان فى استطاعة «ابن سعود» أن يجتذب البريطانيين الى جانبه ، ولكنه لم يشأ أن يرتبط بعلاقات وثيقة مع الدولة التى أخرجت العثمانيين من بلاد العرب بالغدر والرشوة . وفى نهاية سنة ١٩١٩ أرسل فيصلا ثانى أولاده فى مهمة سياسية الى لندن ولم يكن سنه يتجاوز الرابعة عشر ، ولكن كان لزيارته تأثير عظيم فقد أرشد الساسة البريطانيين الى أن فى شبه الجزيرة غير الشرفاء من هم أولى بالاهتمام وكانت الاضطرابات تعصف بحسين الذى تقوضت آماله المادية عند ما أعلن اتفاق سيكسيكوت سنة ١٩١٦ وذلك الاتفاق تضمن تقسيم سوريا وبلاد ما بين النهرين بين مناطق النفوذ الفرنسية والبريطانية . وأكد بلفور سنة ١٩١٧ أن الحكومة البريطانية سعت فى تأسيس وطن لليهود فى فلسطين . وفى الحقيقة ضاعت أحلام حسين بنزاعه مع ولده فيصل «ملك العراق السابق رحمه الله» وهذا الأخير قاد جيوش العرب فى الصحراء وكان فى مقدوره أن يخطو خطى واسعة لو لم يتقيد بنصائح والده

وعموما مزقت الحرب العظمى شمل الأمبراطورية التركية ، فانقسمت الى

سوريا وفلسطين والحجاز واليمن وعسير والعراق ومصر وبلاد العرب . وأصبح للانجليز بقوة الحديد والنار حماية مؤقتة على تلك البلاد فشيدوا حصونهم فى القاهرة والقسطنطينية وغالبو ودمشق ، أى من البحر الأحمر الى البحر الأسود ، ومن البلقان ومصر إلى الهند والخليج الفارسى .

أما بلاد العرب فقد قبضوا عليها فيما عدا منطقة نجد ، ولكن من المستحيل أن يظلوا فيها لأن ذلك يستلزم جيوشا جرارة ، والحرب قد أتعبتهم ولم يصبح لديهم المال الكافى لشراء ضمائر الأعراب لأن الانجليز سلاحهم الرشوة دائما وبغير ذلك يهزمون .

ولمواجهة الموقف وضعت الحكومة الانجليزية خطة بسيطة وهى عبارة عن فكرة اتحاد عربى من الشعوب المسلمة الناطقة بالضاد وأرادت أن تضع حسيناً على رأس هذا الاتحاد حتى تقوده حيث تريد ، وربما فكروا فى تعيينه خليفة للمسلمين باعتباره حارس المدن المقدسة حتى يسخروه فى أغراضهم ضد المسلمين .

ولكن هذه الخطة واجهتها المصاعب لأنها خيالية لا تقوم على أساس الحق . فالعرب لا يشعرون بالوحدة والأقطار العربية لم تفكر فى الاتحاد خصوصا وأن قطرين من تلك الأقطار كانا محل نزاع ؛ لأن الانكليز وعدوا الفرنسيين باعطائهم سوريا ووعدوا اليهود باعطائهم فلسطين كما ذكرنا ، فلما ذهب لورانس إلى جدة فى سنة ١٩٢١ ليقنع الشريف حسين بوجوب الموافقة على ذلك رفض حسين أن يوافق مدعيا سيطرته على البلدين سوريا وفلسطين . فحاول الفرنسيون واليهود إحباط مساعى الانجليز فى إقامة الاتحاد العربى .

على أن لورانس قاد حكومته فى طريق ملتو ، فطلب من السلطات الانجليزية

فى القاهرة وفى لندن وفى مؤتمر السلام بباريس أن تنفذ ماوعدت به حسينا وألا تعبأ بوعودها للفرنسيين واليهود . وأصر على وجوب إقامة الاتحاد العربى ونسى أن حسينا رجل قليل الأهمية ونسى أهمية الوهابيين و الاخوان فى داخل بلاد العرب ، تلك الأهمية التى انتبه إليها جون فلبى خبير الانجليز وجاسوسهم فى بلاد العرب .

أما « ابن سعود » فقد ظل فى الرياض يراقب هذه السياسة عن كثب ، ثم أرسل رسلا إلى الفرنسيين فى دمشق ليتصلوا به ، وكان حسين يفخر دائما بأنه محمى من الانكليز ، ولكن منذ زوال الأتراك وضع الرشيد نفسه تحت حماية حسين ، وتلك ألعوبة أغضبت الانجليز .

وقد قابل « ابن سعود » السير برسى كوكس فى عقير ، ولكن دون جدوى فما زالت تحيط به حلقة من الأعداء ولما خلع الفرنسيون فيصلا من دمشق نصبه الانكليز ملكا للعراق كما عينوا أخاه عبد الله أميراً لشرق الأردن .

حاول « ابن سعود » أن يكسر هذه الحلقة ولكن وجد الانجليز فى طريقه وحسين لا يفتأ يدس ويكتب خطاباته لحكام حائل والكويت وعسير وغيرهم يحرضهم ضد الوهابيين ، ولكن منذ انتصار قورما دوى صوت القبائل المجاورة يتساءلون عن نتيجة هذا الغموض ، والاخوان يريدون مناطق واسعة . وقد صمم « ابن سعود » على التعامل مع عسير ، تلك الامارة الواقعة بين اليمن والحجاز وكانت أول بقعة عربية رغبت فى دخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، وكانت تحاول أن تمتد على حساب جاراتها .

وفى صيف سنة ١٩٢١ جهز « ابن سعود » حملة كبيرة من خمسة آلاف رجل وجعلها تحت قيادة ولده فيصل وفى ذلك التاريخ لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره فكلل جبينه بالغار فى منطقة آبها . لأن حكامها كانوا قد لجأوا إلى الرياض فرارا من مظالم حسين .

وتلك كانت فرصة ملائمة للتوسع لأن التوسع فى تلك الأثناء لم يكن ليحدث قلقا عالميا إلا أن الأراضى المنخفضة من عسير وهى (التهامة) حاربت الاخوان، ولم يستطع الاخوان أن يتحملوا الجو الموبوء إلا أنهم لم ينسحبوا حتى انتصر فيصل فى آبها واعتبر بطل تلك الموقعة .

فاكفهر وجه حسين مرة أخرى وخادعه البريطانيون حتى تضعضعت آماله فى شمال بلاد العرب وكان يحور عليه فى حدوده الجنوبية الغربية ألد خصومه ، وقد تأثرت مواصلاته مع اليمن بضم «عسير» إلى مناطق «ابن سعود» فظهر بمظهر الحيرة والاضطراب ، فاستعان فى بادىء الأمر بابن رشيد ووضع آماله فى قبيلة شمر ، معتقدا أنها تستطيع أن تصلى الوهابيين نارا حامية .

ولكن «ابن سعود» منذ سيطرته على عتيبة كان يرسل وعاظه إلى شمر فيبثون فى أهلها تعاليم الوهابيين ، فلما تشبعوا بمبادىء الوهابيين ضعف إخلاصهم لزعمائهم وانتهى الأمر أخيرا بقتل ابن رشيد فتنازع خلفاؤه على الزعامة كما يتنازع زعماء الأحزاب فى مصر على كراسى الحكم فلم يصبحوا قادرين على القتال .

فشعر «ابن سعود» بأن الفرصة ملائمة للقيام بحركة فى القاسم شمالا وكان الاخوان فى ذلك الوقت مستعدين للحرب متحفزين للهجوم على العراق والكويت .

وفى سنة ١٩٢١ بسط خطته الثلاثية للهجوم على حائل وقد سارت إحدى فرقه تحت قيادة أخيه محمد من الرياض تجاه الشمال ، وقامت جيوش الاخوان من الشرق بمناورات تحت قيادة فيصل الدويش زعيم مطير واشترك فى ذلك نورى شعلان من الشمال والشمال الغربى .

وقبل أن يتم هدم بيت رشيد انتخب «ابن سعود» سلطانا لنجد وملحقاتها

إذ دعته جمعية من قادة نجد ما بين علماء ورؤساء قبائل ، ليتحلى بذلك اللقب فأجاب دعوتهم . وقد اعترفت بلقبه هذا بريطانيا رسميا فى أغسطس التالى .

ومع أن اعتراف بريطانيا قد أعجبه إلا أنه كان متشككا من ناحيتها لأن فيصل نجل حسين وصل فى يوليو إلى العراق وكان من الممكن أن تؤدى أساليب الديموقراطية فى الشرق إلى المناداة به ملكا عليها وحتى مع تمام هذا اندفع «ابن سعود» بكل ما أوتى من قوة لمحاربة حائل .

وقد جعل مركز قيادته فى القاسم ، ثم أرسل فصيلتين تحت قيادة أخيه محمد وولده سعود لمحاصرة حائل ولم يكن حاكمها عبد الله بن متعاب من القوة والشجاعة بحيث يستطيع مقاومة هجوم عنيف ، فوضع نفسه تحت رحمة «ابن سعود» الذى أرسله بصفة سجين إلى الرياض ، وهناك فى عاصمة نجد نستطيع أن نراه فيلسوفا متمتعا بكامل حريته يفكر فى تقلبات الحوادث وعجائب الأيام .

انتصر « ابن سعود » على الرشيديين نصرا مبينا ، وفر أكثرهم إلى العراق يتذرعون بحماية فيصل وخضع الباقون فأقام عليهم حكاما من قبله ولكنه أحسن معاملتهم ، وفى صدد هذا ننقل إليك ما قاله الأستاذ « كينيث وليامز » فى الفصل الثانى عشر من كتابه حرفا بحرف وهو يدل على عظمة « ابن سعود » وعلو قدره بين الفاتحين .

جاء فى كتاب الأستاذ وليامز : «ولو أن الأدوار التى أرادها هو قد تمت لكان من أكبر الغزاة انتصارا ولكن كرمه واحسانه كانا بالغين ، وكما يقول كاتب أمريكى عليم بأحوال العرب : لقد أكسبته معاملته الطيبة للمدينة المحاصرة هيبة وجلالا أكثر مما أكسبه انتصاره الحربى عليها .» وقد كان الاخوان متعطشين للسلب والنهب ولكنه لم يأذن لهم به بل أمر باحضار قوت الوهابيين إلى أهل المدينة المحاصرة ليشفى مسغبتهم ، وقد كان ذلك منه موضع دهشة

المسلمين الذين لايدينون بمذهبه والذين تذكروا سوء معاملة أسلافه لأسلافهم مائة وعشرين سنة فى مدائن العراق المقدسة ، أولئك هم الشيعة وقد خافوا أن تحيق بهم معاملة أسوأ منها .

وقد ذهبوا بذلة وانكسار إلى ذلك الصوفى العظيم القدر فى نجد ، وكانوا متوقعين أنه سوف يسحقهم أو يضعهم فى السجن على الأقل ، ولكن على عكس ما كانوا يتصورون فانه أعاد إلى نفوسهم الطمأنينة وقرأنهم فى كنفه وحمايته .

وكانت معاملته لحائل موضوعا تاريخيا جميلا ، تلك المعاملة التى برأت الوهابيين مما أذيع عنهم فى المشرقين من حب للقتل وسفك الدماء بل وضح مذهبهم ناصعا للجميع .

ولكى يتم الاتفاق بين حائل والرياض تزوج «ابن سعود» وتزوج ولده سعود من بيت رشيد وبذلك استمال إليه القلوب ودل على شهامة ملوك العرب ونبل عواطفهم ولا عجب أن يقول أمين الريحانى إنه سمع كبير الرشيديين يتحدث عن سلطان نجد فى الرياض قائلا « اللهم أطل عهده ووطد دعائم ملكه »

ومع أنه باستيلاء الوهابيين على حائل أصبحت كل بلاد العرب الوسطى تحت سيطرة رجل واحد إلا أنه جدت مشكلات كثيرة ، فان «ابن سعود» قد زكى شرف آبائه وضم إلى ملكه ولاية حائل بأسرها ولكنه لم يضم إلى حكمه جميع سكانها لأن بعض رجال قبيلة شمر آثروا الرحيل إلى العراق على التسليم للوهابيين الذين حاصروهم حصارا عنيفا .

جلس حاكم قلب الجزيرة على صولجانه ولكن ميزان الملك فى الجزيرة قد تأثر ، فقد أصبح من الصعب بيان حدود ملكه فى الصحراء وأدت المشاكل التى خلقتها تلك الصعوبة إلى ارتباك فى سياسة الحكم وقد ظل الارتباك عشر سنين يهدد مركز «ابن سعود» نفسه .

الفصل السادس عشر

مشكلة الحدود ، سقوط الملك حسين

مشكلة غاية فى الدقة وغاية فى الأهمية ، وقد قال الاستاذ «وليامز» بصددها : من واجب «ابن سعود» أن يتفكر فيما تعلمه من أصول السياسية وهو فى منفاه مع الشيخ مبارك حاكم الكويت فى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد أصبح يحمل وحده عبء المداولة مع الدول الأجنبية ، فلقد كان ملكه قبل استيلائه على حائل متاخما للكويت وجبل شمر والحجاز ، ولكنه لم يصل الى العراق ولا إلى ذلك الجزء من سوريا الذى تأسست فيه امارة شرق الأردن سنة ١٩٢١ وحتى قبل أن يقمع ابن رشيد كانت هناك صعوبات من حيث مجاورته للكويت والعراق وقد غزا الاخوان هاتين الدولتين .

أرسل «ابن سعود» من يبشرون بمذهبه فى السهول العربيـة فأحدثوا تأثيرا كبيرا وامتلكوا أزمة القلوب حتى لم تستطع روالا أن تقاوم تيارهم ولم يكن لتلك القبيلة زعيم حازم لأن شيخها نورى شعلان كان فى شبابه رجلا حربيا ، فلما بلغ من الكبر عتيا مال الى الراحة واستقر فى دمشق حيث ينفق عليه الفرنسيون ، ولذلك لم تستطع قبيلته مقاومة الاخوان .

وأكثر من ذلك أعلن حكام سكاكا وحوف تبعيتهم «لابن سعود» وتبعتهما القرى واحدة بعد الأخرى ، وسار الاخوان شمالا فى أعالى وادى سرحان ظافرين حتى أصبحوا على مقربة من حدود فلسطين .

وتيقظ الانكليز لهذا الخطر لأن حوف كانت مفتاح الصحارى الشمالية

وملتقى البدو ، فهى واقعة فى طريق القوافل بين مصر وبغداد وبين سوريا والخليج الفارسى ، فمن كانت له السلطة فى وادى سرحان يعتبر خطرا على سوريا وفلسطين وشرق الأردن .

وقد ظهرت بوادر النشاط فى الصحراء وكاد الانفجار أن يقع كما حدث فى مستهل الاسلام قبل ذلك بألف وثلاثمائة عام . وأخيرا هجم الدويش على العراق وهزم فرقة من الانجليز النظاميين على مقربة من الناصرية ، وهجم بعض رجال داوازير على الكويت وآخرون منهم على الحجاز .
وقال الانجليز : ان «ابن سعود» قد أخل بميزان السلطان فى بلاد العرب . فأصبح يهددهم باثارة سكان الصحراء فى أى وقت والاستيلاء على المناطق الخصبة المجاورة من البلاد الواقعة فى دائرة نفوذهم .

ولكن الرجل الذى أحرز تلك الانتصارات كلها لا يعرف من هم هؤلاء الانجليز الذين يعترضون سبيله ، والاخوان الذين جاهدوا جهادا مشكورا حرضوه على التقدم وأشعلوا آماله ففكر فى السير شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط وشرقا إلى بغداد ظانا أن أية قوة لا تستطيع أن تصده عن تلك الجهات وظن الاخوان أن الانكليز دالت دولتهم وأن الترك والأفغانيين كسروا شوكتهم خصوصا وأن الثورة فى الهند مجهزة ، بل الثورات فى إنجلترا نفسها قائمة على قدم وساق

الا أن «ابن سعود» كان يفكر فى هدوء وصمت كعادته فلا يغره بريق الحوادث وطلاء الأخبار فنظر الى الانكليز على أنهم لا يزالون أقوياء . وأوقف رجاله وأرسل الى الانكليز مندوبين يفاوضونهم وتحرك بحذر مدققا فى كل خطوة يخطوها .
وفى ظرف المفاوضة خرجت من شقرة ليلا وبغير علمه قوة من الاخوان من قبيلة حرب يبلغ عددها ألفا وخمسمائة من الرجال الأشداء وقطعوا ألف ميل سيرا

فى أواسط شهر أغسطس وفى لهيب الشمس المحرقة فعبروا حدود شرق الأردن ووصلوا إلى عاصمتها عمان ، ثم ساروا خمسة عشر ميلا إلى القلعة الانكليزية التى يقوم فيها الأمير عبد الله وغزوا قرية من قرى بنى شقير يقال لها «طرايب» فحطموها وقتلوا جميع رجالها صغارا وكبارا ، كما أبادوا الأغنام والحيوان مما تعذر عليهم حمله .

وكان ذلك أسلوب جديد من أساليب الحرب فى الصحراء ، فأولئك الذين يحاربون لدين الله ونصرة مذهبهم لم يراعوا التقاليد ، فلما أشيع الخبر هجمت بنى شقير على الاخوان ، وأرسل الانكليز من عمان سياراتهم الحربية كما أطلقوا طائراتهم من بيت المقدس فاجتاحوا الاخوان ، وجعلوا رجالهم وجمالهم أشلاء ممزقة مكدسة كالتلال ؛ لأنهم استعملوا آلاتهم السريعة حتى تركوا ألف جثة غنيمة للغربان ، وقتلت بنى شقير من بقى من الاخوان فلم يعدمنهم إلا ثمانية .

ولكن لا يفوتنا أن نستنتج من مجرى تلك الحادثة أن «ابن سعود» كان فى احتياطه بعيد النظر . وهو الرجل الذى يزن الأمور ، وقد ترددت فى الصحراء أخبار غزاة طريب . وكانت أول مرة قوبل بها البدو بالآلات الحربية الحديثة ، فأحسوا بالقوة والهول من آلات الدمار وعرفوا أنهم كانوا واهمين حين زعموا أن الانكليز قد ضعفوا .

«وابن سعود» وحده هو الذى قدر كل ذلك . ولما كان الغزاة قد فعلوا فعلتهم بغير أوامره فعرقلوا مسعاه ، وأساءوا إلى مركزه ، عاقب شقرة وعاقب الثمانية الذين نجوا من الموت .

وفى خريف سنة ١٩٢٢ دعا السير برسى كوكس لمقابلته فى عقير . وهناك تحدث الصديقان طويلا ، وكان «لابن سعود» سحر خاص ، وجاذبية فى الحديث ، وكان موضوع الحديث أمرا جديدا فى بلاد العرب وهو موضوع الحدود

بين نجد والبلاد الحديثة . وقد كانت الحدود غير ضرورية فى زمن الامبراطورية التركية ، ولكنهم فى تلك الأثناء ، أرادوا تقرير حدود معينة كما هو الحال فى أوروبا وتلك رغبة كوكس ، ولكن «ابن سعود» رأى أن فكرة الحدود فى بلاده فكرة خيالية ، وأن البدو لا يمكن أن يحترموا تلك الحدود بل رأى أن مسألة الحدود اعتداء من الانكليز على حرية البدو ، وأن الانكليز يقصدون بذلك مساعدة البلاد المعادية له ضده ، وتقوية نفوذ الشريف حسين وأولاده . وأن اعترافه بتلك الحدود يعتبر اعترافا ضمنيا منه بسلطة أعدائه فى البلاد الناشئة . وأنه لا يقبل أن يحد من سلطانه بيده .

وبعد أيام من المقابلة وصل الطرفان إلى اتفاق حيث اعتبر «ابن سعود» حاكما لحائل وشمر وحوف . وتقرر أن يدفع له مبلغ من الذهب شهريا على شرط أن يوضع حد بين نجد والعراق ، وبشرط ألا يقيم «ابن سعود» قلاعه على مقربة من الآبار أو الحدود .

فرجع «ابن سعود» مكتئبا ، ورأى أنه لم ينل شيئا من وراء تلك المقابلة بل قوى شعلة العدوان ضده فى الولايات المجاورة ، وتمنى لو يتخطى تلك القيود ، ولكن أين هى القوة التى تمكنه من رغبته ؟

قال لصديق له : انظر كيف أن الانكليز إذا أرادوا شيئا أخذوه ! يجب علينا أن نحارب لقضاء حاجتنا . إننى سأضع قدمى ، وإذا قال الانكليز «يجب عليك . . » فانى سأحارب عند المقدرة . سأحارب لا مخادعا ، ولكن مدافعا عن نفسى ، والله على ما أقول شهيد ، وأما الحقوق التى منعتنى القوة الغاشمة من التمتع بها ، فانى سأستردها باذن الله عندما تتهيأ لدى القوة الكافية .

على أن القبائل تذمرت وخصوصا مطير التى يرأسها الدويش . لأن الحدود ان هى إلا تحديد لحريتهم وتهديد لهم من كل جانب . وقد سلح فيصل

ملك العراق أولئك الذين التجأوا إليه من شمر وسمح لهم بالهجوم على نجد . وأرسل الأمير عبد الله فرقه إلى وادى سرحان واستولى على بعض القرى . وهدد حسين قبيلتى حرب وعتيبة .

فرفض الاخوان السكوت على ذلك . وأرادوا معاقبة شمر بالهجوم على العراق نفسها . وزحفوا شمالا عن طريق وادى سرحان تجاه شرق الأردن وطلبوا محاربة حسين ، وزمجر العرب فى كل ناحية وأرادوا تخطى الحدود و «ابن سعود» يشاركهم هذا الشعور بقلبه .

فلما أحس الانجليز بنتيجة تمسكهم بشىء لا يستقيم مع طبيعة البدو وأن ذلك يزيد الحقد عليهم دعوا «ابن سعود» إلى اجتماع آخر ولكن دعوتهم لم تأت بنتيجة بل أغضبت «ابن سعود» لأن كوكس لم يحضر الاجتماع ولأن المندوبين الانجليز أساءوا التفاهم مع «ابن سعود» ولم يقدروا أنه أصبح سلطان نجد وحاكم أواسط بلاد العرب . فاصطدموا بكبريائه حين قال فى ثورة غضبه «حقيقة إنى صديق الانجليز ولكنى سأتمشى معهم بما يفرضه على الدين وما يحتمه على شرفى»

ومع ذلك استطاع أن يضبط شعوره وبات ينتظر الفرصة الملائمة .

وقبل أن يصلوا إلى حل وردت أخبار تقول بأن حسينا زحف على قرما وترابا واستولى عليهما بمعونة ولديه عبد الله وفيصل ، وهذان الأخيران أرسلا الغزاة من شرق الاردن والعراق إلى نجد .

وذلك يعتبر اعتداء صريحا على «ابن سعود» . فطلب الاخوان والبدو من «ابن سعود» أن ينتقم لشرفه ، وغضبوا لمسلك حسين وأبنائه ، ولكن «ابن سعود» أصيب فجأة بمرض فى وجهه انتهى باصابة الجسم كله حتى هزل وصار هيكلا عظميا فاضطر للسكون على مضض ولكن عند تماثله للشفاء

عجل بالعمل الشاق فأصيبت عينه اليسرى حتى تعذر عليه أن يبصر بها واستدعى طبيباً سوريا لمعالجتها فلم ينفعه علاج الطبيب مما اضطره لاستدعاء طبيب أخصائى من مصر أجرى له عملية جراحية كانت شافية .

على أنه بالرغم من مقاومة المرض له سارت الحوادث سيراً حثيثا لصالحه فان أهل ترابا وقرما ثاروا ضد حسين واكتسحوا جيوشه من المدن والقرى المجاورة . بل أصبح حسين مكروها فى شعبه لأنه حاكم أوتوقراطى مستبد لا يؤمن بالشورى ويعمل كل ما تسوله له نفسه ولو كان مخالفا لمصلحة الرعية وأكثر من ذلك أنه كافح الحرية الشخصية وحارب الآراء البريئة وحرم عليهم أى نقد أو ملاحظة . وكان أيضا مصابا بحاشية خطيرة لا يهمها إلا تعبئة الجيوب بالدراهم والدنانير فنصحوا له بتخفيض مرتبات الموظفين وأخذوا يزجون فى السجن بكل من يجاهر بكلمة حق .

وأدى ذلك الطغيان إلى شل حركة الحجاز نفسها ، فالحج طبعا مورد الحجاز الوحيد فخول لنفسه أن يستولى على دخل الدولة وينفقه فى صالحه الخاص بأن جعل لنفسه رقابة عليا على تجارة الماشية والأغذية والماء ونقل الحجاج من مكة إلى المدينة ، فأمر البدو بأن يبيعوا له الماشية والزاد بثمن بخس ثم يبيعها الملك للحجاج بثمن غال . وفى أوقات القحط ضاعف أثمان تلك الحاجيات وأغلب الحجاج من الطبقات الفقيرة فمات كثيرون منهم جوعا وعطشاً .

وكان يتقاضى مباشرة أجورا غالية للنقل ثم لا يدفع لأصحاب الجمال إلا قيمة زهيدة جدا مما اضطر البدو فى الحجاز لسلب الحجاج ونهبهم وسفك دمائهم . وهو لا يعبأ ولا يهتم بما يقع من الحوادث لأولئك الغرباء المساكين . ولا يستطيع أن يضرب على أيدى العصابات حتى فى مكة نفسها .

وترتب على ذلك قلة عدد الحجاج وضعف موارد البلاد خصوصا وقد

امتنع الانجليز عن دفع المعونة المالية التى كانوا يكافئون بها حسينا على خدماته لهم فى وقت الحرب . فضاعف الملك الضرائب على الحجاج وعلى أهل الحجاز فتذمر الحجازيون جميعا وتذمر خدامه وجنوده وجعلوا يجرحون فى كرامته ويعرضون به ، متذاكرين الأيام التى كانت غنية بتزاحم الحجاج على بيت الله و كثرة النماء واليسر فى البلاد وذلك فى عهد الأتراك . ففى ذلك العهد لم تكن تجبى الضرائب فى مكة أو المدينة .

وساءت سمعة الملك حسين فى الخارج بعد أن تشوهت فى الداخل وانفض من حوله من كانوا يمدونه بكل مساعدة . ووقع فى إشكال مع الحكومة الهولندية بسبب الحجاج من رعاياها . وتشاجر مع المصريين الذين نقدوه نقدا مرا ، واصطدم بالفرنسيين فى سوريا وبالأتراك وبمسلمى الهند .

ومع ذلك كله ظل مصرا على ادعائه أنه «ملك الأقطار العربية» معتقدا أن الله تعالى قد أوحى إليه بذلك ، فجلس فى قصره بمكة ومن حوله حاشية تخادعه وتمالقه وتحول بينه وبين الصواب والحق ، وتوهمه بأن المسلمين فى بقاع الأرض طرا ينظرون إليه نظرتهم للسيد الأعلى والمصلح الأكبر الذى بعث لانقاذهم وأقنعوه بأن العرب جميعا يطلبون حكمه . وأن من الواجب إخضاع الشخصيات الضعيفة أمثال «ابن سعود» .

وفوق ذلك ارتطم بصخرة الانكليز الذين أخلص لهم وطلب إليهم أن ينفذوا جميع وعودهم بأن يعتبروه حاكم الجزيرة كلها ويطردوا الفرنسيين من سوريا واليهود من فلسطين . ولكن هيهات هيهات أن يتقيد الانجليز بوعود أو مواثيق !! إلا أن حسينا تجاهل الحقائق وحرض السوريين والفلسطينيين على الثورة ووعدهم بالوقوف فى صفهم ضد الفرنسيين والانجليز .

فأرسل له الانجليز لورانس ليرده عن غيه قائلين له : إنه وقع معاهدة فرساى

وقبل تحكيمهم فى مصير البلاد العربية ووعدوه بالمساعدة ضد منافسيه أمثال «ابن سعود» .

ولكنه طلب من الانجليز رفع وصايتهم عن العراق التى يحكمها ولده وخشى أن يفرض الانجليز على الحجاز مثل تلك الوصاية . وقال : إنى أفضل أن يحكم الملعون «ابن سعود» بلاد العرب عن أن يوضع على عنقها نير الانجليز .

على أن الانجليز فى سنة ١٩٢٣ حاولوا الاتفاق معه ولكنه تعصب لأفكاره ففرح الانكليز بأن أتاح لهم الفرصة لينفضوا أيديهم منه . وكانت انكلترا فى ذاك الوقت مصابة بمشاغل جمة بسبب ما أحدثته الحرب من رد فعل عنيف فى بريطانيا نفسها فكثرت الأزمات الاقتصادية والسياسية ووقعت منازعات كثيرة بين الانكليز والفرنسيين ، وثارت إيرلندا الفتاة تنشد الحرية والاستقلال ، كما ثارت الهند ، واضطربت الأمور فى أفغانستان . ونشط المصريون لتخليص بلادهم فى مصر والسودان من الظلم الشائن من الاستعمار البريطانى الذى جردهم من مظاهر الحياة الانسانية ، كما ثارت العراق . وهدد الترك بريطانيا بالزحف على الموصل لاسترجاعها .

وفى انكلترا نفسها ندد الناس بسياسة الحكومة التى قذفت بأبنائهم فى الجيوش التى أرسلتها إلى بلاد العرب المقفرة . وشعر الشعب البريطانى بأنه يضحى كثيرا إذ تقيم حكومته حصونها وقلاعها فى بلاد نائية كمصر والعراق ورأى أن الأحرى ترك هذه البلاد لادارة أهلها .

واستعد «ابن سعود» فى تلك الظروف لمباغتة حسين ، فسافر فيصل فى صيف سنة ١٩٢٣ إلى شرق الأردن لزيارة أخيه عبد الله . وحاول فيصل وعبد الله أن يعيدا والدهما إلى رشده وأن يقنعاه بوجوب الانضواء تحت لواء الانجليز وكسب رضاهم ولكنه رفض نصيحة ولديه ، فلما

طلبا من الانجليز إيقاف «ابن سعود» عند حده احتج الانجليز على تصرفات الملك حسين السيئة ، وقالوا «إننا حلفاء حسين ، وابن سعود على السواء . فاذا اختلفا يجب أن يواجها المصاعب وحدهما ولن نتدخل فى حل مشاكلهما لأنهما حاكمان مستقلان»

فلما أن استعد «ابن سعود» أخذ يناضل حسيناً فيثير ضده الأحقاد فى الحجاز نفسها ويمنع عنه المدد من الخارج ، وأرسل مبشريه إلى قبائل حرب وعتيبة وإلى الحجاز يسعون لهذا الغرض ، واتصل بالفرنسيين وصادق المسلمين من مصر والهند وأوقع العقوبة الصارمة بكل رجل من أتباعه يعتدى على العراق أو شرق الأردن حتى لا يجد الانكليز سبباً يستندون عليه فى الشكاية منه ، واحتاط من كل ناحية .

فسقط حسين فى أيديه وفى سنة ١٩٢٤ زار ولده عبد الله فى شرق الأردن معتبرا ذلك الاقليم جزءاً من أملاكه يحرسه ولده عبد الله . وفى الثالث من شهر مارس فى تلك السنة ألغى الأتراك الخلافة وسحبوا الخليفة من القسطنطينية وبعدها بثلاثة أيام أعلن حسين نفسه خليفة للاسلام وأذاع هذا الخبر فى أنحاء العالم .

فانفجرت قنابل الغضب وثارت الزوبعة فى كل جانب من جوانب الاسلام وهنا سنحت الفرصة التى بات «ابن سعود» فى انتظارها وكان على أتم استعداد للاستفادة بها .

نعم إنها كانت أمنية له منذ حداثته فقد كان يشعر أنه يحمل رسالة للعالم الاسلامى فوضع نظام الاخوان ليكونوا عدته فى تطهير أخلاق العرب ، وتوحيد صفوفهم و إيجاد امبراطورية إسلامية مترامية تحمى ذمار الاسلام .

ولكن أعداءه ادعوا بأنه يتخذ الدين وسيلة لقضاء مآربه السياسية وحتى

علماء الرياض كانوا يتشككون فى دعوته الدينية مع امتثاله الشديد لأوامر الله وسنة رسوله .

والواقع أن «ابن سعود» ولد مشبعا بروح دينى شديد الغيرة . وله ضمير يخاف الله فى السر والعلن . وذلك لأن والده رحمه الله قد أحسن تربيته وغذاه بتقوى الله ، فلا تعارض بين قوة إيمانه ومطامحه السياسية . وقد قال : إنى مسلم أولا وعربى بعد ذلك وإنى عبد الله ما دمت حياً . ولذلك كان حكمه بأمر الله وقد سعى إلى الجاه والقوة ليرفع لواء الدين .

ومهما ندد به حساده، ومهما رموه بالشدة فانه رغم غيرته الملتهبة لا يحكم الناس بالقوة والعنف بل كما قال : يحكمهم باللين وإذا لم ينفع اللين فبالسيف .

ذلك الرجل الذى لا يعرف التعصب ولا يعرف الغطرسة والجمود ذلك الرجل البعيد النظر لا يمكن أن يكون جباناً فقد طلب الدويش منه ذات مرة أن يعلن الجهاد الدينى ضد الانجليز ولكن رأى أن محاربة الانكليز فى تلك الظروف غير مأمونة العواقب وقد رأى الدويش بعينى رأسه ماحاق بأولئك الذين غزوا طريب .

وكذلك طلب منه الوهابيون فى الرياض أن يقطع علاقاته مع الأجانب ولكنه رأى أن تلك العلاقات ضرورية فى تنفيذ برنامجه فضرب برأيهم عرض الحائط لأنه لا يسترشد بهم إلا فى أمور الدين ولكن فى المسائل الحربية والساسية التى لا يفقهون فيها شيئا ولا يعلمون ، لا يعتد بهم، وإلا لو ترك لهم مجال القول والشورى فى السياسة وفنون الحرب لقضى على كيان ملكه .

على أن نزعاته الدينية وأطماعه السياسية حملته على محاربة حسين الذى يقف حجر عثرة فى سبيل الرقى والاصلاح والذى لا يصلح لحماية البقاع المقدسة والذى حرم عدداً كبيرا من فقراء المسلمين من حج بيت الله بسبب اسفافه

وجشعه وسوء تصرفه وفساد ادارته .

فكان الدافع الدينى الذى حمل «ابن سعود» على محاربه حسين أقوى من حب السيطرة والسلطان . ولكن فى هذه الظروف لاحت له فرصة للخلاص من عدوه القديم والاستيلاء على الأراضى المقدسة وتطهيرها ومع ذلك يسير ببطء نحو غايته . على أن الحجاز قطر صحراوى ليست له ثروة طبيعية ومياهه قليلة ، ومدنه وقراه قليلة أيضاً والبدو يكونون السواد الأعظم من سكانه وهم جهال متأخرون ومع ما لذلك الاقليم من موانىء على البحر الأحمر إلا أنه بلد فقير فى تجارته .

ولكن من الناحية الروحية يعتبر الحجاز ملتقى لمئات الملايين من مسلمى العالم وهو الوطن المقدس الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . وكل مسلم يتمنى أن يؤدى فريضة الحج ولو مرة واحدة قبل موته . كل ذلك يقدره «ابن سعود» الذى رأى قوة السيف والنار قابضة على الحجاز ولكنه وجد أن حكم الحجاز بغير موافقة المسلمين عبث فأخذ يرتب خطواته وبرنامجه بكل تؤدة وثبات . وأنذر حسينا جهارا قائلا له : انه لن يعترف به خليفة إلا إذا اختاره المسلمون جميعا ثم دعا إلى مؤتمر من الوهابيين وقادة الاخوان فى الرياض لأنه فى حاجة قصوى لمعونة شعبه . وقد عقد المؤتمر فى الخلاء فى بيت والده عبد الرحمن .

وكان عبد الرحمن قد تقدم فى العمر ولكنه ظل مستجمعا لقواه الفكرية فجلس إلى جواره العلماء وجلس «ابن سعود» شخصيا معهم كفرد عادى منهم فاقترح العلماء والمشايخ محاربة حسين وحملوا عليه حملة شعواء لأن الوهابيين ظلوا فى زمن حكمه عامين لا يستطيعون أن يؤدوا فريضة الحج فتحفزوا للجهاد لاسيما وأن الاخوان كانوا يشرئبون للحرب .

ولم يتحدث «ابن سعود» فى الموضوع بصفة مباشرة . ولكنه تدخل حينما أعلن المؤتمر وجوب العمل السريع ، فنصحهم بالسير ببطء وإمعان مخافة أن تصادمهم صعاب من ناحية الدول الأجنبية وأنه يلزمهم قبل الحرب أن يستدروا عطف سائر إخوانهم المسلمين .

ولكن الوهابيين لم ينصتوا لهذا الرأى لأنهم يعتقدون أن المسلم الصادق يجب أن يكون وهابيا مثلهم . وأنهم يخضعون لضمائرهم ويعتمدون على قوة شخصية زعيمهم «ابن سعود» .

وقد أرسل المؤتمر رسالة دورية إلى أقطار العالم الاسلامية فيها تفصيلات لأخطاء حسين ومظالمه وآثامه وتصرفه مع الحجاج وعرقلته السبيل إلى بيت الله الحرام وأبانوا كيف أن حسينا اغتصب لقب الخلافة بغير حق ، وطلبوا من المسلمين أن يسمحوا لأهل نجد بالزحف على الحجاز لاسقاط حسين بمجرد انتهاء موسم الحج ، والرسالة وقعها فيصل النجل الثانى لابن سعود ، ولم يظهر فيها أى إشارة «لابن سعود» نفسه لأنه تعود حتى فى تقدمه أن يترك الباب مفتوحا إلى آخر لحظة للرجوع حتى إذا ما سار فى طريق خطأ يغيره بسرعة فقرر بأن الرسالة يجب أن تأتى عن طريق المؤتمر ويظل هو بعيدا ، فاذا ظهر ثمة خطأ تحمل أعضاء المؤتمر مسؤليته وتكون له الحرية فى إصلاحه .

ولكن مما يؤسف له أن البلاد الاسلامية فى ذلك الوقت كانت متنافرة مضطربة بالقلاقل والمنازعات والخصومات فلم تصادف الرسالة نجاحها المنتظر خصوصا وأن الوهابيين فى ذلك الوقت كانوا مكروهين لدى الكثيرين فوردت بعض إجابات غامضة فيما عدا زعماء الستين مليون مسلم فى الهند فانهم أرسلوا ردا حماسيا معلنين موافقتهم «لابن سعود» الذى يعتبر بطلا فى نظرهم .

فاصبح موقف حسين شاذاً مهددا عرشه بالسقوط إذ تألب عليه الانجليز

وغضبت عليه الرعية وتفشت القلاقل والفتن . ومع ذلك يخطو «ابن سعود» بكل تؤدة واحتياط مع أن مستشاريه — وعلى رأسهم الشيخ حافظ وهبة ذلك المصرى الذائع الصيت — نصحوا له بالتعجل فى العمل «وابن سعود» يثق فى الشيخ حافظ وهبة كثيرا ، ومع ذلك يتخذ الحيطة التامة .

ومع أن له مجلسا خاصا ينظر فى الأمر وضع لنفسه خطة يسير عليها ورأى أن يهجم على مكة عن طريق القرما وترابا ، ومن مكة إلى جدة فيستولى على قلب الحجاز .

ولأنه يريد أن يحول بين حسين وبين المعونة التى يمكن أن تأتيه من ولديه عبد الله وفيصل أرسل صفوفا من الاخوان أحدها إلى حدود العراق ، وآخر على طريق السكة الحديدية بين دمشق والمدينة ، وثالث من حوف إلى شرق الأردن عن طريق وادى سرحان . ثم أرسل شيخ عتيبة ليغزو حدود الحجاز وتحرك لؤى من القرما ليزحف على مكة ويكتشف العقبات فى هذا الطريق .

وتقع الطائف على مقربة من قورما ، وكانت محصنة بقلعة فيها حامية من الجند ومن حولها سور شاهق . وقد أقام أعيان مكة قصورهم فى الطايف حيث يصطافون ومعهم الملك حسين وأسرته .

فى نهاية أغسطس علم لؤى من الأخبار المسائية أن عليا أكبر أولاد الملك حسين حضر إلى الطائف ليقضى حقبة الصيف ، فأبلغ الخبر لشيخ عتيبة ، وهذا الأخير جمع عددا كبيرا من المقاتلين وهاجم بهم الطائف فسقط فى يد على وسقطت معه الحامية وفتحت أبواب الطائف أمام بجاد شيخ عتيبة . فهرول الاخوان إليها من كل حدب وصوب .

وفى الوقت نفسه جمع على كتائبه ووقف بها فى «حادا» وهى واقعة فى

الطريق بين الطائف ومكة . ولكن الاخوان هجموا عليه وسحقوا جيوشه وساروا نحو مكة نفسها .

فوقعت مذابح عنيفة فى الطائف ووقع الرعب فى نفوس أهل مكة جميعا ففر على خلفا إلى أبيه . فاشتد غيظ حسين ورفض مقابلة ولده على ونصحه بالفرار إلى جدة بعيدا عن الخطر، ثم أرسل نداءا حارا لقبائل الحجاز وجمع الناس حوله لينظم المقاومة .

ولكن الشعب الغاضب عليه لايمكن أن يلتف حوله و يدافع عن عرش حاكم ظالم مستبد ، فتخلى عنه شعبه كما تخلى عنه خدمه وجنوده أنفسهم ولم يبق إلا بعض الخدم معه فى القصر . وجاءه وفد يطلب منه التنازل عن الملك لولده «على» كى يجد الوفد سبيلا للمفاوضة مع الغزاة لانقاذ مكة ، ونصحوا له بالفرار بحرا حيث أن الطريق إلى جدة خال من جيوش الأعداء .

ولكن حسينا تمادى فى الغطرسة ولعن هؤلاء الذين نصحوه بالفرار وإنقاذ الموقف وصمم على الحرب للنهاية . وقد اتصل به تليفونيا من جدة أحد أعوانه وموظف كان يثق به واسمه «طويل» وأشار عليه بالتنازل ولكن حسينا لعنه هو الآخر . فقال له طويل: ان الواجب الوطنى يقضى بذلك ، ولكنه ملك لايعرف الوطن ومايجب نحو الوطن ، وفى هذا الموقف الدقيق طار لب الملك حسين وصار كالمجنون .

وقد نصحته زوجته التركية ونصحه أفراد أسرته أن يفر من مكة واحتشدت الجماهير حول القصر معلنة هذه الرغبة هاتفة بسقوطه ، وبعض من كانوا مع الجماهير فكروا فى قتله وسلبه المال الذى اكتنزه واغتصب أكثره ؛ وآخرون كانوا يفكرون فى القبض عليه وتسليمه للعدو .

وأخيرا لم ير بدا من الفرار فتنازل على العرش واستعد للهروب . وكان

فى القصر اثنتا عشرة سيارة ، وتلك كانت جميع سيارات الحجاز استأثر بها حسين لملذاته الخاصة . وبهذه السيارات نقل بضائعه وفرشه وما عنده من ذهب وفضة ومجوهرات ونقل أسرته أيضا ، وسار فى حراسة من بقى معه من الجند وفر بهم مخترقا الهضاب إلى جدة .

وبعد أسبوع قضاه فى جدة حمله « يخته » الخاص بكل ما معه من أمتعة وأفراد ؛ وخصوصا صناديق الذهب الذى أخذه رشوة من الانكليز . ثم أبحر من العقبة إلى جزيرة قبرص .

وبذلك زالت دولة الظلم ليحل العدل محله، وبذلك تهشم عرش رجل جبار عنيد دفعته شهواته وأطاعه لبيع حقوق وطنه للانكليز بدراهم معدودات فلتكن لنا من ذلك عبرة ولنتفكر فى قوله تعالى «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» .

الفصل السابع عشر

«ابن سعود» ملك الحجاز ونجد

فرح «ابن سعود» بانتصار الاخوان الذى لم يكن يتوقعه لأنه حتى اللحظة الأخيرة كان يخشى من أصبع السياسة البريطانية ومن تذرع الانجليز بحماية الملك حسين وكان يظن أن الحرب تستمر طويلا ، ولكن عدوه سقط بسرعة مدهشة ومع ذلك السقوط الشائن لم يلق حسين عطفا يذكر من أهل الحجاز وقد عاد ولده على إلى مكة لينظم المقاومة ولكنه فشل خصوصا وأنه لم يكن رجل عراك ومحاربة ، وفى أول الأمر استغاث بالانجليز وطلب منهم بعض الطيارات وقليلا من المال والأسلحة ، وأن يتدخلوا لايقاف «ابن سعود» عند حده ، ولكن الانكليز أجابوا بأن مثل هذا التدخل يعتبر تدخلا دينيا الأمر الذى يتنافى مع مبادئهم ، والحقيقة أنهم شعروا بعد انتصار الاخوان بقوة «ابن سعود» التى تتحطم ألاعيبهم على صخرتها .

فلما خاب أمل على من ناحية الانكليز تحول إلى «ابن سعود» نفسه وطلب مهادنته ليتفاوض معه فى الصلح ، فرفض «ابن سعود» المفاوضة قائلا بأن ذلك محال طالما كان هناك أفراد من أسرة حسين مقيمين فى الحجاز وأمر رجاله بالزحف إلى الأمام للقضاء على الاضطرابات التى نشبت فى الطائف .

وقد رابط على فى جدة ومعه رجال قليلون ورتب طريقا للفرار من البحر بمعونة قنصل انجلترا إذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك ، وكانت مكة صامتة هادئة وحوانيتها مغلقة ، لأن الناس مختبئون مخافة بطش الاخوان . وقد زحف عليها لؤى ومعه ألفان من الجند فى أزياء حجاج مدججين بالسلاح وذلك لارغام أهل مكة بالقوة على اعتناق مذهب الوهابيين فقبض رجاله على

سكان مكة الوادعين وحطموا النقوش من المساجد ودمروا القباب . ومن مكة انتقلوا إلى باقى البلاد فأذعن لهم جميع العرب من بدو وحضر ، اللهم إلا بعض القبائل أبت التسليم كما ظلت أبواب جدة وينبع مغلقة فى وجوه الوهابيين وفيما عدا ذلك صار «ابن سعود» سيد الحجاز .

وقد عقد اجتماعا حافلا فى الرياض وأعلن عن غزواته فى كل البلاد وانه قبض على أزمة المدن المقدسة برضاء الجميع وكتب يقول : الآن وقد زال عهد الظلم والاستبداد أصبحت أمنيتنا العظمى أن نفتح أبواب البلاد المقدسة لجميع المسلمين حتى يضعوا لها نظاما مقررة . وسنذهب نحن شخصيا إلى مكة ونرجو من اخواننا المسلمين أن يفوضوا من قبلهم ممثلين لهم يتباحثون معنا .

وقد عين ولده الأكبر حاكما من قبله فى الرياض ثم جمع حوله الزعماء والعلماء والأشراف وقواد الجيش والوزراء وخرج بهم من الرياض وهو راكب جمله الأصفر ومن ورائه فيالق الاخوان . وصار يطء مخترقا هضبة نجد مشتقا طريقه بين جبالها ومراعيها إلى أن وصل الحجاز .

وكان قد سبقه اليها كبير مستشاريه السيد حافظ وهبه والدملوجى سكرتير «ابن سعود» ليمهدا السبيل لاستقباله ، وقد دخل «ابن سعود» تلك البلاد لا بمظهر الفاتح المنتصر ، ولكن دخلها كرجل عادى يحج بيت الله الحرام فخلع سيفه وملابس الملك ثم ارتدى ملابس الحج البيضاء وركب جواده واخترق جبل عرفات وجعل يرتل التلبية إلى أن وصل مكة (لبيك اللهم لبيك — الخ)

ومشى فى مكة حافيا يطء يحيط به الاخوان وأهل مكة الى أن دخل الكعبة وأدى الفريضة واعتمر

فتح «ابن سعود» هذه البلاد باعتبارها كعبة المسلمين كى يتيسر له أن ينشر مبادئه ويؤسس امبراطورية عربية ، ومن أجل ذلك أراد أن يستعين

بسائر المسلمين باعتبارهم شركاء فى النتيجة التى يصل اليها وكان على أتم استعداد ليشركهم معه فى إدارة تلك البلاد فدعاهم الى مكة ليتشاور معهم فى الأمر. قائلا إنه قد يترك وضع نظام الحكم وتعيين الحاكم لمحض تفكيرهم وقد كان صادقا فيما يقول إلا أنه لم يوفق لأنه أراد أن يجعل الغلبة فى البلاد المقدسة للوهابيين لأنه رجل صاحب عقيدة ، صاحب مبدأ .

ولم يرتسم له خطة معينة وإنما اشتغل بحيطة مدققا فى كل خطوة من خطواته باحثا عما يعترضه من صعاب ، ولا شك أنها صعاب جمة تختلف عما كان يلقاه فى بلاد نجد ، لأنه فى نجد مهما فعل لا يهم العالم كثيرا بل هو فى هضبة منعزلة ، أما فى بلاد الحجاز فانه متصل بالعالم كله وسياسته تعتبر جزءا من سياسة العالم .

لذلك كان مدققا فأقام فى أول الأمر حكومة مؤقتة ، ولما كان الحجاز فى حالة حرب أعلن احتلالا عسكريا وعين هيئة تشرف على النظام وتنفذ أوامره وجعل ولده الثانى فيصل رئيسا لها واختار أعضاءها من أشراف مكة والحجاز وجعل حافظ وهبة فى وظيفة محافظ لمكة لأن حافظ وهبة معروف بحكمته فيستطيع أن يوفق بين الشيع المختلفة . وأقام حصاراً يشمل جدة وينبع والمدينة .

وهنا بدأت العراقيل لأن المسلمين فى البلاد الأخرى لا سيما الشيعة فى العجم والعراق لم يرضهم حاكم وهابى فى الحجاز ظانين أن هذا الحاكم قد يتعصب لمبدئه فلا يسهل عليهم أداء فريضة الحج ، خصوصا وأن الوهابيين كما ذكرنا فى الفصل الأول من الكتاب قد أذاقوهم الويل يوما ما .

لم يثر «ابن سعود» لسخط هؤلاء ، بل جعل يفكر فى هدوء مصغيا إليهم كل الاصغاء يتلقى المشاكل ليحلها بمهارة نادرة مع أنه لم يتعلم ولم يتفقه فى علوم

السياسة بل حذق كل شيء بالتجربة فى بلاد صحراوية . والغريب جدا أنه كان يهتم بالسياسة العالمية والمشاكل الدولية . فيقرأ الصحف العربية يوميا فعرف منها الكثير مع أنه لم يرحل خارج جزيرة العرب . وذلك الرجل موفق لأنه لا يغضب لأى نقد يوجه إليه بل يدرسه ويزنه ليصل إلى الكمال . وبهذه الطريقة اكتسب خصومه إلى جانبه .

وسط هذه المشاكل كلها جاءه وفد انجليزى على رأسه السير جلبرت كلايتون ، لأن الانكليز أذهلهم سقوط الملك حسين بمثل تلك السرعة ، وكانوا يظنون أن الحرب تستمر طويلا فيضعف المتحاربان ولكن خاب ظنهم فلم يروا بدا من الاتفاق مع الفاتح العظيم قبل أن يصبح خطرا عليهم . فرابطوا فى العقبة شمالى الحجاز وأعقبوا ذلك بارسال وفدهم .

وضع «ابن سعود» حامياته فى الطريق بين مكة وجدة ، وفى هذه النقطة استقبل السير كلايتون ومن معه ، فجلسوا أمامه فى إحدى خيامه ومن حولهم زعماء العرب ، ومن خارج الخيمة يستمعون أصوات الجند وهرولة الجمال والخيول ؛ لأن فصائل جديدة كانت تفد لتنضم إلى جيش «ابن سعود» «وابن سعود» يستقبل فى خيمته قواد تلك الفرق كما يستقبل موظفيه ويصدر أوامره ، ومع ذلك يؤدى أعماله ولا يمتنع عن التحدث مع ضيوفه فى نفس الوقت .

أرسل «ابن سعود» كتائبه شمالا فى وادى سرحان فأصبح له نطاق حربى بين شرق الأردن والعراق بحيث يفصل البلدين عن بعضهما ويصل إلى حدود البلاد الفرنسية فى سوريا . وذلك العمل عرقل سياسة الانكليز فى تلك البلاد وهم يريدون ألا يقف «ابن سعود» بين مستعمراتهم وألا يحول بينهم وبين أطماعهم فى البحر الأبيض المتوسط . بل يبغون توصيل المستعمرات بالسيارات

والمراكب الجوية ليربطوا بغداد بالهند ولينقلوا الزيوت من الموصل إلى الأسطول الانجليزى الواقف فى مياه فلسطين .

واللعبة الآن فى يد كلايتون الذى جاء ليخدع «ابن سعود» فزعم أن الفرنسيين اتفقوا مع دولته على إخلاء ذلك الطريق الذى وقفت فيه الجيوش السعودية وعلى زحزحة الحدود النجدية من ذلك المكان . وأن اتفاقا بهذا الخصوص وقعته فرنسا وانكلترا ، ومعنى قول كلايتون هذا تهديد لجلالة «ابن سعود» الذى يستطيع بكلمة واحدة أن يحرك شعوبه فتحارب الانجليز والفرنسيين معا . ولكنه كبت حالة الغيظ لأنه يخاف مغبة النتائج السيئة التى تترتب على محاربة دولتين مجتمعتين . خصوصا وأن القوة الكافية غير ميسرة له لأنه خارج من قتال ويريد أن يوطد مركزه أولا ، ويقضى على الاضطرابات الداخلية وعلى الفتن التى تظهر كل يوم فى بلاد الاسلام . ولأن كثيرين من رجاله كانوا قد تعبوا فأرادوا العودة إلى بلادهم للراحة بعد طول الجهاد . فمن العبث أن يخلق أعداء مستجدين ، وأولى له أن يكسب معونة الانكليز فى الظرف الذى علم فيه بأن ولدى الحسين فيصل وعبدالله يريدان محاربته . وأن والدهما يمدهما من أجل ذلك بالمال والذخيرة .

ابتسم «ابن سعود» لكلايتون ابتسامة لانعلم ماانطوت عليه ووافق على سحب قواته وتمكين خصميه فيصل وعبدالله من الاتصال وترك موضوع العقبة معلقا ، وفى نظير ذلك وافق الانكليز على جعله حاكم وادى سرحان وقبائل روالا .

غضب «ابن سعود» لمسلك البريطانيين فأراد أن يضع لنفسه خطة حاسمة لاتقبل التردد ولا تمكن الانجليز من إحراجه وحصره فى نطاق ضيق، ورغب فى إنهاء حالة الغزو والاحتلال فى الحجاز ليحكمه كملك مستقل .

ومثله الأعلى أن يوحد بين سائر المسلمين و يجعلهم جبهة واحدة تشترك معه فى إدارة الحجاز ، ولكن العناصر المضطربة من المسلمين قد خيبت آماله فقد ظل سنة يردد نداءه للمسلمين ويدعوهم إلى بلاده ، ومع ذلك رفضت بعض الدول الاسلامية أن تجيب دعوته، ودول أخرى انتحلت أعذارا كثيرة وكل هؤلاء وهؤلاء أضاعوا الوقت فى الطعن والمشاجرة وسياسة الكلام التى لاطائل تحتها .

ولكن الرجل البدوى الذى اكتسب من الحياة الفطرية علومه السطحية قد اهتدى إلى طريق الحق والخلاص فجعل وحدة الاسلام قبلة آماله ورأى انقسام المسلمين جريمة لأن الانقسام هو الذى قضى على الامم العريقة وأنزلها من كراسى المجد إلى حالات الذل والعبودية . قال تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» وقال أيضا «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وفى خطبة «لابن سعود» مامعناه «إن من كرم الله أن منحنا الوحدة والاسلام ولقد هزم المسلمون إذ تفرقوا ومكن الله منهم الاعداء»

لذلك لما كان الوهابيون يحرضونه على كراهة المسلمين الأجانب الذين لم يضحوا بأموالهم ودمائهم فى تخليص الحجاز من الشريف حسين رفض «ابن سعود» أن يحارب إخوانه فى الدين ، ولولا خوفه من ثورة الوهابيين لأشرك جميع المسلمين معه فى إدارة الحجاز لأنه لم يكن يجاهد لنفسه بل كان يجاهد للاسلام ، وكان الحجازيون يعتبرون أنفسهم أرفع من غيرهم من المسلمين كالهنود الذين أرادوا جعل الحجاز جمهوريه دولية يشتركون فى إدارتها ، فلم يصادف هذا الاقتراح قبولا لدى النجديين أو الحجازيين ولقد قال حجازى إلى أحد رجال الوفد الهندى «إنى أفضل أن يحكمنا عبيد «ابن سعود» الزنوج ولا تحكمونا أنتم أيها الهنود . اذهبوا عنا وأرونا أولا

أنكم تقدرون على تنظيم سفينة فى بمباى قبل أن تفدوا إلينا وتعلمونا كيف نسوس بلادنا .

ورأى «ابن سعود» من واجبه بلا إبطاء أو تردد أن يكون ملكا وبذلك يستطيع أن يقرر العدل والنظام ويحمى الوطن من التدخل الأجنبي وخصوصاً تدخل الدول المسيحية . وقد قال لبعض زائريه : تأكدوا من أمر واحد ، هو أنى لن أدع للأجانب نفوذاً فى بلادى ، وإنى بعون الله سأحافظ على استقلال وطنى ، ولقد صممت بعد أن تبين لى ذلك أنه ما من شعب من شعوب الاسلام يستطيع أن يحافظ على استقلال الحجاز ، فالهنود خاضعون للانكليز والسوريون تستعمرهم فرنسا وهكذا ، فاذا أنا تركت لهم إدارة بلادى فمعنى ذلك أنى أتركها للدول المسيحية تحكمها بواسطة رعاياها . أنا وحدى الذى فتحت هذه البلاد باسم الله ، فتحتها بساعدى الأيمن وباخلاصى ، أنا وحدى الذى أستطيع أن أحكم الحجاز وأن أجعله دولة إسلامية حرة . فمن واجبى وحقى أن أكون ملكا

وأصدر رسالة عامة للمسلمين جاء فيها «أنا لست فى حاجة لأن أنصب نفسى حاكما فى الحجاز أو لأن تكون لى الغلبة عليه ولكن الحجاز أمانة بين يدى ، لذلك سأقبض على زمام السلطة فيه إلى أن ينتخب أهل الحجاز حاكما لهم يعتبر نفسه خادم المسلمين جميعا » ولا شك أن «ابن سعود» هو أصلح الرجال لهذه المهمة .

*
* *

واندفع إلى واجبه بعزم ثابت وإيمان وطيد وقد حاول محاصرة ينبع والمدينة وجدة والاستيلاء عليها ، إذ وفد إلى مكة وقتئذ الدويش ليؤدى فريضة الحج . فحاول الذهاب إلى ينبع ولكن «ابن سعود» أمره بجمع رجاله والعودة إلى بلده حيث أنه لم يعد فى حاجة إليه .

ولكن الدويش تقدم إلى المدينة المنورة وهاجمها من جهة ضعيفة ولم يتورع عن إجراء المذابح ثم أرسل إلى «ابن سعود» يبشره بانتصاره ويطلب منه زيادة فى الأسلحة ، فغضب ابن سعود لهذا التصرف وأرسل له يأمره بالعودة وإلا فانه يتحمل نتائج تصرفاته ويعرض نفسه للانتقام .

وأرسل «ابن سعود» ولده محمداً إلى المدينة المنورة فسلم له سكانها الذين أرادوا مغالبة الدويش للنهاية، وكذلك فعلت ينبع فيما بعد بقليل .

وكان على ولد حسين فى جدة ، وما يزال يلقب نفسه ملك الحجاز ومعه بقية من جيش أبيه وحراسه ومعه أيضا بعض الضباط السوريين والأتراك لحفر الخنادق ونصب القلاع وجهز المراكب الحربية .

ولكنه لم يكن رجل عراك وجهاد وكذلك أعوانه كانوا ضعافا ، فهاجت جدة وماجت بمن فيها من الحجاج الذين فروا خشية الاخوان ، والمياه والأغذية فى جدة وقتئذ كانت غير كافية فتهددوا بالمجاعة والأوبئة ومات الناس نتيجة الحصار الذى أقامه ذلك المجنون المستبد، حتى لم يوجد مكان يسع جثث الموتى وكثر المتسولون الذين يرقدون فى الطرقات حتى يموتوا فتراكمت أجسامهم نساءا ورجالا واكفهر الجو بروائح الموتى، ومن نجوا من الموت طاشت عقولهم من الجوع والظمأ وتحللت أجسامهم فصاروا هياكل من العظم يأكلون لحم الكلاب ويتحاربون من أجل بيضة ، وفوق ذلك تحرقهم الشمس بنارها .

فلما تأهب الاخوان لم يجد «على» من يحارب معه فاتفق على التنازل والرحيل إنقاذا للموقف . وفى باكورة ديسمبر سنة ١٩٢٥ رحل على باخرة انكليزية إلى عدن ، ومن ثم ذهب إلى أخيه فيصل فى بغداد، وبذلك انتهت دولة الشرفاء من جزيرة العرب .

وبعد ذلك بأسبوعين خرج «ابن سعود» من مكة وقابله قناصل الدول

الأجنبية على أبواب المدينة ومعه وزراؤه وحرسه ومن خلفه شعبه يهتف له وهو راكب بملابسه الرسمية، فاخترق المدينة إلى أن وصل منزل رجل يقال له «محمد نسيم» فاستراح فيه وعين الدملوجي حاكما من قبله وأعلن أن الحجاز عن بكرة أبيه يدين له ثم عاد إلى مكة حيث قابله زعماؤها وأخبروه أن الشعب الحجازى قد اختاره ملكا لبلاده .

ودخل «ابن سعود» جدة فى مظهر الفاتح العظيم ليشعر الأوروبيين بقوته ويفهمهم أنه انتصر انتصارا مبينا على المغتصب حسين وقبل أن يكون ملكا على الحجاز بدون حفلة تتويج قانعا بأبسط الشكليات .

فعند باب الصفا ذهب إلى مكان مرتفع فى صباح اليوم الثامن من يناير سنة ١٩٢٦ بملابسه العادية وجلس متلفعا بردائه العربى مصغيا إلى أحد الوعاظ وجاء علية قومه فصافحوه فردا فردا ، ولما انتهوا من ذلك دخل المحراب وصلى شاكرا ربه على ما أعطاه .

وقد احتشدت الجماهير فاخترق الشوارع الكبيرة محوطا بحراسه حتى وصل بيت الحاكم وهناك عين ولده فيصلا . وأذن باطلاق مائة طلقة وطلقة . ومع كل هذه البساطة انتقده كثيرون من الوهابيين .
ولكن ذلك النقد من قبيل الزهد الذى درج عليه الوهابيون ، ومهما يكن من خلاف فان «ابن سعود» كان أبا عذرتها، وابن بجدتها.

الفصل الثامن عشر

«ابن سعود» بطل جزيرة العرب

حادث المحمل المصرى ، ثورة الدويش ، مقابلة «ابن سعود» والملك فيصل

أصبح «ابن سعود» حاكم نجد والحجاز ولكنه رأى أنه مع عدم احتياجه إلى معونة خارجية فى ادارة نجد ، فعلى العكس من ذلك فى الحجاز ، لأن الحجاز محور العالم الاسلامى ، فأرسل من جديد يدعو المسلمين لعقد مؤتمر فى مكة وفى هذه المرة جاؤا متحمسين .

وفى يونيو سنة ١٩٢٦ اجتمعوا فى قاعة فاخرة مشيدة فوق هضبة خارج مكة وكان عددهم حوالى السبعين عضواً من بلاد مختلفة مع أنه لم يحضر مندوبون من قبل فارس أو العراق ثم ان مندوبى : تركيا ، ومصر ، واليمن ، وأفغانستان ، جاؤا متأخرين .

ولما اكتمل عقد الحاضرين قام الملك «ابن سعود» الى المنصة ومن خلفه الشيخ حافظ وهبه وحيا الجالسين ، ثم ترك المنصة وألقى الشيخ حافظ وهبه خطاب جلالة الملك «ابن سعود» ثم خرج «ابن سعود» تاركا للمؤتمر حرية المناقشة .

وقد ظهرت مقاصد «ابن سعود» فى خطابه ولو أن الوفود جاءت مبكرة قبل أن يكون ملكا لتغير مجرى الحديث ، فهو الآن فى حاجة إلى معونة المسلمين ، ولكن ليس معنى ذلك أن يسمح لهم بالتدخل فى إدارة بلاده ، فهو يصغى لنصائحهم ومقترحاتهم ولكنه صاحب الرأى الأعلى فمسألة مركزه وسياسة بلاده وحكم الحجاز كلها أمور متروكة لتصرفه .

وقد سأله أحد المندوبين لماذا جعل نفسه ملكا فأجابه وهو قابض على لحيته : هل يستطيع نفر منكم أن يضمن استقلال الحجاز وحمايته من التدخل الأجنبي ؟ فلما لم يجب أحد من الجالسين ، قال : إذن من واجبي أن أكون ملكا ، فأنا وحدى أستطيع أن أحكم ، وأن أحافظ على حرية البلاد المقدسة

وقد اجتمعت الوفود لتناقش موضوع الحج والادارة الدينية ، وأما الادارة المدنية فهى متروكة «لابن سعود» ولذا قال مخاطبا أعضاء المؤتمر:

«نحن دعوناكم لتدرسوا جميع الأسباب المؤدية إلى جعل البلاد المقدسة المنبع الحقيقى للثقافة الاسلامية ولترشدونا لأمور النظافة والصحة ؛ كى نجعل هذه البلاد أنموذجا للعالم الاسلامى»

فاقترح الأعضاء أن يضعوا برنامجا لمد خط حديدى بين جدة ومكة وقبل «ابن سعود» مقترحهم بكل ارتياح ؛ وقال إنه سينفذ هذا المقترح بنفسه . وقد تطوعوا لجمع اكتتابات باهظة من بلادهم لهذا الغرض على شرط أن يسلم لهم دخل الحج وموارده ، وهم يصرفون ذلك كله فى ترقية الحجاز ولكن «ابن سعود» اعتقد أن ذلك مجرد كلام ، فأظهر لهم استعداده بالموافقة على شرط أن يجمعوا المال أولا ثم يتفاوض معهم فى موارد الحج .

وكانت اجتماعات المؤتمر لا تخلو من الضوضاء والجلبة والمشاجرات العنيفة وليس أدل على الفوضى فيه من أن أحد الأعضاء قام يخطب بالانجليزية مع أن الجميع قرروا أن تكون اللغة العربية لغة المؤتمر ، وطلب أحد الهنود أن يكون للوفد الهندى أغلبية فى الأصوات باعتبار أن مسلمى الهند أكثر عددا من سكان نجد .

وكان موسم الحج فى تلك السنة فى منتصف شهر يونيو ، وقد وصل الحجاج ومن بينهم المحمل المصرى ، وهو من التقاليد المصريه ، وقد ظل ستمائة سنة

منذ عهد الملكة شجرة الدر ، وكانت تعزف موسيقى الجيش الذى يحرس المحمل وبينما المصريون فى طريقهم إلى منى سمع صوت الموسيقى بعض الوهابيين الذين نصبوا خيامهم فوق جبل عرفات ، فقال أحدهم : ان المحمل هو الصنم الذى كان يعبده قدماء المصريين واشمأز آخر لمجرد أنه رأى أحد المصريين يشعل لفافة التبغ وانقض أولئك المتعصبين على الجيش المصرى يقذفونه بالحجارة ولما أن احتشد المعتدون وأصبحوا خطرا طلب منهم رئيس القوة المصرية أن يكفوا عن العدوان فلم يأبهوا لطلبه ، فاضطر لاطلاق النيران فى الهواء ، ولكن من غير جدوى ، فأمر رجاله مرغما أن يلقوا مقذوفاتهم على الظالمين ففعلوا ، وعندئذ حصدت النيران المصرية خمسا وعشرين من العرب ، وأربعين جوادا ، ولا شك أن المصريين أشفقوا باخوانهم العرب وإلا لأفنوا منهم عددا كبيرا ، صاح الوهابيون ووصلت الصيحة إلى كل مكان فهرول النجديون والاخوان لمساعدة مواطنيهم فازداد الجمع ضد المصريين . وكان «ابن سعود» جالسا فى خيمته خارج منى حين سمع صوت المدفع فأرسل ولده فيصلا ليستجلى الأمر وأرسل فيصل إلى أبيه رسالة يستدعيه فى الحال .

فجاء «ابن سعود» على جواده مسرعا ولما وصل منى صاح فى رجاله فانسحبوا ووقفوا خارج الميدان ثم تحول إلى الضابط المصرى قائلا «بأى حق قتلت هؤلاء مع أن فى هذا البلد قانونا وحكومة وأنا الحاكم ، فلو أرسلت لى إشارة لأجبتك ؟» .

أجابه الضابط المصرى «إننى توقفت عن القتل احتراما لجلالتك وإلا لاكتسحت جميع المعتدين» فقال «ابن سعود» وقد كتم غيظه «ليس هذا مجال المفاخرة ، هذا بلد مقدس لا يحل فيه قتل كائن من كان وأما أنتم فضيوف عندنا ونحن ملزمون بحمايتكم وإلا لأجبرناكم على دفع الفداء» ثم عاد إلى

خيمته بعد أن ترك الحراس ومعهم ولده فيصل والشيخ حافظ وهبه لحسم المشاجرة .

أما المؤتمر فقد انتهت جلساته كما بدأت وعادت الوفود بلا نتيجة .

وإذا كان المسلمون قدفشلوا فيما ندبوا إليه فان «ابن سعود» الذى عرفناه جبارا فى ساحة الوغى لم يقصر فى ميدان السلم عن الوصول إلى مراتب الأبطال . فقد خلفت حروبه المتواصلة بلادا مضطربة النظام مفككة موبوءة باللصوص وأنصار الفساد وترك له الملك حسين تركة مثقلة بالديون ، فطريق الحج مثلا لم يكن آمنا بل كان قتل الحجاج وسلبهم أمرا عاديا ، وقد يكون الباعث إليه طمع البدوى فى كسرة عيش أو بضعة قروش .

فجعل «ابن سعود» إقرار السلام وإحلال السكينة نصب عينيه . فأنشأ فى مكة قوة للمحافظة على النظام وانتشر الأخوان يعملون لهذا الغرض فى جميع المدن والقرى بحيث يجوبون تلك البلاد على ظهور الجمال ليل نهار ويضربون على أيدى العابثين بالنظام .

ولجأ الاخوان إلى تنفيذ القانون السماوى ، فمن قتل يقتل ومن سرق تقطع يده وهكذا ولا تأخذهم شفقة فى إقامة حدود الله تعالى واقتفوا آثار المجرمين بعناية نادرة . ونجحوا فيما سعوا إليه إذ ساروا على مبدأ المساواة أمام القانون بين الجميع فلا رشوة ولا محاباة ولا امتياز لعربى على آخر . فاستقرت الأحوال فى زمن وجيز جدا . وقضى على الاجرام واطمأن المسافرون حتى ولو ساروا فرادى . ويقال ان التاجر يستطيع أن يترك حانوته مفتح الأبواب أياما وليالى ثم يعود فيجد تجارته كاملة . وأصبح فى الامكان أن يكتفى باثنين من الجند لحراسة مدينة بأسرها . لأن الحجاز جميعه يخشى بأس مليكه «ابن سعود» .

وفوق ذلك عنى بمسائل الحج وقبل حكمه كان لكثير من القبائل الحق فى جمع ضرائب من الحجاج فأبطل ذلك الفعل ، ونظم وسائل النقل بين مكة والمدينة والبحر وقرر تعريفة معتدلة للجمال والسيارات لايمكن تجاوزها ولذلك كثر الحجاج فى سنة ١٩٢٧ وتجاوز عددهم مائة ألف نسمة .

وقد أنشأ جمعيات فى مكة والمدينة للمحافظة على نظافة الطرقات والعمل على رصف الشوارع وإصلاحها ومكافحة المفاسد الأخلاقية ومنع الترف فلا يسمح بلبس الحرير أو التحلى بالذهب ولا شرب الدخان . كما وأنه يتحتم على كل إنسان الذهاب إلى المسجد لأداء فرائض الصلاة فى حينها ومن تخلف عن ذلك وقع تحت طائلة العقاب .

وقد عين «ابن سعود» ولده الثانى فيصلا رئيسا للهيئة التنفيذية الحاكمة فى الحجاز ، وأنشأ هيئات محلية متفرعة من السلطة التنفيذية فى مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف .

ولكن السلطة كلها مركزة فى يده . فهو حاكم فردى يسيطر على الشعب بشخصيته وعبقريته لا بآلة حكومية قد تصاب بالعطب فيختل دولاب العمل ومع أنه حاكم أوتوقراطى اتسعت مملكته فاحتاج للوزراء والموظفين ليحملوا عنه بعض أعبائه ولم يكن من السهل أن يجد من يصلحون لهذه المهمة من سكان جزيرة العرب فاختار بعضهم من جنسيات إسلامية غير العرب .

ومع اهتمامه بتنظيم الادارة ظلت الشحناء بين نجد والحجاز فاحتقر النجديون أهل الحجاز ، وازدرى الحجازيون سكان نجد . وربما كان ذلك مترتبا على تباين البيئتين ، فالنجديون أميل الى الورع بحكم انقطاعهم عن العالم داخل الصحراء ، وعلى عكسهم الحجازيون لأنهم أكثر اتصالا بالعالم الخارجى وقد انتفع «ابن سعود» بتلك الفوارق بين البلدين فأنشأ وزارة الخارجية فى

مكة ومنها يتصل بدول العالم مع أن السفراء الأجانب يقيمون فى جدة .

والحقيقة أن مكة وجدة أنسب لذلك من الوجهة الجغرافية من الرياض ومن ناحية أخرى يعلم «ابن سعود» أن أهل الرياض ونجد لا يسهل اختلاطهم بالأجانب كما وأن النهضة الغربية لا تروج فى تلك البلاد الجبلية . وهو راغب فى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية بحيث لا يتنافى مايدخله منها فى بلاده مع أصول القرآن وبحيث تكون وظيفته كالمرشح الذى يطهر الماء من الميكروبات الضارة بجسم أمته . ولو أنه بدأ بوضع بذور هذه الأفكار فى بلاد نجد لكان ذلك عبثا ، ولصار إلى ماصار اليه الملك أمان الله فى أفغانستان .

قال لأحد زائريه «إن حكمى مؤسس على القرآن والسنة المحمدية . وكلاهما لا يحرم النهوض والرقى ولا يمنع إدخال الآلات واللاسلكى ولا أى نوع من مستحدثات العصر الحاضر »

ذلك لأن «ابن سعود» رأى بثاقب بصره أن الامبراطورية العربية التى يطمح فيها لا تستطيع أن تقف على قدميها وتجالد خصومها إلا اذا كانت لديها المعدات الكافية . فقال فى خطبة من خطبه : « المسلمون اليوم يتيقظون من غفلتهم . فيجب عليهم أن يقبضوا على الأسلحة التى فى متناول أيديهم وهى على نوعين أولها : الاخلاص والطاعة فى خشوع تام لأوامر الله ، وثانيها الأسلحة المادية كالطيارات والسيارات » .

ومع أنه كان يخشى من البدء بالتجربة فى بلاد نجد إلا أنه أكثر وثوقا بالنجديين فهم أساس قوته ومجده وأما الحجازيون فينظرون إليه كما ينظرون الى فاتح أجنبى . وقد اقتضت حكمته أن يفصل ادارة البلدين فعين ولده سعودا حاكما من قبله فى نجد وإزاء تلك النهضة اعترفت به الدول صاحبة السيادة العالمية ملكا فى الحجاز ونجد ، وكان أسبقها الى ذلك الروسيا فانجلترا ثم فرنسا

وألمانيا وهولندا وغيرها . وأمامصرشقيقة الأمة العربية فانا نرجو أن يوفق الله بينها وبين الأمة السعودية فتعترف حكومتنا ببطل جزيرة العرب .

*
* *

تم «لابن سعود» النصر في ميادين الحرب والاصلاح ولكن عصفت العاصفة فلم تدع السفينة تجرى هادئة . ذلك أن فى أواسط الجزيرة وخصوصا فى نجد تذمرت بعض القبائل ظانة أنه انصرف الى الحجاز .

وكان الدويش قدعاد من المدينة الى قبيلة أرتاويا ومعه رجاله من الاخوان ومن قبائل مطير . وقد أصر على الانتقام من «ابن سعود» . فوجد الفرصة سانحة ووجد للفتنة أنصارا كحثلان أحد رجال قبيلة عجمان ، وبيجاد شيخ قبائل عتيبة ، واتصل الدويش بكل منهما على حدة . خصوصا وأنه يمت اليهما بصلات القرابة والنسب .

وبدأت فتنته بأن أرسلت ارتاويا خطاب احتجاج الى «ابن سعود» قائلة انه يجاهد لارضاء شهواته ومطامعه ولا يجاهد فى سبيل الله . وطلبوا منه أن يكف عن إدخال المخترعات العلمية فى الحجاز .

فأسرع «ابن سعود» بالعودة الى الرياض . ليقضى على الفتنة ويقتلع جذورها وقد اعتقد أنه لا ينتظر الوصول الى ترضية مع حثلان لما بينهما من علاقات شديدة التوتر ، وأما بيجاد فهو رجل صلب الرأى غبي ولكنه أمين ذو مبدأ — على عكس الدويش — ورأى «ابن سعود» انه لا يمكن التغلب على الدويش قبل عزله عن قبائل العرب .

فأرسل إجابة رقيقة العبارة ردا على خطاب الاحتجاج . قائلا ان الأمور كلها ستقرر بعد أن يوافق عليها مجلس من العلماء .

فأرسل الدويش يطلب حثلان وبيجاد من جديد وحثهما على مقاومة

تلك الفكرة التى عرضها «ابن سعود» وقال لهما : ان «ابن سعود» قد اتفق مع العراقيين واتفق مع الانجليز على إنشاء خط حديدى بين مكة وبغداد و بذلك سيقضى على الحرية فى الصحراء وأنه سيسلم نصف نجد للانجليز ليحكموها كما حكموا العراق .

فاستدعى «ابن سعود» الدويش الى الرياض ليناقش العلماء . فحضر الدويش على غير رغبته ومعه ثلثمائة مقاتل من رجاله . ولما دخل على «ابن سعود» قابله ومن ورائه أولئك الرجال مدججين بالسلاح .

فكان استحضاره للمقاتلين أوضح دليل على سوء نيته واضطرب فعلا خوفا من «ابن سعود» ولكنه تمسك بخبثه وطلب من «ابن سعود» أن يعلن على العراق حربا دينية وأن يقضى على التجديدات التى أدخلها فى الحجاز .

و «ابن سعود» رجل تعود الهدوء والثبات فلم يعبأ وكان مقلا فى كلامه وقد طغت شخصيته على شخصية الماثل أمامه فأماتتها ، وعندئذ دعى العلماء وطلب من الدويش والاخوان أن يشرحوا شكايتهم .

فقرر العلماء وجوب إلغاء الضرائب وتقوية المذهب الوهابى فى الحجاز . أما مسألة استعمال التليفون وما شابهه فقد رأوا أنه لم يرد نص بذلك فيتركون الأمر «لابن سعود» مستصوبين عدم استعمال أمثال تلك الأشياء وأما الحرب مع العراق فقد تركوها «لابن سعود» أيضا ، وأجابهم «ابن سعود» الى طلباتهم ماعدا اعلان الحرب الدينية .

فعاد الدويش إلى تحريض القبائل ضده . ولكن تحايل «ابن سعود» حتى أحبط مساعى الدويش مستخدما خصوم الدويش ضده وكذلك أثار ضده العلماء فأصدروا أمرهم للمسلمين بعدم الانصياع لنصيحة الدويش ، وبذا أصبح محل تشكك عند الجميع .

وجعل «ابن سعود» يكافحه بكل وسيلة ، وفى تلك الأثناء وقعت بعض الاضطرابات فى الحدود بين نجد والعراق بسبب قبيلة مطير .

وتفصيل ذلك أن «ابن سعود» بمقتضى معاهدة عقير كان قد اتفق مع كوكس على وجوب إيجاد حد بين العراق ونجد ، ليحفظ حقوق النجديين فى المراعى والآبار . وفى أواخر سنة ١٩٢٩ أرسل فيصل العراق — بعدموافقة الانجليز — جماعة من قبله إلى آبار «بوساية» لايجاد نقطة بوليس هناك .

وكانت مطير ذات يوم ترعى الكلأ فى تلك الجهةتحت رئاسة أحد أولاد الدويش ، فتشاحنت مع العراقيين وقتلت بعضهم ، وماأسرع الانجليزللتدخل فى مثل تلك الحالة ـ فأرسلوا الطيارات من بغداد واكتسحوا مطير .

فأرسل الدويش عددا آخر من مطير للهجوم على الكويت وهجم بنفسه ست مرات على العراق . وفى كل مرة يصطدم بالانجليز فيلقون القنابل على القرى الخاضعة له .

فأرسل الدويش إلى القبائل يستعين بها ضد الانجليز والعراقيين فلبت كل القبائل القاطنةفى عرض الصحراء نداءه .

فهجم على العراق ومعه ألفان من خيرة المحاربين وقتل كل من صادفه من العراقيين وخرب القرى وقطع النخيل ولم يترك فى طريقه شيئا حيا . فتعقبه الانجليز بطائراتهم يبحثون عنه وعن رجاله ، وفى سبيل ذلك غزوا بعض قرى نجد ، فأرسل الدويش رسالة إلى الكويت يهدد بالهجوم إن لم تفتح أمامه الميناء ، فاستغاث أهل الكويت بالانجليز وأغلقوا أبوابهم ، فأرسل الانجليز فرقة لتكمن له فى الميناء وقدساد الهلع والخوف من الدويش فى قلوب العراقيين .

وكان «ابن سعود» وقت ذلك فى الرياض وقد وصلته الأخبار ، فرأى وجوب العمل على حل الاشكال بسرعة والا خرجت نجد عن طاعته . فاما

أن يكبح جماح رعيته وإما أن يقع فى حرب مع الانكليز، وعندئذ تسنح الفرصة للدويش ليتشفى فى «ابن سعود» .

فأرسل احتجاجا إلى الانجليز فى بغداد وطلب عقد مؤتمر بسرعة وأرسل رسله إلى القبائل يأمر البعض ويقنع البعض الآخر . وكان بيجاد على وشك الدخول فى الميدان ومعه ثلاثة آلاف فأقنعه «ابن سعود» بالتريث ريثما يتخاطب مع الانجليز . أما الدويش الملعون فانه لما رأى العرب يصيخون لرجلهم «ابن سعود» تبعهم وأمر مطيرا بالتوقف عن القتال والسلب .

وأرسل الانجليز السير جلبرت كلايتون إلى جدة حيث قابل «ابن سعود» وقد استمر التفاهم بين كلايتون و «ابن سعود» خلال ربيع سنة ١٩٢٨ وأخيرا اتفق الطرفان . ولكن كان الموقف حرجا لأن العراقيين استمروا فى وضع نقط بوليس «وابن سعود» لايسمح باخلاء السبيل ، ففشل الاتفاق وعادت الطائرات الانجليزية إلى سماء نجد، فتحفز العرب وطلبوا من يقودهم إلى الميدان وأطلق الدويش رجاله يبلغون العرب بأن «ابن سعود» على اتفاق مع الانجليز . وأنه يخاف الكفار، والأولى لهم أن يحاربوا بغيره لحماية دين الله . فطلب العلماء حربا دينية .

وشبت القلاقل فى الحجاز أيضا ، بأن قالت قبيلة حرب إن «ابن سعود» ألغى حقوق البدو فى موسم الحج ، وان حسينا كان يعطيهم سنويا معونة تكفيهم وتفشت الفتنة وقتلوا بعض الحجاج وضرب «ابن سعود» على ايديهم فأرسل الدويش رسل السوء من قبله إليهم .

وفى شرق الأردن شمالا كان عبد الله يغلى غيظا ويقسم انه سيكتسح «ابن سعود» من الحجاز ويعيد والده حسينا إلى عرشه أو يحكم هو الحجاز بنفسه ، فأرسل أناسا من قبله إلى أخيه فيصل فى بغداد محملين بالأموال والوعود .

وبدأت القلاقل فعلا من هذه الناحية وبدأت حركة ابن رفادة .

وبدأ أهل الحجاز يتمنون عودة حكم الملك حسين ، لأنهم فى عهده كانوا يسرقون أموال الحجاج ولكن «ابن سعود» لا يأذن لهم بذلك، ثم إنهم كانوا قبل ذلك يتهاونون فى أمر دينهم كما يشاءون ولكن الحكم الوهابى أوقفهم عند حدهم وقد حرم «ابن سعود» عليهم الاجتماع وحرم الطعن فى الوهابيين وطرد ستة عشر من الزعماء المتمردين .

وكذلك جاء الاضطراب من ناحية الامام يحيى الذى أراد أن يقنص الفرصة ليتقدم فى عسير . وقد عقد اتفاقا مع ايطاليا التى ترمى الآن إلى خلق مستعمرات لها فى البحر الأحمر وإلى اغتصاب اليمن نفسها .

ولكن أشد تلك المصاعب خطراً على «ابن سعود» كان من ناحية أهل نجد أنفسهم ، لذلك اهتم بهذه الناحية قبل غيرها فدعا القبائل لتفويض مندوبين لعقد اجتماع حافل فى الرياض .

وعقد الاجتماع فى خريف سنة ١٩٢٨ فى فناء قصر الرياض . وحضره العلماء والأمراء والحكام وآل بيت سعود والنبلاء والزعماء والضباط والأعيان من كل فريق . وقد واجه «ابن سعود» تلك الألوف وهو جالس على سلم القصر . ولم يكن قد حضر بيجاد ولا الدويش ولا حثلان . ولكن بين الحاضرين من جاءوا ليحملوا عليه لكثرة ماسمعوا عنه من أخبار سيئة .

وهنا تظهر عبقريته ويتجلى ذكاؤه السياسى النادر ، فقد جابه الجمع كله ومن بينهم العصاة والمتمردون وحياهم تحية الحاكم لشعبه ، وكانوا فى اجتماعهم متمتعين بحرية النقد التى لا يكاد يتمتع بها أعضاء المجالس النيابية فى أرقى الأمم . وطلب هو من الحاضرين أن يعبروا عن أفكارهم كما يشاءون قائلا فى خطبته : إن القوة لله جميعاً ، وستذكرون أنى حين جئت إليكم وجدتكم

منقسمين على أنفسكم تتقاتلون وتتباغضون ، ولقد خدعكم ولاة أموركم سواء من العرب أو غيرهم ، وبذروا بذور الخلاف فيكم فأصبحتم متنافرين لا قوة لكم ولا مقام . عندما جئتكم كنت ضعيفاً لا قوة لى إلا بالله لأنه لم يكن معى أكثر من أربعين رجل كما تعلمون جميعاً ، ومع ذلك جعلت منكم شعباً واحداً شعباً عظيما .

وإنى ما دعوتكم إلى هنا خوفا من أى رجل كان ، فقد وقفت وحدى فيما مضى ولم يكن لى عون إلا الله . وما أخافنى جيوش أعدائى لأن الله كان يمدنى بنصر من عنده ، ولكن دعوتكم إلى هنا خوفا من الله ومخافة أن أقترف إثم الغرور والكبرياء .

وقد سمعت أن بعضكم غاضب علىّ وعلى ولاتى وأمرائى ... وإنى ليسرنى أن أعرف ما يغضبكم حتى أصلح من واجبى نحوكم وأبرىء نفسى أمام الله .

لكن إذا كان فيكم من عنده سبب وجيه للغضب علىّ فقدور الآن فيما بينكم إذا ما كنتم فى حاجة إلىّ لأقودكم أو أنكم تريدون إحلال آخر محلى أننى لا أخلع سلطتى لفرد يجبرنى على التسليم أو ينتزعها منى قسرا ولكنى أسلمها إليكم بمحض إرادتى لأنى لا أقبل أن أحكم أمة لا ترغب فى حكمى.

أمامكم هنا أفراد أسرتى فتخيروا نفرا منهم ، وإنى سأعاون باخلاص من يقع اختياركم عليه وأقسم لكم أن من يتكلم ضدى فى هذا الصدد لن يناله منى الآن أو فى المستقبل عقاب .

وبينا هو ينتظر جوابا صاح أحد المجتمعين وردد الجمع صيحته «لقد اتفقنا جميعا على ألا يحكمنا سواك .

فقال لهم : إذن إذا كان لدى أحدكم - سواء فيما يختص بأمور الدنيا أو الآخرة - شكاية منى شخصيا أو ادعاء أو نقد يريد توجيهه إلى فليتكلم جهارا ، وإنى أقسم

له بالله أنه فى حل من ذلك ولن يصيبه منى أذى أو توبيخ وإذا كان نقده معقولا فسآخذ برأيه وألزم حدود القانون .

فهيا تكلموا ياأبناء شعبي وقولوا ماتنطوى عليه قلوبكم وقصوا ماسمعتموه عن حاكمكم من انتقاد وما سمعتموه عن موظفيه الذى يعتبر مسئولا عنهم .

وأنتم أيها العلماء تكلموا فانكم ستشهدون علينا أمام الله يوم الحساب تكلموا ولايهمكم كائن من كان صغيرا أو كبيرا[١]

أين دعاة الديموقراطية جميعافى مشارق الأرض ومغاربها لأردد فى آذانهم هذا الخطاب ؟ أين ساسة الأمم الحرة ليدرسوه ويحللوا صاحبه ويعرفوا كيف تساس الجماهير وتحكم الأمم ؟ فليقرأ وزراء العالم ، فليقرأ الملوك فليقرأ الناس جميعا ، فان كلام هذا البدوى الذى لم يتخرج من السوربون ولا من اكسفورد ولا من مدرسة أولية . فى مثل تلك الساعة ، ومثل ذاك الجمع الحاشد يصح أن يكون درسا للحكام على مدى الأجيال .

لقد سمع الحاضرون كلمات مليكهم الذى جعل نفسه فردا منهم فتناقشوا فى شتى الأمور فى جو من الحرية الكاملة وطرحوا جميع التهم الموجهة إليه على بساط البحث واستمروا فى ذلك بضعة أيام . يحضر الملك أمامهم فيوجهون إليه الأسئلة ويجيبهم على كل سؤال بايضاحات وأدلة مقنعة ، وحين التشكك يحتكمون إلى العلماء — وأخيرا حكموا ببراءته ونزاهته ، وأنه خير رجل لسعادة الجزيرة العربية .

ولما سمع الدويش بذلك تأهب للعبث من جديد ، فجعل يجمع حوله الألوف من الجهال ، تارة يهاجم بهم العراق ، وتارة يحاول جمع الضرائب من

---

(١) ترجمنا هذا الخطاب من الانكليزية من كتاب «آرمسترونج» صفحة ٢٧٥ ولا شك أنه أكثر روعة فى أسلوبه الاصلى الذي لم نوفق للعثور عليه .

قرى نجد ، وأخيرا اضطر «ابن سعود» لمحاربته فأرسل حافظ وهبة لمفاوضة الانكليز وتفرغ هو للقضاء على الدويش فجمع له خمسة عشر ألفا ، وكانت أغلبية العرب مع «ابن سعود» ضد الدويش .

وقد استطاعت جيوش « ابن سعود » تحت قيادة أخيه عبد الله وولده سعود أن تحصر الدويش وتبعده عن مواطن الماء والزاد حتى تخلى عنه أكثر رجاله ، وأخيرا حوصر فى قرية يقال لها سبلا على مقربة من ارتاويا ، وقتل أكبر أولاد الدويش وجرح الدويش نفسه ، وأمر « ابن سعود» باحضاره فأخذوه إليه مضرجا بدمائه ووقفت زوجه وعياله يبكون ، فتجلت شهامة «ابن سعود» وعفا عن خصمه العنيد وأمر بنقله إلى منزله فى آرتاوية وأرسل له طبيبه الخاص لمعالجته . وكانت أوامر «ابن سعود» تقضى بالقبض على الثوار ومحاكمتهم أمام هيئة من العلماء ولكن عفا عن الدويش شفقة به .

بقى بيجاد الذى كان يناضل تحت تأثير العقيدة ولأنه ذو عقيدة ولو كانت خاطئة يستطيع — على عكس الدويش — أن يؤثر على الجماهير فهو أشد خطرا على «ابن سعود» من رجل لا عقيدة له مهما بلغ من القوة والدهاء ، ولكن بيجاد لما سمع بما حل بالدويش سلم نفسه وحوكم أمام العلماء فقضوا عليه بالسجن المؤبد

وبعدئذ قضى « ابن سعود » على باقى العصابات وذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج .

قضى على الثورات التى نشبت فى الكويت والعراق قضاءا تاما ولكن ذلك لا يدل على توتر العلاقات بين نجد وجاراتها الشمالية فلقد طالب «ابن سعود» من حكومتى الكويت والعراق تسليم الثوار وكانت التقاليد العربية تقضى عليه باعطاء الضمانات لسلامتهم فلا تستطيع الكويت والعراق تسليمهم لتوقع عليهم عقوبة الاعدام فى نجد ، لذلك غضب « ابن سعود » لولا أن تصدى

الكولونيل بيسكو المعتمد السياسى فى الخليج الفارسى لحل المشكل .

ورضى «ابن سعود» أن يتفاوض فى الأمر مع معتمد الكويت سنة ١٩٣٠ وأعطى الضمانات الكافية لطمأنينة الثوار على أرواحهم .

وبذلك انتهى هذا الموقف العصيب وأصبح الطريق ممهدا للمقابلة بين فيصل ملك العراق «وابن سعود» ملك العرب ومع أن فيصلا قد جلس على عرش العراق فى سنة ١٩٢١ إلا أنه منذ ذلك التاريخ لم يجتمع بالملك « ابن سعود» ولم يتقابل الاثنان وجها لوجه ، على أن حكومة الهند تحت الحاح ملك الوهابيين فى سنة ١٩٢٩ قد أمدت نجدا بالأسلحة والذخائر التى تبلغ قيمتها ٣١٥٠٠ جنيه انكليزى وأرسلت أسطول الطيران الملكى الذى رابط فى حدود نجد وساعده فى تنفيذ أعماله ورابطت قوات العراق فى تلك المواقع الصحراوية التى أنشئت منذ تخريب بسايا (Busaiya) فى سنة ١٩٢٧ وقد استاء الوهابيون لبنائها ولكنها ساعدت من الوجهة المادية فى سقوط دعاة التفرقة والخلاف .

اجتمع الملكان العربيان فى الثانى والعشرين من شهر فبراير فى سفينة حربية بريطانية وبحضور السير فرانسيس هامفريز لينظرا فى مسألة السلام بلاد العرب .

وقد كانت الدهشة بادية على الملكين ، فالملك فيصل ذلك الرجل الطويل القامة الرشيق الصورة أظهر سحره الخلاب متناسيا الآلام التى كان يحملها بين جنبيه ، والملك عبدالعزيز وهو أطول منه قامة وأضخم جسما وأكثر لطفا تلألأ وجهه بالبشر والسرور وفى هذه اللحظة اعتقد الملكان أن كلا منهما كان يفهم أخاه على غير حقيقته وأنهما مرتبطان برباط الحب المشترك ، حبهما لبلاد العرب .

ولم يكن صعبا عليهما فى هذه الظروف أن يتفقا مبدئيا وإن كان لا يمكن

حل جميع المسائل المعلقة بين نجد والعراق فى مياه الخليج الفارسى ولكن أساس معاهدات الصداقة وحسن الجيرة قد تجلى واضحا . أما الشروط المتفق عليها فهى الاعتراف المتبادل باستقلال العراق واستقلال نجد والحجاز وأن يكون لكل منهما عند الآخر ممثلا سياسيا ، ثم مسألة القبائل المهاجمة الخارجة على القانون وتسليم المجرمين الفارين من وجه العدالة و إيجاد مفوضية دائمة للنظر فى مسائل الحدود ، والقضاء على الخصومات التى تنجم من خرق المعاهدات وحسن تقدير «ابن سعود» للاصلاحات والأعمال التى قامت بها العراق فى مقاومة الغزوات التى اشتعلت فى السنوات الأخيرة ، وتشكيل محكمة عرفية من خمسة أعضاء من نقط البوليس المتنازعة فى الصحراء الجنوبية يكون حكمها القول الفصل إذا لم يتم الاتفاق فى مدى ستة أشهر .

وقد ابتهج الملكان لهذه الشروط وكان الملك فيصل أكثر تحمسا وأشد رغبة فى تحقيق وحدة العرب التى كان يحلم بها ، وأما الملك «ابن سعود» فقد فرح بوضع حد لتوتر العلاقات بين نجد والعراق وانتهت المقابلة وودع كل من الملكين صاحبه بتحية عربية وتدفقت التهانىء على هذا النجاح من كل فج .

وبعد ذلك مباشرة سافر الشيخ حافظ وهبة مستشار الملك «ابن سعود» يصحبه وزير خارجية الحجاز ونجد الى بغداد لوضع تفاصيل المعاهدة ، وقد تم الاتفاق وأعدت المعاهدات للتوقيع فى ١٠ مارس ولا يمنع من هذا التوقيع إلا انشغال العراق بمشاكلها الداخلية ولا تنتهى مشاكلها إلا بعد تمام الاتفاق بينها وبين بريطانيا على انهاء نظام التفويض السياسى فى سنة ١٩٣٢

لذلك مضت فترة طويلة بين وضع المعاهدات و بين توقيعها، وفى هذه الفترة عاد سوء التفاهم من جديد بين حكومتى الرياض وبغداد، لأن الأخيرة رفضت أن تسلم فرحان بن مشهور الى الأولى، وقد التجأ الى العراق فى نهاية سنة

١٩٢٩ مستغيثا بالملك فيصل الذى تغلبت عليه طبيعته البدوية من حيث إكرام الضيف ورأى ألا يسلم فرحان إلى حكومة نجد تلبية لطلب «ابن سعود». ولكنه مع ذلك أخذ يحرض فرحان على السفر الى الرياض بعد أن وعد «ابن سعود» بسلامته، ولكن ذلك الرجل السورى اللئيم خشى أن يلحق بفيصل الدويش فى سجنه المظلم. وأخيرا قبل أن يذهب إلى «ابن سعود» عن طريق سوريا وجدة ولكنه كان فى ذلك مخاتلا فلم يذهب، ووجه اللوم الى العراق وحدها

وما من شك فى أن التقرب بين العراق ونجد قد تم فى اجتماع الملكين وفى ابريل سنة ١٩٣١ سافر الجنرال نورى باشا السعيد رئيس وزارة العراق إلى الحجاز لمقابلة الملك «ابن سعود» وفى الثامن من ابريل وقعت فى مكة معاهدتان: الأولى معاهدة الصداقة وحسن الجوار والاحتكام العرفى، والثانية تضمنت مسألة تسليم المجرمين وبأن تلتزم كل دولة من الدولتين بتسليم من يفرون من وجه العدالة الى أختها.

ومع أن «الملك ابن سعود» قد خلق المودة وحسن العلاقات بالملك فيصل وبالعراق إلا أنه لم يقض على الخصومات القائمة بينه وبين الأمير عبد الله شقيق الملك فيصل وحاكم شرق الأردن، وكان النزاع بين نجد وشرق الأردن يستلزم متاعب جمة للقضاء عليه أكثر مما تستلزمه المنازعات الأخرى اللهم إلا الخلاف مع الحكومة المصرية فى مسألة المحمل.

ولم تكن شرق الأردن جديرة بالاهتمام الذى تستحقه العراق، فان الشعب فيها لا علم له بالحقيقة، وكان البدو فى شرق الأردن فى الماضى يميلون لمهاجمة البدويين من بلاد العرب ولكن منذ أصبح أولئك تابعين لدولة صغيرة — لم يبذلوا جهدا ما فى تكوينها — صارت متاعبهم جديرة بالاهتمام.

وقد أوضحنا فيما سلف من هذا الكتاب كيف سعى الوهابيون بعد

سقوط حائل سنة ١٩٢١ فى بسط نفوذهم تجاه شرق الاردن وكيف أرسلت الحملة تلو الأخرى فى هذا الطريق وقد وقع الأسطول الجوى الملكى العقاب الشديد على تلك الحملات، وبمقتضى معاهدة حادا سنة ١٩٢٥ حاولت كل من نجد وشرق الأردن إيقاف تلك الحملات.

ثم ان بعض البدو الذين حاصروا فيصل الدويش فى خريف سنة ١٩٢٧ شقوا عصا الطاعة وأعدوا حملتهم منفردين، وكان بين هؤلاء الغزاة الذين لا تؤيدهم حكومة رجل سورى هو فرحان بن مشهور الذى حضر إلى نجد قبيل ذلك بقليل — وكانت تحيط به عصابة ممن لا أود لهم إلا الغزو والسلب وفى ربيع سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ جمع عصابة أكبر منها من البدو الخارجين على القانون لمهاجمة شرق الأردن، وقد أوقع أضرارجسيمة ببنى صقر والحويتات وكان طبيعيا أن يقابل العدوان بمثله فقد بدأت الحويتات بالهجوم على منطقة جوف وهى المنطقة التى ضمها اليه «ابن سعود» بعد مشقة بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢٥.

ولم يكن فى مقدور حكومة شرق الأردن وقتئذ أن تحمى الحويتات أو تكبح جماحها وهى التى سببت قلقا شديدا، فى مارس سنة ١٩٢٩ وقف فرحان ابن مشهور مع عصابته يقطعون الطريق الى الكويت ويفعلون ما فعل فيصل الدويش.

لذلك انتقمت لنفسها الحويتات ولكن لم تنتقم من المهاجمين الأصليين مع أن بعض قبائل جوف مثل قبيلتى شرارات وروالا قد أخذت بنصيبها فى هجمات ابن مشهور. وكان من سخرية الحوادث أن تنضم الحويتات إلى الملك عبد العزيز ضد الثوار فى أواسط بلاد العرب وجهاتها الشرقية وذلك منذ ربيع سنة ١٩٢٩ إلى نهاية هذه السنة وكانوا يعتقدون أن هذه الغزوات ليست إلا من ضروب اللهو والتسلية.

ساء التفاهم من جديد بين الملك عبد العزيز والأمير عبد الله فقد كان ملك الوهابيين يتوجس خيفة من الهجمات الواقعة فى دائرة نفوذه ولكن اشتد غضبه لسوء تصرف قبائل شرق الأردن . وبمجرد أن قضى على حلفاء فيصل الدويش وجهت الحملات إلى الحويتات وكان على رأس إحدى تلك الحملات ابن مصعد حاكم «حائل» فخسرت الحويتات خسائر فادحة .

وكانت العراق فى الوقت نفسه تسعى بمعاونة بريطانيا لمسالمة نجد وقد أمرت بريطانيا ممثليها فى شرق الأردن أن يبذلوا كل مافى وسعهم للتوفيق بين الملك الوهابى وبين حاكم شرق الأردن . واضطرت حكومة عمان التى أرهبتها القوة الجوية الملكية أن تكف عن مهاجمة نجد . وقد عقد مؤتمر للتحكيم بين نجد وشرق الأردن فى عمان فى خريف سنة ١٩٣٠ تحت رآسة المستر . م . س ماكدونل أحد رجال حكومة السودان .

وقد سعى المؤتمر لاسكات الحويتات التى كانت ظروفها تستدر الرحمة وكان لابد لعلاج هذه الظروف من إحدى اثنتين ، إما أن تساعدها الحكومة بطريق مباشر وإما أن تقوم هى بغزو نجد ، وفى أثناء انعقاد المؤتمر حاولت خلسة من القوة الجوية الملكية الساهرة أن تستعيض عن الغزو بالسرقات فأدى ذلك إلى تغيظ الوهابيين الذين سمحوا لقبائل نجد أن تحاصر الغزاة وترد العدوان مما أدى لارتباك المؤتمر .

وتزايد الشك وسوء الظن بين شرق الأردن ونجد وظهر أنه لابد من اتخاذ خطة حاسمة لايقاف هذا الاضطراب لأنه كما ذكرنا فى هذا الكتاب أكثر من مرة إذا نضب معين الرزق فى تلك البلاد تصبح القبائل كلها فى حالة حرب واعتداءات .

فان العامل الاقتصادى فى بلاد العرب غاية فى الخطورة وإذا أمرت

الحكومة رعاياها بالهجوم كما تفعل الحكومات المتحضرة فيجب عليها أولا أن تضمن لقبائلها — التى قلما تنجو من المجاعات — القليل الذى يكفيها لتعيش .

ولم يشرع حتى سنه ١٩٣٣ فى إنهاء الاضطرابات الناشبة بين عمان والرياض . وقد سمعنا فى العام الماضى أن الأمل معقود على حسن التفاهم بين الحكومتين وإجراء اتفاقيات تتضمن الصداقة والتحكيم وتسليم المجرمين ولكن سواء رفرف السلام أم لم يرفرف وسواء تمت المعاهدات أم لم تتم قامت فى رأس الملك عبدالعزيز فكرة أسمى من تلك المشاكل فكرة الضرورة الملحة فى إيجاد المواصلات السريعة اللازمة لتنظيم الادارة فى مملكته المترامية الأطراف ، وقد تمكن بالفعل من التغلب على مصاعب نجد وإدخال المخترعات العلمية فيها ، فعنده الآن مركبات هوائية وسيارات وقد يربط أهداب امبراطوريته بمحطات اللاسلكى

الفصل التاسع عشر

السفراء الأجانب ، ثورة ابن رفادة ، ثورة عسير ولاية العهد ، التقدم العلمى فى الصحراء

وقبل أن يعلن «ابن سعود» رغبته فى إصلاح إدارته بادخال المستحدثات العلمية فى بلاده اعترفت به الدول العظمى ملكا للجزيرة كما تقدم ، وأرادت أن تغير من طبيعة ممثليها السياسيين فى جدة وكانت فرنسا أسبق هذه الدول إلى ذلك العمل فحولت قنصليتها إلى سفارة فى سنة ١٩٢٩ وتبعتها بريطانيا بعدئذ بقليل فعينت السير أندريا ريان وزيرا مفوضا من قبلها فى نهاية سنة ١٩٣٠ وهو أول وزير بريطانى مفوض فى دولة الوهابيين وجرت الدول الأخرى على هذا المنوال .

واضطرت كل دولة ليست إسلامية وممثلة فى جدة أن تعين فى سفارتها موظفا مسلما يستطيع فى المناسبات أن يذهب إلى مكة . أما الدول الاسلامية التى لها وكلاء فى المملكة العربية السعودية فقد أرادت أن تكون مفوضياتها بمكة ولكن قرر «ابن سعود» أن جميع السفارات يجب أن تكون فى جدة على قدم المساواة .

ومن غرائب الصدف أن اعتراف الدول « بابن سعود » تبعته الأزمة العالمية ، ففى بلد كبلده خال من الموارد الطبيعية ، وفى شعب كشعبه نستطيع أن نقول ونحن نستعمل هذه الكناية «الاقتصاد فى يوم غزير المطر» ان العسر الاقتصادى حدث بشدة خاصة ولم يكن الحجازيون كغيرهم من الناس ذوى

مهارة فى عمليات الأسواق وممارسة التجارة نخيم الظلام ، وتكاثرت الهموم واشتد القلق .

وسنحت الفرصة لأعداء الوهابيين كى ينشروا بذور الفتنة والشقاق فى رعية «ابن سعود» وفى أوقات أخرى كانت الجزيرة تضج بصيحات الغزاة والمقاتلين الذين يطلبون الخبز و يتحفزون للمخاطرة ، ولكن ظهر فى هذه المرة ثورتان ضعيفتان ثورة فى شمال الحجاز وأخرى فى جنوبها وقد انفجرت الأولى فى صيف سنة ١٩٣٢ تحت قيادة «ابن رفادة» أحد أفراد أسرة بيلى وكان شيخا غبيا جاهلا لايعرف القراءة والكتابة . ولكن شجعته الصحافة المناصرة لخصوم «ابن سعود» من البدو . والمؤلم أن الميدان لايزال رحبا فى بلاد العرب للصحافى الذى يرمى الى إثارة العاطفة . ولم يكن يصحب ابن رفادة أكثر من أربعمائة أو خمسمائة مقاتل ، وبعد أن حاول عبثا إثارة الفتنة بين الوهابيين قابلته قوات الملك على مقربة من البحر الأحمر فقطعت رأسه وسحقت عصابته .

وبعد ذلك بشهور قلائل ظهر الادريسى فى عسير التى وضعت تحت حماية الوهابيين بمقتضى المعاهدة ، فقام هذا الرجل على رأس ثورة يناضل بها نفوذ الملك عبد العزيز فجردت عليه حملة تحت قيادة ابن مصعد حاكم حائل ، وقد عرف عن هذا الأخير أنه يعامل الثوار بلا رفق أو هوادة ، وفى با كورة سنة ١٩٣٣ قضى على ثورة عسير .

بقيت مسألة واحدة وهى مسألة توارث العرش ، وذلك أنه فى ربيع سنة ١٩٣٣ تقرر أن الظروف تقضى بتعيين ولى عهد للملك ، ولم يكن هناك شك فى أن الملك يستصوب تعيين ولده سعود ، وهو أكبر أبنائه الأحياء ، وهذا الأمير الشاب قد ورث عن أبيه قوة القلب ، وبسطة الجسم ، وهو يفهم جيدا طبائع البدو ، وقد اشترك معهم فى ساحات القتال كما وأن له إلماما كبيرا بأفكار الغربيين

مع أنه لم يرحل عن بلاده إلا مرة واحدة زار فيها مصر ؛ أما والده نفسه فلم يتنقل من بلاد العرب مطلقا .

وقد نودى بالأمير سعود وارثا رسميا للعرش فى مايو سنة ١٩٣٣

عرف الملك عبد العزيز المزايا التى يمكن أن تعود على بلاده إذا استخدم فيها السيارات وذلك قبل ثورة ١٩٢٩ بوقت طويل وليس هناك وجه للمقارنة والمفاضلة بين الجمل والاوتومبيل فى سرعة العدو فى تلك المنبطحات الواسعة التى تفصل بلاد نجد والحجاز عن بعضها اللهم إلا فى تكاليف الحمل وحتى قبل أن يغزو «ابن سعود» بلاد الحجاز استحضر السيارات من الخليج الفارسى واستخدمها فى أسفاره وقد زاد عددالسيارات لما توسع فى فتوحاته بالبحر الأحمر وكان يندر وجود طرق ممهدة وذلك بالرغم من وجود الطريق المعدنى بين جدة ومكة .

وقد استعمل الاوتومبيل مبدئيا فى الأغراض المدنية ثم فى نقل المسافرين لتيسير الراحة لهم وشجعت ثورة سنة ١٩٢٩ «ابن سعود» على التفكير فى الوسائل العلمية اللازمة لاستتباب ملكه وتسهيل إدارته وقد تفتحت عيناه للطريقة التى تمكنت بفضلها الدول الغربية من تذليل الصحراء فلا يجسر أى بدوى على الوقوف فى طريق سيارة مسلحة أو سفينة هوائية أو أن يعترض اللاسلكى فى انتشاره وعرف «ابن سعود» كذلك كيف ترتب على استعمال الآلة البخارية تسهيل الادارة فى البلاد الاسلامية الواسعة التى تحكمها دول أجنبية .

لذلك رأى أن يساير الغرب فى تقدمه وتطوره وفى نهاية سنة ١٩٢٩ اشترى من بريطانيا أربعة مراكب هوائية وصلت إلى نجد عن طريق الخليج الفارسى وإن كانت لم تستعمل ضد الثوار لأنها جاءت متأخرة وقد نقلت إلى

جدة فى سبتمبر من السنة التالية [١]

وفى سنة ١٩٣٠ طلب «ابن سعود» من شركة ماركونى بلندن أن تنشىء بعض محطات اللاسلكى بمملكته وقد تم ذلك فى سنة ١٩٣٣ فهناك محطتان فى العاصمتين مكة والرياض قوة (ستة كيلواط) [٢] وكذلك فى البلاد الرئيسية الآتية : —

القاف ، وحائل ، وبريدة ، وفى المدن الواقعة على الخليج الفارسى، وهى: قاطف ، وجبيل ، وعقير ، توجد فى كل واحدة محطة قوتها (نصف كيلواط)

وفوق ذلك جعل تحت تصرفه أربعة «لوريات» مجهزة بأجهزة ماركونى وبذا يعبر الصحراء وهو على اتصال دائم بالحوادث التى تقع فى أواسط مملكته وفى الجهات النائية منها . ولابد أن يؤدى هذا التقدم فى المواصلات إلى انقلاب فى إدارة بلاد العرب فان المحطات مخصصة للحكومة فقط لا للمحادثات مع العالم الخارجى ، وبالاختصار وجدت لاصلاح الادارة وتسهيلها .

ولو كان اللاسلكى احتكارا فى يد الحكومة لما كان هناك تقيد فى شراء السيارات [٣] وقلما نرى السواح فى الحجاز ونجد ولكن المنافسة قائمة بين شركات النقل المتنقلين بين مكة والجهات الأخرى، وسيأتى وقت تقطع فيه كل شركة عنق الأخرى وقد حدث ذلك فعلا عندما حلت العربات محل الجمل والحصان وكل الفائدة المرجوة من الاوتوموبيل عبارة عن اقتصاد فى الوقت ولا نستطيع أن نتنبأ

---

(١) ولاسباب مالية اختفت هذه القوة الجوية الضعيفة

(٢) اضطرت شركة ماركوني فى إنشاء محطة مكة أن تعهد بالعمل إلي مهندس مسلم من مهندسي مصلحة السكة الحديد المصرية ؛ لان «ابن سعود» يحرم على الكفار أن تطأ أقدامهم أرض مكة .

(٣) تقرأ وصفاً شائقا لحلول الاوتوموبيل محل الجمل فى كتاب للمستر فلبي عنوانه (الركن الخالى) وفيه يتكلم عن سيارة فورد التى قامت برحلة طويلة فى سنة ١٩٣١ من ابي رهاني إلي مكة .

الآن بمستقبل السيارة فى بلاد العرب فان هذا المستقبل موقوف على تقدم الحج .

ولا معنى لتحسين طرق النقل إن لم تكن هناك الأشياء المراد نقلها وقد رأى «ابن سعود» مرارا ضرورة زيادة استغلال التربة فى بلاده فان عيبها الوحيد طبعا قلة المياه فيها فلا تخترقها الأنهار ولكن توجد بها الأودية التى تفيض بالماء كلما هطلت الأمطار وتجف إذا جفت السماء ولكن الملك الوهابى فكر فى استخراج الماء من بطن الأرض لاستعماله فى الزراعة إلا أن الماء محدود لسوء الحظ ، ولا يزال الشعب يجالد العوامل الجوية والعوامل الجغرافية معا .

ويجب أن نذكر هنا أن تلك المستحدثات لم يكن الملك فيها متهورا وذلك بالرغم من تشاؤم النجديين بل أتى بها مرتبة منظمة حتى تغلبت على المعارضين وانتشرت فى جزيرة العرب ومع ذلك تراهم لا يسمحون بادخال السينما فى البلاد الوهابيه وبالاختصار ليس هناك مجال لطغيان العلم على الدين فى تلك البلاد .

ولكن عبدالعزيز ساعدته شخصيته القوية حتى أنه بالرغم من العسر الاقتصادى الذى عم بلاده كما عم غيرها فى سنة ١٩٣٠ لم يكن هناك ثورات ضد نظامه الادارى اللهم إلا ثورة ابن رفادة فى سنة ١٩٣٢ وتلك كانت مؤامرة مدبرة خارج الحجاز وأما الحج الذى اعتنى بتنظيمه من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٢٩ فقد أخذ فى التدهور وذلك لأن الأزمة قد اجتاحت الحجاج وهم من زراع القطن بمصر وزراع الكاوتشوك بجزر الهند الشرقية وتجار اللؤلؤ فى بمباى فأصبحوا جميعا يستصعبون الرحيل إلى الأراضى المقدسة .

وقد اشتد تعقيد الأمور فى سنة ١٩٣٢ إذ أجدبت الأرض وكان لهذا الجدب تأثير خطير فى تاريخ بلاد العرب وماتت التجارة وباتت الديون

متراكمة ولا قدرة للمدين على السداد وأضحى التجار فى حالة بؤس شديد ولم يجد البدو أمامهم إلا الأعشاب والحشائش المتحجرة وانتشر التسول فى البلاد وعرف الموظفون أن الحكومة عاجزة عن دفع مرتباتهم ، إذا ساد السلام وخيم الظلام وفى غير هذه الظروف يكثر الهجوم وتتفشى الغزوات ولكن ذلك محال طالما كان عبد العزيز هو الملك الجالس على العرش .

وأخيرا مالت الحكومة إلى اعتبار هذه الأزمات نكبة حلت بالبلاد نتيجة مظالم الجيل السالف ومن التعجل أن نقول الآن بأن هذه الجهود التى تبذل لتخفيف الضائقة الاقتصادية قد تؤدى إلى المشكلة الرئيسية فى نجد والحجاز ففى باكورة سنة ١٩٣٣ منح جماعة من مسلمى الهند امتيازا بانشاء سكة حديدية من جدة إلى مكة وقد وصل إلى حكومة مكة مبلغ من المال لهذا الغرض ورخص فى الوقت نفسه بانشاء مصرف للدولة وتطوع سمو خديوى مصر السابق عباس حلمى لأن يساهم فيه بأكبر قسط وفوق ذلك هناك آمال معلقة على اكتشاف الزيت فى الهزا والمعادن فى الحجاز .

ونكرر هنا ما قلناه سابقا بأن تفريج الأزمة الاقتصادية فى نجد والحجاز أى فى بلاد العرب السعودية . كما بدأوا يسمونها فى سنة ١٩٣٢ . لا يزال مجرد أمل وليس له أساس ثابت نظرا لتقلبات الحج . وستظهر قدرة العلم قريبا وهو الذى يستطيع أن يأتى بالمدهشات من حيث تسهيل الادارة ولكنه لا يستطيع أن يخلق منابع الماء كما لا يستطيع أن يخلق الخصب فى أرض مجدبة فان ذلك لم يعرف فى تاريخ العلم حتى الآن .

الفصل العشرون

«ابن سعود» الرجل المصلح، الدين والسياسة، المشكلة الاقتصادية

من أى نوع من الرجال يعتبر الملك عبد العزيز ؟ فهو ذو القامة العالية المهيبة التى يبلغ ارتفاعها ستة أقدام وأربع بوصات وهو ذلك الرجل المفتول العضلات الشاذ بين رعيته . وليس فى بلاد العرب من يتمتع بمثل تلك الشخصية ذات السيادة المطبوعة التى يتمتع بها الملك عبد العزيز .

وهو ليس من الطراز العربى الذى يتصوره الغربيون فسحنته ليست من النوع السميطى مع أن ملامح وجهه مشابهة لوجوه أولئك الذين قضوا حياتهم فى بلاد العرب ، فوجهه طويل بيضاوى لطيف وإذا نام تلمح فيه الحزن والضيق وإذا تيقظ تتجسم فيه العواطف بسرعة لامعة ، وأخص العواطف التى يمتاز بها هذا الملك الصراحة والرأفة .

والبساطة ظاهرة فى معظم عاداته وطعامه ولباسه فمثلا لما اقترح علماء نجد والحجاز فى سنة ١٩٣١ فكرة الاحتفال بتاريخ جلوسه على عرش الحجاز ونجد فى الثامن من شهر يناير سنة ١٩٢٦ رأى أن ذلك بدعة أوروبية ليست مأخوذة من لب الاسلام أو من تقاليد العرب فأمر بالغاء الاحتفال وأجاب على اقتراح العلماء بآية من القرآن « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ثم استرسل يقول «إن فعلت خيرا فمن الله وإن فعلت شرا فهو خطيئتى فعلتها بتأثير الشيطان ، وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء .

وقد ذكرنا فى هذا الكتاب أن عقيدة الملك عبد العزيز الصادقة المستقيمة التى ألهبت شعوره لم توح إليه بالغرور ولكنها جعلته خاشعا متواضعا ومما لاشك فيه أن الحادث الذى سردناه نقلا عن الشيخ حافظ وهبة فى خطاب له ألقاه فى رابطة الشرق الأدنى والأوسط بلندن دليل قوى على تواضعه. فهو فى الواقع رجل عامر قلبه بالايمان والانصياع لدين الله الذى ينهى عن الكبرياء وهو يشارك رعيته فى أداء فروض الدين بصدق وإخلاص لا رياءآ وكذبا.

وإليك نموذج من حياته اليومية كما روى الشيخ حافظ وهبة: ينهض من فراشه قبل الفجر بساعة فيقرأ ماتيسر من القرآن وهو عماده فى الحياة إلى أن ينادى المنادى داعيا لصلاة الفجر فيؤدى هذه الفريضة فى المسجد ثم يعود إلى منزله حيث يقرأ القرآن والأحاديث وإذا كان لديه مايهم من أعمال الدولة يقوم بأعبائه ثم يستريح قليلا وبعدئذ يستيقظ للاستحمام ويرتدى ملابسه ويتناول طعام الافطار ثم يحضر اجتماع المجلس المخصوص ويتناقش فى أهم شئون الدولة.

ويقوم بالوظائف التى تعتبر فى عرف الغربيين من قبيل التطرف فى الديموقراطية التى تفرد بها هذا المليك العربى وسما بها فوق الاوتوقراطية التى جرى عليها سلفه. والملك عبد العزيز يستقبل زائريه من مشايخ القبائل وسائر العرب فى جلسات خاصة وينصت لشكاياتهم ويأخذ بنصائحهم ويمدهم بارشاداته. وينعقد المجلس العام فلا يمنع فرد من الحضور فيه وكل فرد يستطيع مقابلة الملك شخصيا ومباشرة، فان العنفوان الذى يحول بين الملك والرعية لاوجود له فى بلاد العرب وإذا ناداه البدوى نظر إليه وجها لوجه وقال «وا.. عبد العزيز»

يتلو ذلك تناول الغداء وصلاة الظهر ثم أعمال كثيرة من مهام الدولة يبحثها فى المجلس المخصوص وينهض لفريضة العصر التى يستقبل بعدها أقرباءه وكبار موظفيه . وقد تعود فى هذه الأيام أن يركب سيارته التى تمخر به عباب الصحراء وذلك قبل تناول العشاء ثم يعقد مجلس العموم مرة أخرى وأخيرا قبل أن يذهب الملك إلى فراشه يستمع لدروس متنوعة فى الاسلام مدة ساعة أو ساعتين .

على أن الكآبة أحيانا تلازم هذا البطل العظيم والمصلح الاسلامى الخطير ولكنه يظل فى مرح وبشاشة فلا يلبث العبوس أن ينقشع ولا يخلو الأمر من أن يقوم بنزهة للرياضة والترويح عن النفس وأحب الرياضة إليه أن يشرف على تنظيم مسابقات الركوب والجرى والصيد وكثيرا ما يطاوع نزعات الشباب فيتذكر الماضى ويترك نفسه على سجيتها فيشترك فى الجرى بنفسه محاولا كسب السبق .

أما كرمه فحدث عنه كما تشاء . والكرم فى الواقع شيمة العرب وإذا مات عبد العزيز فلن يخلف دينارا مدخرا يسد رمق أسرته . فلا يقف السائل ببابه دون أن ينال عطاءه وله منزل فاخر للضيافة فى الرياض وفى هذا المنزل يجد الغريب الخبز والمأوى بلا مقابل فى أى وقت فهو ليس أقل سخاء من الزاهدين الذين ظهروا فى مكة فى أى عصر . وهو معروف بهداياه الجمة الفاخرة ويعزون هذا الاسراف أخيرا إلى الضيق الاقتصادى الذى أصاب مملكته وأصاب العالم كله مع أن للعربى مقدرة على الصبر وفى ربط بطنه بالحزام .

وبلاد العرب موطن الخطابة وقد استخدم «ابن سعود» مواهبه الكلامية فى الوصول إلى المجد فبيانه ساحر إذا خاطب الجماهير أو تحدث فى مجالسه الخاصة

وكلامه يتدفق بعذوبة لامثيل لها وهو يميل إلى تحليل موضوعاته بدقة ويقسمها إلى فكر مسلسلة: أولا، ثانيا، ثالثا، أخيراً. ويخاطب الناس على قدر عقولهم فيتكلم إلى البدوى بلسان ويناقش الحضرى بلسان آخر ومامن زائر أجنبي للبلاد لم يعجبه حديثه الطلى الجذاب.

وأحب الأمور إلى هذا الملك الوهابي بعد أن يفرغ من أعماله اليومية أن يجمع إليه القلوب ويسحر الناس بكلامه الحلو الفياض. وكثيرا مايمزح فى محادثاته لأنه اجتماعى بطبعه وفطرته ويلذله الضحك والنكات ولا تمله الأقاصيص الهزلية على خلاف بعض المتصوفين الأوربيين وبعض المتزمتين من سكان الرياض فى الوقت الحاضر.

كذلك وفق «ابن سعود» فى الزواج فرزق بعشرين مولودا ولم يكتف مرة بزوجة واحدة أو يعيش أعزب وقلما يميل العربى إلى الحب إلا إذا سنحت له الفرص ولكن هذا الملك له قلب كبير تغلى فيه العواطف وقد تباغته عواصف الضيق والملل وتحدث دويا كالرعد ولكنها لاتلبث أن تخبو وتزول

وقد امتاز عبدالعزيز بذكائه النادر، ونلمح هذا الذكاء فى عباراته التى يتقن صوغها مهما بلغت من الايجاز. فمثلا لما أعلن الملك حسين السابق أنه حاكم لجميع بلاد العرب أجاب «ابن سعود» بأن هذا الاعلان ليس إلا مجرد ادعاء وأنه لايهمه أن عددا قليلا من التجار الحجازيين يمكن أن تكون له قوة الشعب العربى بأسره وكذلك لما طلب منه حسين أن يعترف له بأنه تولى منصبه بأمر الخليفة أجاب بأنه لايقره على ذلك إلا إذا صدر الاعتراف من جميع المسلمين فى العالم ويكون اعترافه واعتراف الوهابيين مجاراة لشعور المسلمين فقط.

وبما عرف به «ابن سعود» حبه لأقربائه الأحياء منهم والأموات

وكثيرا مايذرف الدموع — وتلك عادة العرب — إذا تذكر أولئك الذين فرق الزمن بينه وبينهم . وكلما تيسر له ذهب إلى مقابرهم فى يوم الجمعة لزيارة أولئك الذين ركنوا إلى الراحة فى جوار الله تعالى .

يقول الاستاذ كينيث وليامز ما نصه : هل بين ملوك الشرق الحاضرين من يضارع «ابن سعود» ؟ لا أذكر حاكما قويا يخشى الله أولا يخشاه قدوصل الى مكانة هذا الملك فلا شك أنه لايعدله ملك فى العالم الاسلامى فهو الجندى الباسل والمصلح الكبير والمخلص لدين الله والانسان الظريف الكريم الصريح الثابت الذكى الشجاع المتواضع فليس كمثله ملك . ومن السهل أن يخالفه فى الرأى رجال من رعيته وهذا الاختلاف لا يقلل من احترامهم لشخصه والاخلاص له ، وقد بعثت شخصيته الحية المثل العليا فى نفوس الكثيرين فى سائر البقاع الاسلامية .

أماعيوبه — إذا كانت له عيوب — فصدرها البيئة والوراثة وذلك نتيجة القيود الدينية العتيقة (١) وأحقاب الجهالة والظلمات . وهذه العيوب تظهر بصورة مطلقة ولا تكون نسبية وقد تنمحى إذا صار هذا الملك أقل عنفا وأكثر علما ولكنه على أى حال ولد ليحكم وليحكم رجالا هم بالنسبة له بمثابة الاخوان أكثر من أن يكونوا رعية يخضعون خضوعا أعمى .

أما إصلاحاته فقد بدأت منذشعر باستتباب سلطانه فى نجد وبانقضاء عهد الفوضى والقلاقل ، وأهم هذه الاصلاحات استقرار البدو فى الأراضى لزراعتها وقد شرحنا جهوده فى هذا الصدد . وقد كان الباعث إلى ذلك أنه أراد أن

(١) لايستطيع كائن من كان أن يرمى الدين الحنيف بانه مصدر عيب لاى رجل مهما عظم أوصغر فان دين الاسلام مصدر الاصلاح والحياة والنور ولعل المؤلف فى قوله القيود الدينية يريد التقاليد السخيفة الطارئة التى لم يرد عنها نص فى كتاب الله المكنون أو فى حديث نبيه المختار (الحفناوى)

يمنع ما عساه يقع من النتائج الوخيمة المترتبة على الغزو ، وأراد أيضا أن يكون له جيش منظم مستديم .

والآن نستطيع القول بأن سياسة استقرار البدو فى الأراضى قد أفلست منذ أن انشغل الملك بالهجمات الواقعة بين نجد والعراق وشرق الأردن وقد تنبأ الكثيرون لهذه السياسة بالفشل فى ابتداء حكمه لسببين : أولا : أن المياه الموجودة فى نجد كانت ولا تزال غير كافية لزرع مساحات واسعة ثانيا : لايمكن أن تتغير طبيعة البدو وهم يميلون دائما إلى الغزوات وبالاختصار يعتبر الغزو عنصرا رئيسيا فى مكونات الرجل البدوى ، وقد وقفت حركة الهجرة الى هذه الأراضى الآن بالفعل ؛ لأن أراضى نجد — وذلك على سبيل الظن والتخمين — ليست صالحة للزراعة ، وكذلك تغلبت روح القبيلة على المهاجرين منذ أول مهاجرة فى سنة ١٩١٢ وهناك صلة قوية بين هذا الموضوع وبين الثورة التى أضرم نارها إخوان مطير فى أرتاويا ضد «ابن سعود» سنة ١٩٢٩ .

ولكن الباحث المدقق الذى ينظر للحقيقة المجردة لا يستطيع أن يصدر حكمه مستندا الى هذه الحوادث وحدها، ولا نستطيع أن نقول فى فترة قصيرة بأن هذا الاصلاح خطأ من أوله ، ولابد إلى جانب الثقافة الدينية التى اعتنى «ابن سعود» بنشرها بين الاخوان من العناية بالثقافة العامة والثقافة فى الزراعة وليس فى بلاد العرب من يقدر أهمية ذلك أكثر من « ابن سعود » نفسه ، وبالرغم من أن الاخوان أحيانا كانوا لايستطيعون كبح شهواتهم التى تدفعهم للغزو والقتال بسبب العسر الاقتصادى إلا أن هذه الحركة أشد ما يلفت الأنظار وأصعب ما يمكن الوصول اليه. والآن توجد محطات عسكرية فى مطير وجهة ركة ومنطقة باركا التى تسكنها عتيبة وحرب وشامار وحوتية وداوازير

وعجمان وقحطان وعوازم والمرة والهاجر ، وكذلك بين بعض القبائل فى الخارج والآن يوجد حوالى مائة منطقة للهجرة مكنت «لابن سعود» إيجاد جيش يبلغ عدده ستين ألف مقاتل .

على أن تقدم هذه الحركة وهى فكرة مصلح عبقرى يعتبر الأمل الوحيد الذى ينبنى عليه تكوين بلاد العرب وقد قام الملك الوهابى باصلاحات أخرى وإن كانت صغيرة ونادرة إلا أنها ستظل خالدة فى الاذهان وسيبقى شعبه متأثرا بها وقد يكون الشعب أكثر انقيادا للاصلاح من التربة الجامدة .

لقد انصرف الناس إلى العلم طوع إرادتهم وجميع العرب من سكان الجزيرة وسكان فلسطين والعراق راغبون فى التعليم مستعدون له تمام الاستعداد ولم يقف فى سبيل العلم فى بلاد العرب إلا الفقر وعدم وجود المدرسين الأكفاء ، وقد شاع التعليم الدينى من قديم الزمن ولكنهم فى حاجة الآن إلى تعلم الفنون الحديثة ، ولقد وضع «ابن سعود» مع كونه ليس متعلما بمعنى الكلمة برنامجا إصلاحيا للتعليم فى سنة ١٩٢٦ وعين الشيخ حافظ وهبة أول وزير للمعارف وهو الآن وزيره المفوض بلندن ، كذلك استحضر المدرسين من الجهات العربية المجاورة كسوريا ومصر وأرسل البعثات من الحجازيين والنجديين إلى الخارج وسيظهر لهذه الحركة مفعول قوى فى بلاد العرب إن شاء الله .

كذلك جاهد عبدالعزيز جهاد الأبطال فى تقدم الطب فمع أن المصريين والأتراك قاموا فى هذا الصدد بمجهودات لا بأس بها إلا أن النجديين قد عولوا على الأعشاب فى معالجة المرضى ، وقد ذاعت فى داخل البلاد شهرة البعثات الأمريكية التى تأسست فى بعض بلاد الخليج مثل الكويت والبحرين والبصرة وقد انتقل طبيب أمريكى من الخليج إلى الرياض ، عبر الصحراء ليعالج عين

الملك عبدالعزيز اليسرى ومما يدعو إلى تقدير الملك عنايته بادخال التطعيم كوقاية من الجدرى، وبنشر المصحات والمستشفيات المتنقلة والصيدليات وقد قام بكل هذا فى نجد والحجاز على السواء، و بذلك اعتنى بصحة الحجاج بتنقية مياه الشرب فقل عدد الموتى من الحجاج. ولما اهتم الوهابيون بهذه الأمور اقتنعت الحكومات الغربية بضرورة إلغاء الكرانتينات فى جبل الطور وقرامان، وهما واقعتان فى الطرفين الشمالى والجنوبى من البحر الأحمر.

ومما أفاد الحجاج أيضا وقد كانوا لقمة سائغة للبدو نظام الطرق الدقيق ونظام الضرائب اللذان وضعهما «ابن سعود».

أما عن العدالة فى مملكة «ابن سعود» فيمكن فى هذا الصدد رواية قصص مدهشة. فالعدالة هنالك قائمة على أساس الشرع الشريف وهو القانون المقدس عند المسلمين وهو ذلك القانون المرن الحكيم، وقد يرميه بعض الخياليين بالوحشية والهمجية فى بعض أحكامه كالقاعدة التى تقضى بقطع يد السارق، مع أنه فى انكلترا منذ قرن من الزمان كان سارق الخروف يحكم عليه بالاعدام. والحقيقة أن عددا كبيرا فى الشعب السعودى لايزال على الفطرة وليس بينه وبين البهائم إلا فروق طفيفة، كالقبائل الوحشية التى تقطن فى الصحراء الجنوبى المسمى بالربع الخالى وهؤلاء لاتنفعهم الرحمة وإنما يقمعون بالشدة وبصرامة القانون. ولا يميل «ابن سعود» بطبعه إلى القسوة ولكنه حريص كل الحرص فى تطبيق القانون المقدس.

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى الضجة التى أثيرت لما أدخل طرق المواصلات الحديثة فى البلاد، و إلحاقا لذلك نقول: ان إصلاحات «ابن سعود» كلها قامت على أساس متين وهو أقوى الأسس بلا شك وذلك هو نشر السلام وتوطيد النظام، ولما تم له الأمر فى هذه الامبراطورية أصبح فى مقدور

الفرد أن يمشى وحده آمنا على نفسه وماله بعد أن انتهى زمن اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين حتى أن كل تفكير فى الحرية ومقاومة هذه الديكتاتورية يعد سابقا لأوانه ، ثم إن انتشار السلام بهذه الصورة وما ترتب على ذلك من الآثار رفع لواء الاسلام ، ورفع لواء هذه الشخصية ، شخصية « ابن سعود » البارزة .

والآن قد تطرأ الأسئلة الآتية فى عقول القراء : ألم يكن «ابن سعود» فى حكمه متجها إلى تحقيق المثل الأعلى الصادق الذى نهض من أجله ضد المظاهر الدنيوية ؟ ألم يكن الالحاد، أو حتى مجرد الخلف فى الرأى الذى يجتاح العالم متفشيا فى العالم الاسلامى ؟ ألا يوجد فى كل الأحوال ميل إلى فصل الأمور الدينية عن المسائل السياسية ؟

تلك أسئلة مناسبة ولا نستطيع أن نغفلها فأولئك الذين ينتقدون الملك الوهابى يقولون انه يوجد بصفة عامة فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ماعدا مملكة «ابن سعود» وخصوصا فى البلاد المستنيرة عراك دنيوى إذا لم يكن منتصرا فستكون له الغلبة فى النهاية . ويقال انه فى بعض البلاد مثل تركيا ، ومصر قد أضحت « الوطنية » الأهلية على حد تعبير الغربيين لها من المكانة فى القلوب ما كان للدين فى سالف عهوده ، ففى فلسطين ، وسوريا ، والعراق يؤكدون أن هذا الشعور واضح ملموس وحتى فى بلاد العجم ، وأفغانستان ترمى حركات الاصلاح إلى جعل الدين من المسائل التبعية التى تدخل فى شئون الدولة ويرون تركها لضمائر الأفراد[1] «المدنية الغربية» أو «التجديد»

---

(١) انى كمصرى مسلم لاأقر هذه الافكار وأرى أن مصدر بلاء الشرق وتدهور دول الاسلام ، هو اهمال الناحية الروحية وعدم اهتمام الشرائع الوضعية بمسائل الاديان ، والواجب فى بلاد اسلامية أن تنص الشرائع على العقوبات التأديبية التى نزل بها الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم كما لابد أن تفرض القوانين بعض الفرائض الدينية كالزكاة وتجعلها ملزمة للافراد .

ذلك هو الأمر الذى توجه ضده سائر الانتقادات لأنه غريب فى بلاد الاسلام أما البلاد التى يكون فيها المسلمون أقلية أو شعبا لاتشد أزره حكومة إسلامية فان المسلمين فيها يشتد تمسكهم بالعقيدة واحتفاظهم بالتقاليد الدينية .

ومما لاشك فيه أن هذا الوصف ينطبق على حالة البلاد الاسلامية وقادة هذه البلاد فى الغالب قد تشبعت عقولهم بالتعاليم الغربية ، وكثيرا مايشتد الحوار والجدل بينهم فى مسألة احياء الدين الاسلامى وصبغه بالروح العصرية وذلك منذ لعبت الانحاء المتطلعة إلى الاستقلال والحرية فى بلاد العرب دورها فى الحياة الوطنية ، وهذه على العموم مشكلة لم تنج منها البلاد الغربية

هذا التجديد الذى يجب أن يقع دفعة واحدة عبارة عن خاتمة لايمكن أن يجهلها رجل يدرس الاسلام ، ولكن التعميم فى البلاد الاسلامية أعنى تعميم التجديد له أخطار كثيرة ، وهناك ميل شديد لاتخاذ تركيا أنموذجا فى الاصلاح ويريدون باسم التقدم الغربى أن تأخذ سائر البلاد الاسلامية بمبادىء المصلح الكبير مصطفى كمال باشا ولو بخطوات متفاوتة ، وظهر لى أن هذا شىء مؤكد لأن تركيا فى نبذها المصدر السميطى «بقصد أنها أرادت أن تفرض نفسها جنسا مستقلا عن الأجناس التى نشأ منها الأتراك» تنبذ الانتساب إلى العرب أيضا . على أن الاسلام فى تركيا لم يعد دين الدولة كما كان من قبل، وتحت تأثير الغازى يتحفز الأتراك لايقاف تيار النمو المطرد نمو العثمانيين منذ اختار أجدادهم دين محمد صلى الله عليه وسلم وكل أمر ورثوه عن العرب قد نبذوه ظهريا

وسواء أثرت هذه الحركة أم لم تؤثر فليس ذلك مما يهمنا فى هذا الكتاب ولا نظن أن مثل هذه الحركة تحفز العرب جميعاً إلى مجاراة الغازى واتخاذه أنموذجا لهم فى الاصلاح . على أن عدداً كبيرا من قادة العرب ينادى بوجوب اتباع أوامر الاسلام بالتدقيق والآخرون لا يرون هذا الرأى .

ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن مستقبل العالم هو اللادينية فان الاسلام لن يموت أبدا وقد يكون رقى الأمم الاسلامية طريقا لرفعة الاسلام وإعلاء شأنه لا إلى إعدامه وفنائه ، حتى فى تركيا نفسها مع أن الدين لم يعد واضحا نجمه كما كان من قبل إلا أن الأتراك جنس له شخصية مستقلة عن الأجناس العربية ، ومن المعقول أنهم سيخرجون عن جادة الطريق ولكن لن يفعل ذلك الأعراب منهم .

على أن الأراضى التى شرفت بنزول الديانات اليهودية والنصرانية والاسلامية فيها لن يعود أهلها إلى عبادة الأوثان فان القوى الروحية تستمر طويلا وتنتصر فى النهاية وقد يسيطر الساسة بعقولهم على دفة الحكم ولكن لا بد من شىء أعظم من هذه العقول ، ألا وهو الدين الذى يسيطر على كل شىء ، والدين هو العامل الفعال فى بلاد الشرق الأوسط الآن .

وفى الاسلام رجال متعلمون يقدرون هذه الأمور ، وقبل الحرب العظمى اضطربت الفكرة الاسلامية وكان المتعلمون من الهنود والمصريين والعرب يعتقدون بملاءمة ديانتهم لظروف العالم الحاضر وذلك بصرف النظر عن أوضاع بلادهم السياسية ، وكان لذلك أهمية فى الهند وفى مصر ، فان مسلمى الهند بعد سنة ١٨٥٧ أصبحوا أذلة فقد كان يحرضهم الصوفيون الذين لم تنضج عقولهم والذين تتلخص أقوالهم فى كلمة «ارجعوا إلى الكتاب» ولم يكن هذا صالحا لعقول الهنود ، وخصوصا السيد أحمد خان الذى وضع نظاما أضحى فيما بعد جامعة «إليجار» وهنالك ظهرت مدرسة من مفكرى المسلمين وكانت غايتها الأساسية تطهير الاسلام . ومن الأمور التى يعمل لها تلاميذهم الآن تقوية الوجدان فى الجنس بأجمعه وقد ظهر ذلك فى آسيا الغربية فى السنوات الأخيرة وكان مخالفا لطبيعة الاسلام كدين عالمى ، ولكن كان لتلك الحركة عوامل

كثيرة ومظاهر شتى فى بلاد الهند وقد احتاجوا أحيانا للاستفادة بكل ما يتفق مع روح الاسلام من ثقافة الغربيين مع التقيد بنصوص القرآن دائما فى قواعد السلوك والأخلاق، ولكن يحسن القول عموما بأن علاج العقيدة الاسلامية والعودة بها إلى نقاوتها الفطرية والترفع عن كل البدع المستحدثة هى الأغراض الأساسية لهم . وقد أدت السياسة بكثير من الهنود المسلمين إلى طرق ملتوية ولكن الدعوة بصفة عامة ترمى إلى الطهر والبساطة .

وسيظهر التشابه بين هذا الاجتهاد وبين المثل العليا التى ينشرها الملك الوهابى .

وفى نهاية القرن الماضى رحل إلى القاهرة مصلح مشهور من بلاد الأفغان وهو السيد جمال الدين الأفغانى الذى صادفت تعاليمه تربة صالحة فى نفوس المصريين وبايحاء المفتى الأكبر الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله كانت تدرس فى الجامعة الأزهرية، تعاليم يصعب تمييزها من المسائل التى دعا اليها فى القرن الثامن عشر مؤسس المذهب الوهابى « محمد بن عبدالوهاب » ولم تكن هناك علاقة بين محمد عبده وبين الوهابيين الذين كانت تعاليمهم فى ذلك الوقت غامضة ولكن محمد عبده وصل إلى ما وصلوا إليه من طريق آخر ولم ينقل عنهم شيئا .

على أن دروس محمد عبده لم تعمم فى مصر فى الوقت الحاضر؛ فان بلاد النيل فى الحقيقة تعتبر من البلاد الاسلامية التى لا تتمتع بعلاقات منظمة مع الامبراطورية الوهابية ، ولكن مبادىء محمد عبده لم ينسها الناس ولم يطمسها القدم فلا يزال تلاميذه يرمون إلى إحياء الاسلام وانتشاله من رقدته ومع ما يوجد من الفوارق بين هؤلاء وبين الاخوان فى نجد ؛ لأن الأوائل متسامحون والنجديين ينشرون أفكارهم ولو بالقوة القاهرة، فان الأساس الذى يعملون له واحد وينتظر أن ينتهى جهادهم بوضع قانون إسلامى أكثر بساطة

واتساعا ويصح الافتراض بأن المذهب الوهابى يخلو من الأسس العقلية .

ولا أريد القول بأن جميع المسلمين الذين لم يستكملوا ثقافتهم السياسية يوافقون على هذه الآراء التى لم تتناولها تجارب الوهابيين، وبصرف النظر عن العدد المتزايد من المسلمين الذين يميلون الى الدين كل الميل ظهرت مدارس فكرية تطبق أصول النقد العلمى الحديثة وبذلك تهدم كثيرا من الأفكار القديمة بما فيها أفكار الوهابيين ، ويمكننا بصفة عامة أن نضع حدا فاصلا بين المجددين والمصلحين الآخرين الذين يعتنقون مبدأ الرجوع الى الكتاب ولا يمكن ظهور هذا الحد بصفة نهائية فان كل عصر يحمل لنا مكتشفاته وحقائقه ولا يمكن أن يكون الاسلام أكثر حظا من المسيحية فى التحرر من من تذبذب الفكرة وتقلبها .

ومع ذلك فهناك بالتقريب ثلاث قوات رئيسية عاملة فى الاسلام وهم (١) الدنيويون أو العالميون ومنهم أغلب المصلحين فى تركيا و بعض المصلحين فى مصر و العراق وبلاد العجم وأفغانستان (٢) المجددون وقد أنجبت مصر عددا وفيرا منهم (٣) الرجعيون ومنهم الوهابيون ، أما الفريق الأول فانه يسعى الى بناء بلاده من جديد والمسلمون يودون مساعدة هؤلاء ولكن رائدهم الأول النهوض بأوطانهم مع توطيد العلائق بين دول الاسلام والفريق الثانى يسعى إلى أخذ موافقة من العلماء على كثير مما أحدثه رجال الفريق الأول وخصوصا فصل المظاهر السياسية عن المظاهر الدينية فى العالم الاسلامى، ولكن الرأى العام يقول بأن الاسلام كان وحدة لاتتجزأ ويجب أن يكون كذلك ويقول أهل الفريق الثالث بأن كل ماصدر من الرسول عليه السلام من كلمة أو فعل منزه عن الخطأ .

ومما لاجدال فيه أن الملك عبد العزيز من أنصار الفريق الثالث فليست

بينه وبين الفريق الأول صلة لأن يخلق قانون على أساس الشرع الشريف وهو لا يعرف رجال الفكر كما يسمونهم وربما يحتقرهم ولكن يهمنا أن نعرف أن له فى أكثر من دولة اسلاميه قدم وطيد ، فهو يحكم الحجاز ونجد لمجد الاسلام فقط بما جعله جديرا بالتوقير لدى عدد لا يحصى من المسلمين ، على أن هذا الملك له أطماعه الخاصة فهو ينظر إلى امبراطورية عربية ويعرف أن العرب وغير العرب من المسلمين يحترمونه كرجل يسعى لاعزاز الاسلام ، وكزعيم للجنس العربى بأجمعه ولكن غاياته من الوطنيين العرب فى الأقطار الأخرى محدودة لأن هؤلاء يبغون الاستقلال والأخذ بنصيبهم من الحضارة الغربية على أن صلة الجنس لا تنكر مهما اختلفت أغراضهم فى الحياة كما أنه يصطدم بالمجددين الذين يحاولون محو ما أضافته العصور الوسطى الى معتقداتهم الاسلامية وهو لا يريد إلا فراشا من الصخر ، لذلك ترى أن موقفه ومجهوده دقيقين بين ثلاثة عناصر متباينة .

أما من حيث المسألة الشائعة فى الاسلام مسألة العودة للمبادىء الأولى ونبذ التجديد مهما دعت الضرورة اليه فان الملك الوهابى من رجال هذا الرأى وهو يقول بأن حرية العمل مباحة فيما لا يمس نصوص القرآن ولكن حيث يأمرنا الكتاب المقدس يجب أن نطيع بلا مناقشة هذا هو دينه ، هذا هو ايمانه ، ولتعزيز مركزه بين المسلمين قد ميز عن سائر قادة الرأى فيهم بانه يحكم البلاد الطاهرة وبذا يستطيع أن يؤثر على الألوف بل على الملايين من المسلمين لأن مكة فى وقتنا هذا ليست مجرد مكان يلتقى فيه المسلمون لأداء فرض من فروض الدين ولكنها مكان يضم شتات الشعوب العربية وينبع منه الايحاء وتنبيه الأفكار ولم تكن كذلك قبل اليوم . وستذهب أفكار الطوائف المختلفة عن الوهابيين بما يرونه فى مكة من أساليب الاصلاح .

على أن امتلاك الأراضى المقدسة ليس وحده سبب هـذا التأثير فقد ستطاعت الامبراطورية الوهابية الأولى أن تخلق كثيرا من المهتدين من غير العرب، ففى الهند مثلا ظهرت حركة وهابية قوية فى مستهل القرن التاسع عشر وقبل استيلاء البريطانيين على اقليم البنجاب ولايزال بين الهنود من المسلمين عدة نفر يعتنقون مبادىء الوهابيين وإن كان هذا الاسم لايطلق عليهم وأولئك هم أهل السنة وهم أتباع الهنود الوهابيين الأوائل، وقد دل الاحصاء على تزايد عددهم. كذلك الحال فى جزر الهند الشرقية الهولاندية، فقد عاد الحجاج فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يتقدون حماسا لما رأوه فى مكة وصمموا على تطهير الاسلام واتباع سبيل إخوانهم، وفى السودان ظهرت حركة من هذا القبيل، فالسنوسيون الذين تفشوا لا فى شمال أفريقيا وبلاد العرب فحسب بل فى اقليم الملايو دفعهم إلى الظهور قوة الامبراطورية الوهابية الأولى.

وإذا كان هذا الأثر قد ظهر على يدى الوهابيين الذين لم يكونوا متحدين مثقفين فمن يدرى إلى أين يمتد أثر النظام الذى يحمل لواءه الملك عبد العزيز هذا الملك العاقل الحكيم ؟

يتساءل بعض الناس قائلين : أليس نظام «ابن سعود» من وضع رجل واحد ؟ وهل ينتهى هذا النظام بعد موت صاحبه ؟ أليست الوهابية فى ذاتها مجرد اشتعال فكرة فى الصحراء شأنها شأن كل النظم التى تتمدد فتنفجر فتصبح أثرا بعد عين ؟

والآن يمكن القول بأن امبراطورية الوهابيين الحاضرة من صنع «ابن سعود» وحده فحقيقة ساعدته بعض الظروف المناسبة ولكنه بنى الهيكل الرئيسى بيديه لا بأيدى الآخرين ولم تدفعه أطماحه الذاتية الى بناء هذا الهيكل

ولكنه قام مدفوعا بقوة الدين، ولو أن هذه القوة دفعت شخصا غيره لخرت معه صريعة فى بلاد العرب ، وهذه القوة بلا شك ستبقى فى أواسط الجزيرة بعد موته مهما كانت الأحوال على أنه لم يصل الى صولجان الحكم إلا بمهارته فى القيادة وحسن ادارته وهو يجاهد الآن ليجعل هذه القوة أبدية بعد موته رافعة جدران ملكه .

سقطت الامبراطورية الوهابية الأولى وتزلزلت لأن دولة اسلامية أخرى وهى الدولة المصرية قد غزت بلاد العرب وقضت على الوهابيين ولكننا لا نظن أن تاريخ اليوم يعيد تاريخ الماضى فى هذه الحادثة ولا نعتقد أن دولة من دول الاسلام فى الوقت الحاضر تستطيع مهما رغبت فى ذلك أن تغزو الحجاز ونجداً، فان أسباب هذا الغزو ليست ميسرة من الوجهة المادية كما أن الكراهية التى أثيرت ضد الوهابيين الأوائل لم تعد قائمة ولكن أمرا واحدا يهدد هذه الامبراطورية بالزوال ألا وهو التفكك فى داخليتها .

ونحن نستطيع أن نرد على أولئك الذين يظنون أن هذه الامبراطورية السعودية ليست إلا وميض ثم يختفى وأنها غير ثابتة وسريعة الزوال بكلمة واحدة وهو أن العالم الاسلامى فى تدينه لن يتجه وجهة الزهد والنسك فلا قدرة له على احتمال صبر النجديين وقد أتيحت للاسلام أكثر من مرة فرصة التصوف ولكنه أبى أن يتصوف ولكن إذا ظلت نجد كما كانت من قبل قائمة على أسس جامدة فان بلاد الحجاز ستصبح هى الأخرى محصورة فى اطار من حديد الزهد وسيدخل فى هذا الاطار ألوف المسلمين الذين يحجون الى مكة كل عام ولن تسمح طبيعة الشعب الحجازى ولا تقاليده بوجود هذا العائق الى غير نهاية . فاذا ما استمر دين الوهابيين هنالك فلابد لها من أن تستضىء بالنور وتتشبع بالمرونة وذلك يكون بالتعليم فليس هناك مايدلنا على

ان هذا العمل قد بدأ بالفعل. والتعليم وحده يجب أن يستخدم فى إصلاح التصوف وقد يظهر هذا الرقى تحت تأثير الضغط الاقتصادى خصوصا وأن عدد السكان فى نمو مطرد ولكن هذه العملية تحتاج الى زمن طويل ولا يمكن تهذيب طبيعة أهل المدن والبدو فى جيل واحد.

وقد عرف التاريخ أعمال المتصوفين بصفة عامة وكثيرا ما استتبعت هذه الأعمال برد فعل قوى الأثر ولكن التصوف فى البادية العربية يختلف عنه فى الجهات الأخرى، فان الزواجر التى ينطوى عليها مذهب «ابن سعود» تسبب للوهابيين كثيرا من المتاعب لأنها ليست مجرد كلام بل هى أوامر تعززها قوة القانون على أن سكان البادية لا تتاح لهم فرصة الاغراق فى الذنوب والانهماك فى اللذات، فقلما تسمح طبيعة الصحراء لقاطنيها بالخروج عن جادة الدين على انه اذا سقطت الامبراطورية الوهابية فلن يظهر الاصلاح بل ستحل الفوضى محلها.

وللفوضى خطر ليس من السهل تجنبه فان «ابن سعود» الذى لا تتفق أعماله مع غرضه فى دوام ملكه من بعده يفهم جيدا طبيعة العرب، ويفهم أن نزعاتهم كفيلة باسقاط أية دولة تقوم على أساس القبيلة. على أنه بعد تفكير طويل فى هذا الموضوع وضع نظاما لاصلاح حركة المهاجرين، وهو يقضى باستقرار البدو الرحل فى الأراضى. ولكن هذا النظام لا يخلو من النقص لأسباب جغرافية فان عددا كبيرا من البدو يسالم فى وقت الرخاء، ولا يسكته فى وقت القحط إلا الخوف من غضب الحاكم وسخطه. وأولئك الرجال هم أصل المشاكل فى امبراطورية الوهابيين؛ فهل من وسائل تضمن سعادتهم من الناحية الاقتصادية؟

نحن لا نستطيع التخمين ولا نستطيع التنبؤ بعدد السنين التى تبقى فيها بلاد العرب بلادا بدوية على أن القبائل فى الأجزاء الشمالية من الجزيرة وهى

أكثر الجهات نصيبا فى الحضارة يشتد ميلها للاستقرار وتعمير الأراضى . وهذه ظاهرة واضحة فى العراق فحتى فى السنوات الأخيرة تحول البدو الرحل إلى زراع ، وإذا كان من الممكن الاعتماد على التربة فى بلاد الهزا ؛ فهل هذا ميسور فى بلاد نجد ؟

من رأيى أن المشكلة التى يواجهها «ابن سعود» ليست دينية فى أساسها وليست ذات خطر من الوجهة السياسية بل هى مشكلة اقتصادية فى جوهرها فان الاقتصاديات فى سائر الأزمنة وفى سائر البلاد أكثر أهمية وقوة تأثير من الحوادث السياسية ، ولا يكفى لبقاء مملكة من الممالك قائمة أن تكون مبنية على أساس دينى ، ففى الدائرة الدينية يستطيع الملك عبد العزيز بشخصيته العظيمة أن يوفق بين رغبات النجديين ورغبات الحجازيين . وفى هذين البلدين يتجلى الفرق بين التصوف العميق ، وبين التصوف المزود بنور العلوم ، ولكن عبد العزيز يستطيع مواجهة هذا الفرق ، أما فى الدائرة السياسية فقد استطاع أن يذلل سائر العقبات ، فليس هناك ما يدعو للتشاؤم من هذه الناحية .

بقيت الناحية الاقتصادية . فالحج كما أسلفنا يعتبر مورد بلاد العرب الرئيسى ولا نعرف هل يأخذ هذا المورد فى الزيادة أو يتناقص فى الأعوام المقبلة ؟ فيؤكد البعض بأن تقدم المسلمين فى المعارف والعلوم سيؤدى إلى نقصان عدد الحجاج خصوصا وأن الحج أصبح عملية سهلة ميسرة وهذا النفر ممن يرون هذا الرأى يقولون بأن الفكرة السائدة عند المسلمين أنه كلما كان الطريق إلى مكة عسيرا كان ثواب الحج عظيما وأنه إذا مدت الخطوط الحديدية لنقل الحجاج إلى البلاد المقدسة ومنها فان المسلمين سيعتبرون رحلة الحج أمرا تافها لا يستحق الاهتمام [1]

---

(١) هذا استنتاج معكوس فى نظرى فكلما تيسرت الطرق الى مكة كلما تزاحم المسلمون على البلاد المقدسة فاننا جميعاً نرغب فى أداء الفريضة ولا يمنع أكثرنا الا تخاوف الطريق ونفقاته — ويظهر لى أن أصحاب هذا الرأى يريدون الحيلولة بين بلاد العرب وبين مظاهر المدنية والرقى بطريق خفى ، ولكن قل أن يصلوا الى غرضهم وقد قيض الله لها عاهلها العظيم عبد العزيز بن سعود .

ولكن هذا القول لا يخلو من الظن والتخمين فقد قيل إن سكة الحج التى مدت من دمشق إلى المدينة قد ترتب عليها قلة عدد المسافرين إلى الحجاز قبل الحرب ولكن ليست لدينا إحصائية تثبت صحة هذا القول . وإذا كنت قد سددت أفكار أولئك المتشائمين فقد دفعنى إلى ذلك تقدير الحقيقة وهى أن الاعتماد على الحج كمورد أكبر للبلاد يؤدى إلى كثير من المصاعب ضد المسئولين عن خزينة المملكة السعودية . ومن ناحية أخرى يعتبر الحج فرضا ثانويا من فروض الاسلام .

وماذاهنالك بعد ماتقدم عن نجد والحجاز ؟ أتجارة اللؤلؤ ؟ ولكن اللؤلؤ الذى كان فى الماضى مصدر الثروة فى الموانى الوهابية الواقعة على الخليج الفارسى قد تضاءل مع الأسف ، ومع هذا يمكن إحياء هذه التجارة من جديد وهنا لك ماهو أعظم من هذا وهى تجارة الجمال التى كانت فى القرون الغابرة متفشية بين نجد وجاراتها . ثم انحصرت فى سوق ضيق بحيث لايطمح فيها الآن . وذلك نتيجة التغيير الذى طرأ على جزيرة العرب حتى أن قبائل العراق قد استعملت الجمال فى الزراعة . وماذا عن الزيت فى الهزا والمناجم فى الحجاز إنها مجرد آمال وليست ناحية من النواحى العملية .

لذلك فان المشكلة اقتصادية بحتة كما ذكرنا أكثر من مرة ، ولا ينتظر أن تتسع الحجاز ونجد اتساعا يليق بتزايد السكان فان الله لم ينعم على هذه الأراضى من الناحية المادية .

وغاية مايمكن أن يقال انه إذا ظهر رجل يخلق فى هذه الفيافى القفار منبعا للرزق لاينضب كما أوجد الملك عبد العزيز سلما وطمأنينة لاينتهيان فهذا الرجل هو عبد العزيز الذى ننشده .

ملحق

خاص بالحرب بين بلاد اليمن والمملكة السعودية

العلاقات الجغرافية والتاريخية بين البلدين

فى شمال الحجاز وعلى شاطىء البحر الأحمر تقع منطقة عسير وإلى جانبها بلاد اليمن وقد رأينا قبل الافاضة فى موضوع الحرب الأخيرة بين الامامين يحيى وعبد العزيز أن ننقل ملحقا عن حقيقة حدود عسير واليمن من الوجهة الجغرافية والتاريخية . ورد فى نهاية الكتاب الأخضر الذى أصدرته المملكة العربية السعودية ما نصه : —

عدم وجود حواجز طبيعية

ان تقسيم المناطق فى معظم الجزيرة لا يستند على الأسس التى يصح اتخاذها فى البلاد الأخرى أساسا للحدود السياسية أو العرقية أو الدينية أو التاريخية . وليس من المستطاع تفريق سكان مقاطعات الجزيرة المختلفة الى وحدات اتنوغرافية أو عرقية أو هيئات دينية ولسانية وما الى ذلك . فان الجزيرة وحدة جغرافية مستقلة لبعض مقاطعاتها صفات طبيعية خاصة إلا أنها لا تخرجها عن حظيرة الوحدة الكبرى

عدم وجود خواص عرقية أو لسانية

وسكان الجزيرة عرب قبل كل شىء ولا توجد بينهم فوارق — اللهم إلا فى بعض اللهجات المحلية البسيطة — كالفوارق العرقية أو اللسانية التى يتميز بها

السكسونى من اللاتينى ، والصقلبي من السلافى ، والمغولى من الهندى ، والحبشى من السودانى

عدم وجود فوارق دينية

والديانة السائدة فى الجزيرة هى الديانة الاسلامية الغراء لايشاركها دين آخر ولايقاسطها عقيدة أخرى كالنصرانية واليهودية وسواهما ، ومع امكان وجود مذاهب معينة فى بعض البقاع الا أن ذلك لايخرجها عن صفتها الاسلامية التى تلازمها ملازمة شديدة .

وحدة التاريخ

وليس من شك فى أن الماضى يجمع بين أجزاء الجزيرة ونواحيها والتاريخ يوحد بين نعنعاتها وتقاليدها .

وحدة النعنعات والتقاليد

والماضى المشترك للجزيرة كان من شأنه أن ألف بين العادات والتقاليد منها طرازاً عاما بين سكان الجزيرة ، خاصا بهم عند المقايسة بالشعوب الأخرى .

التقاسيم الطبيعية فى الجزيرة اصطلاحية وعرفية

وجميع ماهو مشاهد ومتعارف ومتواضع عليه من التقاسيم بين أجزاء الجزيرة العربية ان هو الأثر الاصطلاح والعرف ، اصطلح عليه أبناء العرب أنفسهم آخذين بعين الاعتبار العارض الطبيعى الأكثر بروزاً فى الجزيرة وهو سلسلة جبال السراة التى تحجز بين الغور وهو تهامة ، وبين نجد «انظر معجم البلدان ج ٥ ص ٥٩ وصفة جزيرة العرب ص ٤٨ » وسميت سلسلة السراة حجازاً لأنها حجزت بين نوعين من الارض : المنخفضة وهى تهامة ، والعالية

وهى نجد . ولا يوجد فى كتب العرب ومؤلفاتها ما يدل أوما يمكن أن يفسر بأنه قابل للدلالة على امكان وضع حد معين فى سلسلة السراة يقسم بين أجزائها الى ما يسمى : يمن ، وحجاز . وجميع تعريفات الجغرافيين المتقدمين تدل على أن هذه السلسلة التى تمتد من أقصى الشمال وتنتهى بقرب البحر المحيط الهندى تسمى حجازاً لانها حجزت بين نوعين من الارضين كما مر .

لفظة شام ويمن

الاصطلاح المتفق عليه فى جزيرة العرب أن يطلق على سائر البقاع الواقعة الى جنوب الحرم المكى اسم « اليمن » معبرين بذلك عن وقوع تلك البقاع على يمين الكعبة كما أنه يطلق على سائر البقاع الواقعة إلى شمال الحرم اسم «الشام» فالبلاد القريبة جدا من مكة إلى جنوبها والبعيدة عنها أيضاً سواء فى نظر هذا الاصطلاح ، جميعها «يمن» فالليث وغامد وزهران والقنفذة وابها وصنعاء كلها يمن بالنسبة إلى مكة . ومثلها يقال فى بلدان الشمال فالمدينة وينبع وضبا والعلا والوجه ودمشق نفسها كلها شام بالنسبة إلى مكة . ويفهم من هذا أن كلمة «شام» و «يمن» يعبر بها عن جهة الشام «معناها الشمال» واليمن «معناها الجنوب» يؤيد هذا الاستعمال ما ورد فى كتب البلدان لابن الفقيه ص ٣٣ ومعجم البلدان ج ٨ ص ٥٢٢ وصفة جزيرة العرب ص ٥٠

اليمن وعسير وتهامة فى الجاهلية

أما تقسيمات الجاهلية فانها لم تكن تقسيمات طبيعية كما قلنا وإن كانت قائمة على اعتبار الحكومات القبائلية التى كانت تسود كل بقعة منها وهو تقسيم كثير الشبه بالتقسيمات الاقطاعية التى لا تشمل المناطق كلها .

اليمن وعسير وتهامة فى الاسلام

جاء فى كتاب المسالك والممالك (ص ١٣٥ و١٣٧ و١٨٧ من طبعة أوربا):

أن الحد بين عمل مكة وبين اليمن كان وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم وجعله طلحة الملك بين «سروم راح»[1] والمهجرة، وطلحة الملك حيث كانت توجد شجرة تشبه الغرب حجز بها صلى الله عليه وسلم بين اليمن ومكة.

أما المهجرة فقد ذكر ياقوت الرومى فى معجم البلدان انها بلد فى أول أعمال اليمن بينها وبين صيدة عشرون فرسخا. ولا يزال هذا المكان معروفا إلى وقتنا الحاضر وتقع بالقرب منـــه بلدة باقم أول قرية فى بلاد اليمن بعد اجتياز حدود عسير السراة.

أما نجران فانها كانت من أعمال مكة أيضاً بدليل ما ورد عنها فى كتاب تاريخ مكة للفاكهى «ص ٥٠ طبعـة أوربا» وكتاب ابن خرداذبة المسمى بالمسالك والممالك «ص ١٣٣ طبعة أوربا» وذكرها أيضاً ابن واضح اليعقوبى فى كتاب البلدان «ص ٣١٦ طبعة أوربا» حين تعداده الأعمال التى كانت تابعة لمكة.

وذكر ابن واضح اليعقوبى فى كتاب البلدان «ص ٣١٦» أن السراة[2] وأهلها الأزد كانت من أعمال مكة أيضاً.

أما من جهة تهامة والساحل فقد ورد فى تاريخ مكة للفاكهى «ص ٥٠»

---

(١) «سروم راح» هى: قرية عظيمة فى صحراء فيها عيون وكروم «المسالك والممالك ص ١٣٥ - ١٨٩، ومعجم البلدان ج ٥ ص ٢٥٨»

(٢) قال ياقوت: وقال أبو عمرو بن العلاء أفصح الناس أهل السروات وهي ثلاث وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن أولها هذيل وهى تلي السهل من تهامة ثم بجيلة، وهى السراة الوسطى وقد شركهم ثقيف فى ناحية منها ثم سراة الازد، أزدشنوءة وهم بنو كعب ابن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الازد «معجم البلدان ج ٥ ص ٦١»

أن عمل مكة كان يشمل بلاد عك . وذكر مثل ذلك ابن الأثير فى تاريخه الكامل «حوادث عام ١٩٧ هـ» وذكر ابن واضح اليعقوبى المشار إليه آنفاً «ص ٣١٦» إن من أعمال مكة ببش [١] و . . . وعثر [٢] وجدة وهى ساحل البحر .

حـــدود اليمن

منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ٢٠٤ هجرية

من المعلوم المقرر فى كتب التاريخ أن تقسيمات اليمن الادارية فى الاسلام كانت عبارة عن ثلاثة مخاليف ، الأول مخلاف صنعاء ، وحدُّه من جهة الشمال ما ذكرناه عنـــد شجرة الغرب وسروم وطلحة الملك ، والثانى مخلاف حضرموت ، والثالث مخلاف الجند . وكل هذا يدل صراحة على عدم صحة الادعاء الواقع بنسبة تبعية عسير وتهامة لليمن .

حدود اليمن إلى قيام حكومة آل سعود

ومنذ عام ٢٠٤ للهجرة قامت فى اليمن حكومات موضعية عديدة منهـا حكومة آل زياد ، وحكومة بنى نجاح ، وحكومة الصلحية ، وحكومة آل أيوب ، وحكومة بنى رسول ، وحكومة بنى عامر ، وحكومة أئمة الزيود ، ثم جاءت الحكومة العثمانيـة فاستولت على اليمن كافة . وكانت الامامية الزيدية احدى هـذه الحكومات قامت فى منطقة بعض الجبال التى تحتلها اليوم ومركزها فى الغالب شهارة أو صعدة ولم يكن لها من النفوذ والسلطان ما يمكن من عدها حكومة شاملة لليمن كله .

---

(١) وادى ببش : بقرب صبيا ولا يزال معروفاً بهذا الاسم الى يومنا هذا .

(٢) عثر : هو المكان المعروف اليوم «قوز الجعافرة» يبعد ٣٢ كيلو متراً الى الشمال من جيزان .

ومنذ قيام الحكومة العثمانية وتأسيس سلطانها فى اليمن على عهد السلطان سليمان القانونى أصبح اليمن قطعة من السلطنة العثمانيـة ولم يعد لأئمة الزيود حق الكلام بصفة حكومة مستقلة وانسحب الائمة الزيود إلى مناطق بعيدة عن العمران وأصبحوا عبارة عن فقهاء وأئمة دين ليس لهم فى الحكومة أمر .

حدود عسير واليمن

منذ قيام آل سعود إلى الوقت الحاضر

وقد جعل الاتراك عسيرا متصرفية مستقلة مركزها ابها ، ويتبعها ستة أقضية وهى : بنى شهر ، وغامد ، ورجال المع ، ومحايل ، والقنفذة ، وصبيا . واستمرت هـذه التقسيمات الأساسية إلى هذه الأيام .

أما الحد الفاصل بين اليمن وعسير فهى ممتدة من ميدى إلى شمال صعدة إلى حدود نجران ويام الجنوبية وهى الحدود المتعارفة فى العصور الأخيرة .

موضوع النزاع وأدواره (١)

يقول الأستاذ آرمسترونج : إن اليمن خاضعة لسيادة رجل مستبد يكره الوهابيين . ولا ندرى مبلغ صحة هذا القول فان مايكتبه الانجليز فى بعض الأحيان ولو كان صحيحا يجعلنا نقف موقف الحيرة والتردد لأنهم لايتورعون فى كثير من الأحيان عن إثارة الفتنة والاغيار لفريق ضد أخيه لاضعاف الفريقين ولو أدى ذلك إلى إنكار الحقيقة لأن لهم مغنما فيما يكتبون . ونحن لايهمنا أن يوصف الامام يحيى بالديموقراطية أو الأوتوقراطية وإنما يهمنا

---

(١) استقينا أغلب هذه المعلومات من الكتاب الاخضر ، الذى أصدرته المملكة العربية السعودية سنة ١٣٥٣ هجرية

البحث فى ظروف الحرب الأخيرة لنجعل من موضوعها مجالا لتحليل الشخصية التى نحن بصدد دراستها وفحصها . وأما كون الامام يكره الوهابيين فهذا لا يصح أن يكون أساسا لخلاف يؤدى إلى الحرب التى رأيناها وإنما نعتقد أن موضوع النزاع منفعة مادية ظل يتجاذبها الطرفان وقتا طويلا فلما أفلست سياسة حسن التفاهم بينهما حلت محلها القوة الغاشمة .

ولا شك أن محور النزاع هو منطقة عسير المجاورة لليمن . وهى بلاد فقيرة تكثر فيها المجاعات وقد انضمت إلى نجد فى سنة ١٩٢١ كما أنه قد عقدت اتفاقية بين جلالة الملك «ابن سعود» وبين السيد حسن الادريسى فى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢٦ وهى التى بسطت الحماية السعودية على تهامة واتفق على أن يحتفظ الامام يحيى بالجزء الواقع تحت يده .

وقد رضى «ابن سعود» بذلك رغبة فى الاحتفاظ بحسن العلاقات مع جيرانه خصوصا وأنه لا يميل إلى الحرب ومخاصمة إخوانه المسلمين .

ولذلك أرسل وفدا مؤلفا من ثلاثة أشخاص إلى صنعاء لمفاوضة الامام يحيى فى الوصول إلى اتفاق ودى فقال اليمانيون : ان منطقة عسير جزء من بلادهم وأن الأدارسة دخلاء مغتصبون وأن اليمن لا تعترف ببسط الحماية السعودية على المقاطعة الادريسية وقال مندوبو «ابن سعود» ان بلاد الأدارسة جزء من تهامة عسير ، وعسير ليس من اليمن وطالبوا باعادة الجزء الذى يحكمه الامام يحيى إلى المقاطعة الادريسية .

وقد عاد الوفد إلى مكة وأخبر مليكه بما حدث فأصدر إليه الأمر بالرجوع إلى صنعاء للاتفاق على إبقاء الحالة الراهنة ووضع الترتيبات التى تعين خط الحدود الفعلية بين المقاطعة الادريسية وعسير ونجران من جهة ، وبين اليمن من جهة أخرى .

وبعد مناقشات طويلة عاد الوفد من صفاء ومعه ثلاثة مندوبون من قبل الامام يحي إلى مكة المكرمة وقد دارت بين الطرفين مباحثات طويلة لم تسفر عن نتيجة إذ تمسك الوفد العربى بأن تكون الحدود التى من جهة المقاطعة الادريسية فى تهامة والتى من جهة عسير الجبلية على ماهى عليه، «كل من تحت يده شيء فهو له» وأجاب الوفد اليمانى أنه لاصلاحية لليمن إلا فى إقرار الحالة الراهنة فى تهامة، لافى عسير.

وقد ورد بعد ذلك فى كتاب من جلالة الملك «ابن سعود» إلى الامام يحي ما نصه شرحا للنقط التى يجب أن تكون محور الاتفاق «أولا: إننا نحب الاتفاق مع حضرتكم ونرى أن ذلك أنكى للعدو وأسر للصديق. ثانيا: إننا ليس لنا أغراض أو مطامع سواء فيما يتعلق بشخصكم أو بوطنكم وكل ما نرمى اليه هو السعى للاتفاق وراحة وطنكم ورعيتكم. ثالثا: إننا بقدر ما نستطيع سنمنع كل ما يوجب سوء التفاهم، أو يحدث المشاكل بيننا وبينكم، واننا سنبذل جهدنا فى توطيد السلام وتثبيت أركانه وانه لن يحدث منا أى حادث يكدر صفو السلم إلا ما يوجبه الدفاع عن الكرامة والشرف وكل ما لدينا قد أبديناه شفاها لمندوبكم»

وقد ظلت العلاقات ودية بين البلدين الى سنة ١٣٥٠ هـ. أى الى أن وقعت حادثة «العرو» وخلاصة هذا الحادث أن أمير جيزان شكا من تقدم جنود اليمن الى جبل العرو التابع للمقاطعة الادريسية وأخذت الرهائن من أهله وأن عمال الامام يحي يحرضون زعماء المقاطعة على وجوب الطاعة للامام يحي والخروج عن طاعة «ابن سعود» فأبرق «ابن سعود» الى ملك اليمن بهذا النبأ فأجاب الامام يحي «إن أهل عرو هم الذين طلبوا منه احتلال بلادهم لتعليمهم الدين» فاقترح «ابن سعود» أن يعقد مؤتمر لحل المشكل.

وعقد المؤتمر من غير فائدة وأخيرا أبرق الامام يحي الى «ابن سعود»

يطلب حكمه بنفسه ويقول : ان هذا الحكم قطعى مقبول . ومنعا للنزاع تنازل «ابن سعود» عن جبل عرو للامام يحيى . وفرح الامام يحيى بذلك ثم اجتمع المندوبون ودارت مباحثات طويلة انتهت بتوقيع المعاهدة الآتى نصها فى ٥ شعبان سنة ١٣٥٠ : —

(المادة الأولى) أن يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم إدخال الضرر بلاد كل منهما على الآخر

(المادة الثانية) يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية كل حكومة عند طلب حكومته له.

(المادة الثالثة) يكون على كل من الدولتين معاملة رعايا الدولة الأخرى فى بلادها فى جميع الحقوق طبق الأحكام الشرعية .

(المادة الرابعة) يكون على كل من الدولتين الضبط والتسليم لرعايا الدولة الأخرى فى كل الحقوق الشرعية فما أشكل ولم ينهه الأمراء والعمال فمرجعه الى الملك والامام .

(المادة الخامسة) على كل من الدولتين عدم قبول من يفر عن طاعة دولته كبيرا أو صغيرا مستخدما أو غير مستخدم وإرجاعه الى دولته حالا

(المادة السادسة) إذا حدث حادث من أحد رعايا الحكومتين فى بلاد أخرى فعلى المحدث أن يحاكم فى المحاكم التى وقع فيها هذا الحادث

(المادة السابعة) منع الأمراء والعمال عن التداخل بالرعايا مما يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين

(المادة الثامنة) إن كل من يسكن من رعايا الطرفين فى بلاد الآخر بعد هذه الاتفاقية وتطلبه حكومته فانه يساق إلى حكومته حالا .

ولكن حدث أن قامت حركة ابن رفادة فى أوائل سنة ١٣٥١ هـ فانتهز

اليمانيون هذه الفرصة للاخلال بنصوص المعاهدة إذ اتخذ بعض المفسدين بلاد اليمن مقرا لحركاتهم للقيام بفتنة اخرى فى الجنوب إلى جانب فتنة ابن رفادة فى الشمال . فكتب «ابن سعود» إلى الامام يحيي يذكره بنصوص المعاهدة وما توجبه عليه من ضرورة إخراج هؤلاء من بلاده قائلا : وقد بلغنا أن أناسا منهم الباغين وصلوا بلاد الأخ فأرجو قطعا لدابر الافساد فى بلاد العرب وانفاذا للعهد الذى كان بيننا وبين الأخ مؤخرا أن يأمر بالقاء القبض على الموجود منهم فى بلاده وتسليمهم إلينا ، وأن يأمر بمنع دخول الباقين منهم إلى بلاده . فجاء جواب الامام يحيي غير شاف مما دل على تشجيعه لأنصار الفتنة

وتكرر نقض الامام يحيي لشروط المعاهدة لما التجأ الادريسى ورجاله لحدود اليمن ، فكان عليه أن يقبض على أمثال هؤلاء ولكنه ماطل فى تسليمهم وأراد أن يتوسطهم عند جلالة «ابن سعود» طالبا لهم العفو والأمان فلما عفا عنهم العاهل العظيم عاد الامام يطلب لهم المرتبات من خزينة المملكة السعودية فوافق «ابن سعود» على تخصيص ما يلزم لهم من إعانات ، وكان هذا دليلا على نبله وشهامته وعفوه عمن أساء .

بل أخذ يسعى إلى عقد معاهدة سلمية دفاعية عن البلدين ، وأرسل من قبله رسولا بهذا الخصوص إلى الامام ، فلما اطلع الامام على الأسس التى اقترحها «ابن سعود» ليقوم عليها الاتفاق رضى بها ، وقد كان «ابن سعود» مخلصا لغاية سامية وعبر عن ذلك بقوله فى كتابه إلى الامام : غير خاف على الأخ أنه لم يبق فى ديار الاسلام والعرب دولة قائمة محافظة على استقلالها غير ما بيدنا و يدكم من بلاد العرب وإنا وإياكم محط أنظار العدو والصديق الصديق ينظر إلينا بعين الاشفاق ، والعدو يتربص بنا وبكم وبالاسلام والمسلمين الدوائر من وراء تخاذلنا وتشاحننا ، فاذا لم نكن معاً يداً واحدة لعمل اتحاد

بيتنا طمع فينا وفيكم عدونا ويئس الأصدقاء من أمرنا وأمر العرب جميعا ، وإنى على يقين أن هذا متحقق عند الأخ ، وأنه يعلم أن هذا من النصح لنا وله وللعرب والاسلام.

وقد سأل الامام يحيى عما إذا كان يوافق على إرسال وفد إلى صنعاء ، فأجاب الامام بالترحيب ولكن ما كاد الوفد السعودى يدخل الحدود اليمانية حتى شاهد الزينة والفرح تعلنه الحكومة رسميا ابتهاجا باحتلال نجران غير ناظرة إلى ما فى ذلك من عدم اللياقة والخروج على الآداب السياسية ؛ ولكن أعضاء الوفد لم يعبأوا بتلك الصغائر لأنهم يريدون السلام والوئام .

والغريب جدا أنهم لما دخلوا صنعاء ضيق عليهم الخناق و وجهت لهم الاساءة علنا مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ العلاقات الدولية ولا فى تاريخ دول الاسلام وتبين أن الامام يطمع فى الاستيلاء على نجران وعسير وتهامة فأراد الوفد العودة إلى بلاده ، ولكن حيل دون عودته ، ولولا أنه استطاع أن يرسل الخبر إلى مليكه سرا لحدث ما لا تحمد عقباه . وقد عاد بعد أن حجر عليه طويلا

وبعد عودة الوفد السعودى دارت مفاوضات طويلة وجرت مخاطبات بين الامامين ، وأخيرا تطورت الوقائع من ناحيتين : الأولى أن الجيش اليمانى تهور فى أعماله بنجران فجعل يحرق القرى ، ويعتدى على الأهالى ، ويتوغل فى أطراف البلاد مستعملا الحديد والنار ضد الأبرياء الوادعين . ثانيا اكتشفت مراسلات عديدة بين اليمن وبعض رجال القبائل فى حدود البلاد السعودية من جهة تهامة وعسير تحريضا على الفتنة وثبت أيضا وجود بعض الجواسيس ودعاة الفساد .

فما كان من «ابن سعود» إزاء العدوان إلا أن أصدر أوامره إلى بعض قواته العسكرية بالتوجه إلى الحدود والمرابطة على مقربة منها واتخاذ التدابير

اللازمة لدفع ما يمكن حصوله من أعمال العنف ، وعين الأمير فيصل بن سعد نجل شقيق «ابن سعود» قائدا عاما للجند المكلف بالمحافظة على الحدود تطمينا لرعاياه .

وقد جرت مراسلات عديدة بين المملكتين لحسم النزاع وأرسلت اليمن وفدا إلى أبها للمفاوضة على موضوع معاهدة سلمية ، ووصل هذا الوفد فى اليوم الثانى من ذى القعدة سنة ١٣٥٢ وتبودلت برقيات بين الملكين أثناء المفاوضة لايتسع المجال لنشرها رغم ما تتضمنه من حقائق مفيدة . وأخيرا أرسل الامام يحيي إلى رجاله يأمرهم بالعودة . وحيث أن خط الحرب ممتد على طول الجبهة اقترح على رجاله أن يكون سفرهم بحرا .

قضية بلاد يام ونجران

تعتبر مشكلة نجران وسائر بلاديام من أهم العوامل المؤدية إلى الاختلاف والنزاع فالحرب بين المملكة السعودية واليمن . وهذه البلاد يفصلها عن اليمن من الجنوب جبال نجران المرتفعة وتؤلف بينها سلسلة صعبة المرتقى والاجتياز إلا من بعض عقبات هى الممرات الوحيدة التى يمكن سلوكها للانتقال من اليمن إلى نجران وبالعكس .

علاقة هذه البلاد بآل سعود

نظرا لوقوعها بقرب بلاد الدواسر فان علاقاتها بنجد كانت من قديم الزمن قوية جدا . وقد اشتدت هذه العلاقات فى عهد الحكومة السعودية الأولى . فان أهل يام انتصروا لأخصام آل سعود فكان لزاما على السعوديين أن يوطدوا علاقتهم مع يام على أساس ثابت . فخضعت يام لسعود الكبير وعاهدته فحرر لأهلها وثيقة ما زالوا يحافظون عليها ويتوارثونها وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود الى جناب الاشراف : حسين بن ناصر ، وحسن دهشا ، وحمزة ، ومحمد بن حسن ، وحسن احمد ، ومقبل بن محمد ، وصالح بن عبدالله ، واحمد معوض واحمد على بن شما ، وصالح بن حسين مجلى ، سلمهم الله من الآفات ، واستعملهم بالباقيات الصالحات .

وبعده الفا علينا مقبـل بن عبدالله واشرف على ما نحن عليـه وما ندعو اليـه ، وما نأمر به وما ننهى عنه ، ويصف لـكم من الراس أكثر مما فى القرطاس ان شاء الله ، ونخبركم انا متبعين لا مبتدعين نعبد الله وحده لا شريك له ونتبع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه ونقيم الفرائض ونجبر من تحت يدنا على العمـل بها وننهى عن الشرك بالله وننهى عن البدع والمحرمات ونقيم الحدود ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونأمر بالعدل والوفاء بالعهود والمكاييل والموازين وبر الوالدين وصلة الارحام هذا صفة مانحن عليـه وماندعو الناس اليـه فمن أجاب وعمل بما ذكرناه فهو أخونا المسـلم حرام المال والدم ومن أبى قاتلناه حتى يدين بما ذكرناه وأنتم أخص الناس باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والحق عليكم أكبر منـه على غيركم والاسلام هو عزكم وشرفكم كما قال الله تعالى (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) وقال تعالى (وانه لذكرلك ولقومك وسوف تسألون) فالمأمول فيكم القيام والدعوة الى الله لان الدعوة سبيل من اتبعه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (قل هـذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) وقال تعالى(ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين) ونسأل الله أن يجعلنا واياكم من الداعين

اليه والمجاهدين فى سبيله لتكون كلمته العليا ودينه الظاهر وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الختم

الواثق بالله سعود

ولما ضعف حكم آل سعود فى نجد أصبح أمر اليامية إلى زعمائهم وكانوا تابعين بصفة اسمية للعثمانيين إلا أن الدولة العلية لم تنفذ سلطانها عليهم ولم يتمكن حكامها فى أبها وصنعاء من التوغل فى بلادهم والحقيقة أن أمرهم كان سائرا حسب التقادير والظروف فان منهم من خدم بعض الأئمة فى حروبهم ضد المملكة السعودية .

وقد وفق «ابن سعود» إلى استعادة ملك آبائه وأجداده فى جهات عسير وتهامة واليمن فى سنة ١٣٣٨هـ

وفى عام ١٣٣٨ أوفد جلالة الملك وفدا الى السيد محمد على الادريسى لتحديد الحدود وعقد معاهدة صداقة فوفق الوفد فى مهمته واعترف السيد محمد على بأنه لم تبق له علاقة ببلاد يام ووادعة وسجل ذلك الاتفاق فى المعاهدة التى ننشر نصوصها لأول مرة فيما يلى :

معاهدة ١٣٣٨

بين جلالة الملك والادريسى

وثيقه : رقم ١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله

يعلم به الناظر اليه والواقف عليه بأن الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل حفظه الله لما أمرنا بالقدوم على الامام محمد بن على بن ادريس

لعقد الاخوة الاسلامية الخاصة وجمع الكلمة على دين الله ورسوله ودعوة الناس الى ذلك فى التعاون على البر والتقوى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأن تكون اليد واحدة على أعداء الدين فلما قدمنا على الامام المذكور سره ذلك وأحبه حرصاً على الخير والتعاون عليه فاتفقت الحال منا ومنه على عقد الاخوة بين الامامين المذكورين على مثل ما ذكر أعلاه فحيث كان فى مملكة الامام محمد بن على من القبائل والبلدان فى اليمن ما هو فى ملك آل سعود سابقاً تركه الامام عبد العزيز له لأجل محبته للخير ومعاونته عليه وحسن سيرته فعلى هذا لا بد من تعريف القبائل وتحديدها ليقوم كل منهما بما أوجب الله عليه فيمن تحت يده من الرعية فصار الذى للامام عبد العزيز من القبائل جميع يام ووادعه ومن تبعهم من بنى جماعة وسحار وشريف وقحطان ورفيدة وعبيده منهم بنى بشر وبنى طاق وشهران وبنى شهر وغامد وعسير غامد وجميع قضاء محايل منهم بنى ثوعة وأهل بارق وترقش وأهل الريش وغيرهم ممن تبعهم وجميع قبائل حلى المذكورون فى ولاية الامام عبد العزيز وصار للامام محمد ابن على الادريسى تهامة سوى ماذكر وغير ذلك مما هو تحت يده وله رجال المع من عسير خاصة ولا يعارض كل منهما من تحت يد الآخر وما ذكر لعبد العزيز بن عبد الرحمن من القبائل فى السراة وتهامة ويام وغيرهم فالمراد به قرى وبوادى فى جبل وسهل وعليها فى ذلك التناصح والتعاون وبذل الجهد فيما أوجب الله عليهما مما يلزم فى دين الاسلام فيمن تحت أيديهما هذا ما صدر وحرر وقرر منا يانواب الامام حيث كنا قائمين مقامه ومن الامام محمد ابن على بن ادريس بحضوره وامضائه صدر العهد والميثاق منا ومنه ومن

نكث فانما ينكث على نفسه والله ولى التوفيق وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ١٦ الحجة ١٣٣٨ ه

نائبو الامام — الختم

عبد الله بن محمد الراشد — ناصر بن حمد الجار الله — محمد بن على بن

فيصل بن عبد العزيز المبارك — ادريس

وقد تكلم الوفد العربى مع الوفد اليمانى فى هذا الخصوص وأوضح أن مسألة «يام» منتهية وأن سائر أجزائها تابع لجلالة الملك «ابن سعود» وليس ثمت حاجة لاعادة البحث فى ذلك .

وفى عام ١٣٥٠ حصل من بعض الغوغاء فى يام أمور تطلبت إعادة النظر فى قضيتهم فأوفدت يام وفدا إلى أبها لمقابلة الأمير عبد العزيز بن عسكر والتفاهم معه على مافيه صلاح حالة بلادهم واطمئنانها ، وتم الاتفاق على تفاهم تام دون فى عهد كتابى وافق عليه الامام يحيى بحذافيره ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

موجب ذلك ومقتضاه أن السادة المكارمة وأهل نجران يام ، بادية وحاضرة اتفق جميع رؤسائهم منهم حسين احمد المكرمى ، وسلطان بن حسين بن منيف وجابر بن مانع بن جابر ، وجابر بن حسن بن نصيب ، ومهدى بن محمد بن فقران وجابر بن دكام وغيرهم من أعيان يام وأرسلوا بالنيابة عنهم وفدا وهم ابراهيم ابن حسين المكرمى وبرفقته من طرف عقال يام : حسين حيدر وناجى بن مهدى ابن قعوان ومحمد بن محيريق ، ولما كان يوم الخميس الموافق ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ وصل الوفد المذكور إلى الأمير عبد العزيز العسكر بمركز ابها وتخابروا معه وقدموا له ورقة اعتمادهم المؤرخة فى ١٤ شعبان سنة ١٣٥٠ من

رؤساء يام المذكورين أعلاه مضمونها الشروط الواجبة بحسن الجوار مع المواصلات والصداقة بين يام وبين جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل وطوارفه بكف الأذى عن المسلمين وردع كل جاهل والقومة على المفسدين بين الطرفين وأمان السبل وحقن الدماء وعلاوة على ذلك اقرار واعتراف الوفد المذكور بما ذكر عن رضاء وقبول وتضمنا بتقوية الكفالات الواجبة على كل قبيلة حسبما شرحوه بورقة اعتمادهم وأما من جهة ابراهيم الاسلومى ومن معه فقد التزم الوفد المذكور من طرفه بأحد أمرين إما أن يصير دربه درب رجال يام فيما اتفقوا عليه والتزموا فيه لجلالة الملك أيده الله ومناصيبه والافهم ملزمون ومتكفلون بقطعه من مسابلة الأسواق والأوطان واعلان قوامته حتى يصير دربه دربهم فبموجب ذلك أجاز الأمير عبد العزيز العسكر مطلوب يام والاتفاق معهم بعد حصول الموافقة على ذلك من جلالة الملك المعظم وصدور أمره العالى باجراء التنبيه على جميع رعاياه عن التعدى على طوارف يام أو مخالفة المعاهدة المذكورة فعلى هذا صار الاتفاق والالتزام بين وفد اليامية المذكورة أعلاه وبين الأمير عبد العزيز العسكر ، وكان ذلك بحضور وشهادة الشيخ سليمان بن محمد بن جمهور والشيخ ناصر بن جار الله ومن حواه مجلس الأمر منهم الشيخ ناصر بن ناصر بن مبخوت واحمد بن مفرح وغيرهم مع كافة الخدام وكتبه عن أمر الطرفين شاهدا ابن عبد الله بن على بن مسفر ليكون معلوما عند من يراه وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

حرر فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٥٠

ابراهيم بن حسين المكرمى ، احمد بن مفرح ، الشيخ ناصر بن جار الله
الشيخ سليمان بن جمهور ، الأمير عبد العزيز العسكر .

هذا بحضورنا ومعرفة الأشخاص ؟

ناصر بن ناصر بن مبخوت

العهد الثاني عام ١٣٥١

وقد جدد العهد السابق بعد بصورة أكثر جلاء ووضوحا فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٥١ ففى ذلك الوقت عاد إلى أبها الأمير عبد العزيز بن مساعد قائد قوات جلالته الذى أنهى قضية الفتنة الادريسية ، فوفد عليه كبار يام فى أبها وعاهدوه على السمع والطاعة وعلى معاداة أعداء جلالة الملك ومصافاة أصدقائه بشروط معلومة واضحة مبينة فى العهد الآتى :

وثيقة : رقم ١٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ليعلم من يراه موجب ذلك ومقتضاه بأنا يا يام أهل نجران وتوابعه المذكورة أسماؤنا أدناه حضرنا بمركز ابها برفق حسن بن هاشم المكرمى بالاصالة عن أنفسنا ونائبين بالوكالة عن عشائرنا حاضرة وبادية ، وذلك لمواجهة الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوى لتمكين روابط الصداقة بالطاعة والنصح والامتثال لله ثم لجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل أيده الله ولجميع طوارفه بحسن المواصلات وكف الأذى عن المسلمين وردع كل جاهل والقومة على المفسد والاجتهاد فى أمان السبل وحقن الدماء ، وعلاوة على ذلك نعترف ونلتزم يا رجال يام عموما بخمسة شروط لجلالة الملك ولجميع طوارف المسلمين التى شرطها علينا الأمير بن عبد العزيز بن مساعد وهى كما يأتى أدناه :

أولا : نحن ممتثلين بالصدق والنصح مع ولاية المسلمين .

ثانياً : نلتزم بعدم أحد يتعدى منا على المسلمين لا من تباعتنا ولا من فى بطوننا .

ثالثاً : انه ما يتعدانا عدواً على المسلمين .

رابعاً : أن من غزا من المسلمين وطانا بريد عدوا المسلمين إلى ورانا مثل الصبعر ودهم وغيرهم أن جميع غزوات المسلمين آمنين منافى مغزاهم وفى نكوفتهم

خامسا : بخصوص إبراهيم الأسلومى حسب طلبه قد صدر له الأمان من جلالة الملك ومن الأمير عبد العزيز بن مساعد على سابقات اليوم و أنه يصير دربه دربنا فى كل حال فان كان ماقبل فنحن يارجال يام عموماً ملتزمين فى الأسلومى بأحد أمرين إما نقبضه والا نحن المتكفلين والمسؤلين فى جميع أمر يبدر منه على المسلمين .

فبموجب اعترافنا والتزامنا بهذه الشروط وأن جلالة الملك عبد العزيز أعطانا أمان الله ثم أمان جلالته وأن لنا ما للمسلمين وعلينا ما على المسلمين فقد القينا عهد الله وميثاقه على ما ذكر أعلاه على يد منصوبه عبد العزيز العسكر والله سبحانه و تعالى على مانقول شاهداً وكفيلا وكان ذلك بحضور وشهادة جماعة من المسلمين منهم الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك وسعيد بن دليم أبو لعثة وعبد الله بن دليم أبو لعثة وعلى بن مشيبة وأحمد بن مفرح والشيخ ناصر بن مبخوت ومحمد بن ضاوى والشيخ قاسم بن أسعد من أهل فيفاء وحرر ذلك بتاريخ خامس من شهر ذى القعدة لسنة ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أعيان آل فاطمة	أعيان حبشم
جابر بن حسين بن مانع ، حسين ابن جابر ، حمد بن محمد ، على بن حسين بن سرار ، أفعان بن عبد الرحمن ذيب المهان ، محمد محيريق	حسن بن سلطان بن منيف ، حسن ابن زيد بن قريشه ، محمد بن حمد ابن قريشة ، حسين بن أحمد بن اهتيلة حسن بن هاشم المكرمى

أعيان آل الواحد	شهود العهد كما ذكر أعلاه
يحي بن نصيب ، محمد بن زيد يحي بن ناجى ، محمد بن عبد الرحمن بن حمران	الشيخ فيصل بن مبارك ، سعيد بن دليم ، عبد اللهبن دليم ، على بن مشيبة أحمد بن مفرح ، ناصر بن مبخوت محمد بن ضاوى ، قاسم بن أسعد

موقف الامام يحي

اضطرب الامام يحي وتملكه القلق من تلك التصرفات وخشى أن يمس بلاده من ورائها ضرر فأرسل برقية إلى جلالة الملك «ابن سعود» يستفسر بها عن حقيقة ما كان فأجاب «ابن سعود» بصراحته المعروفة وأردف الامام بارسال برقية أخرى فأرسل له «ابن سعود» يطمئنه قائلا بأن ما حدث لا يمكن أن يتعدى اتفاقات الطرفين بخصوص الحدود .

ولكن من الغريب أن الامام يحي أراد أن يخلق من هاتين البرقيتين أساسا لادعاءاته وزعمه بأنه هجم على نجران بعد استئذان الملك «ابن سعود» ولذا رأينا أن ننقل نص البرقيات من الكتاب الأخضر الذى أصدرته المملكة السعودية : —

برقية الامام يحي

إلى جلالة الملك «ابن سعود»

قد بلغ الينا ماساءنا أن بعض الأمراء الذين بعسير طلبوا رجال يام الدخول لهم وكانهم سيكون توجههم الى بلاد يام ولانظن صدق ذلك فانتم تعلموا عافاكم الله أن رجال يام مصاصة اليمن سابقا ولاحقا وأنا لم نؤخر أمره الا التشويش عليكم أنتم لغرض آخر فتفضلوا بمنع الأمراء عنا من أمور يام

عافاكم الله كما نؤمله من عزيز جنابكم فجرح الادارسة لم يندمل والجرح أنكى للجرح وتفضلوا باتاحتنا بالجواب المأمول من عزيز جنابكم .

جواب جلالة الملك ابن سعود

إلى الامام يحيى

أما مابلغكم عن يام من استجلابهم ودخول أمرائنا بلادهم فهذا غير صحيح وما كان ولا يكون وليس بيننا وبين يام معاملة الا مع أهل نجران ومن زمن طويل بينهم وبين قحطان منهوبات متقابلة وفى بعض الأحيان تروح النقايض وبعض الأحيان تؤدى وبعض الأحيان يؤوى بعضهم على بعض بواسطة طارفتنا وأحب أن يثبت لديكم أمران «١» أن كل أمر مشكل بينكم وبيننا نسعى بازالته كما مضى «٢» أن يام لامال يأخذها السلطان ولا عقل يأخذها الشيطان والبعد منهم أحب الينا من القرب منهم لانه لا فائدة منهم فكونوا مطمئنين الخاطر بأن ما يشكل عليكم لا يجرى منا إنشاء الله وكل من نقل ذلك لكم عدو يحب الاختلاف . وحقيقة ما بلغنا وما أخبرنا به أمير عسير أنه وفد عليه وفد من أهل نجران حينما بلغهم تجهيز ابن مساعد وأهل نجد أصابهم الخوف فقدموا يطلبون أن يصير بينهم وبين قحطان والدواسر حدود وأمان فأخبرنا أمير عسير يخبرهم أنه اذا منعوا انفسهم عن التعدى على طوارف قحطان ما يجيهم أحد فهذه هى الحقيقة بحول الله لن تجد أخاك اذا صار بينك وبينه كلام فى أمر من الأمور الا كما كان منه وأزود . وأما دخول أى شخص بنا بسياسة أو خفاء أو بيان فى أمر الاتفاق بيننا وبينكم فليثبت عندكم وعليكم أمان الله أننا نبرأ الى الله من ذلك فى وقت السلم والحرب .

البرقية الثانية من الامام يحي

إلى الملك «ابن سعود»

لقد سرنا ما أبداه الأخ العزيز حرسه الله من أمر يام ونجران إلا أن بعض أرقام الشفرة كانه كان فيها غلط وقد ظهر لنا فيها غاية المطلوب والمحبوب والمأمول من حضرتكم تتفضلوا باخطار الأمراء لتجنب ما تشوش به الأفكار فى أمر يام ونجران ولكم التفضل الجزيل .

رد ابن سعود إلى الامام يحي

بشأن سرور الأخ عما ذكرناه من قبل يام فنحن كما عرفناكم أن كل قبيلة من يام أو غيرهم على القرار الذى كان بيننا وبينكم سابقا ولاحقا ولا يمكن أن يتعرض له أحد من طوارفنا بترغيب أو تهديد أو أمر يخالف الذى بيننا وبينكم هذه الحقيقة فكونوا واثقين بالله .

تطور الحوادث

وأعقب ذلك تقدم جنود الامام يحي إلى نجران وسائر بلاد يام مخربة مدمرة دون أن يحرك الامام الوقور ساكنا منتظرا انتهاء مهمة الوفد الذى تقرر وصوله إلى صنعاء لدرس القضية معه شخصيا ولكن حجر على الوفد فى صنعاء كما تقدم وتعمد الامام بذلك تأجيل المفاوضة إلى أن تم له إخضاع نجران وبلاد يام فما معنى المفاوضة بعد اتخاذ أساليب القهر والارغام ؟

وقد دارت مفاوضات عديدة مدونة فى محاضر رسمية لم نر داعيا لنشرها كما جرت مخابرات برقية وكتابية بين العاهلين وتم الاتفاق أخيرا على أسس معينة لحل المشكلة فى مؤتمر تحدد له شهر شوال سنة ١٣٥٢ لانعقاده .

ولكن بعد هذا كله أقدم الأمير احمد بن الامام معتديا على البلاد السعودية متغاضيا عن شرف الاتفاق فأحدث الفساد بتقدم جنوده وأصحابه لاحتلال جبال بنى عبد الله وفيفا وبنى مالك .

فلم يكن هناك بد من مقابلة العدوان بمثله وقطع المفاوضات السلمية إلا أن «ابن سعود» تذرع بالصبر على مضض واستمر يرجو الاتفاق .

ثم عقد مؤتمر أبها فى أوائل شهر ذى القعدة بعد أن كان مقررا أن يسافر الوفدان من مكة وصنعاء فى ٩ شوال . وقد التزمت اليمن خطة المراوغة والتسويف مما أدى إلى قطع المفاوضات وقتا طويلا فدارت المعارك الحامية التى نلخص أدوارها فيما يأتى

ولعل القراء يتبينون مما سبق مقدار التبعة التى يتحملها الامام يحيى فى هذه الحرب .

التدخل الأجنبى

عقد مؤتمر ابها فى فبراير الماضى بين ممثلى الامام يحيى ومندوبى الملك «ابن سعود» ولكن فشل المؤتمر واندلع لهيب الحرب بين الفريقين وقد كانت غاية العالم الاسلامى من وراء هذا المؤتمر وصول الفريقين إلى حل يستقر به السلام فى جزيرة العرب إلا أن هذه الغاية قضى عليها تنفيذا لمشيئة المولى تعالى وقد علل ذلك الأمير شكيب أرسلان بالأسباب الآتية :—

أولا : إن نقطة الخلاف بين العاهلين مهما كانت مهمة لكل واحد منهما فان الحرب بينهما أهم وأشد ضرراً وخطرا فسبب الخلاف لا يستحق هذه الضحايا التى لابد من أن تقع من الجانبين .

ثانيا : أن كلا من العاهلين المتخاصمين لا ينقصه شىء لا من عقل ولا من حكمة ولا من شهامة ولا من إيمان ولا من حمية إسلامية ولا من نعرة

عربيـة ولا من سعـة نظر فى العواقب ولا من شىء من المناقب التى يتحلى بها الملوك ·

ثالثا : أن الأمة العربية هذه المـرة والعالم الاسلامى بجملته لم يقصرا فى شىء من الرجاء والاستعطاف والنصح والتحذير إلى حد الانكار والا كبار .

ويذهب الـكثيرون فى ذلك مذهبا آخر وهو أن الحرب قد أوقد فتيلها أصبع السياسة الأجنبية الملعونة وهذا أمر لاشك فيه · فقد دارت المخابرات بين إيطاليا وبريطانيا لأن اليمـن متاخمة لعدن وإيطاليا تسيطر على الأرترية الواقعة على الساحل المواجه لساحل اليمن وهى ان تدخلت فانها تفعل ذلك بدعوة حماية الرعايا والمصالح ، مع أن «ابن سعود» أصدر تعليمات مشددة إلى قواد جيوشه باتخاذ التدابير الكافية الـكفيلة بتوطيد الأمن والنظام فى المناطق التى يحتلونها .

أما بريطانيا فقد أرسلت طيارات إلى الحديدة ثم سحبتها لأن لها مطامع فى النواحى التسع الواقعة فى شمال عدن . لذلك انتهزت فرصة الخلاف فسعت إلى تحقيق مطامعها أو بعضها على حساب الأمل الذى كان يحدو كل واحد من المتخاصمين فى إخضاع الآخر لمشيئته والنزول عمـا يريد من بلاده أو البلاد التى يطمع فى بسط سلطانه عليها .

وقد لعبت بريطانيا دورها بعقد معاهدة صداقة بين «ابن سعود» ومناوئه الأمير عبد الله الذى يبغى استعادة الحجاز لبنى هاشم أو لنفسه وعقد اتفاق آخر بين الامام يحيى والحكومة البريطانية بشأن النواحى التسع التى تحاول هى منذ أكثر من ثلاثين سنة أن تضمها إلى منطقة عدن التى دخلتها مستأجرة لتكون محطة لتموين أسطولها البحرى ثم ما لبثت أن بسطت حمايتها عليها مستعينة على ذلك بالضعف الذى كانت فيه الدولة العثمانية ثم بالاختلافات التى

أثارتها فى وجه الامام يحيى بعد أن انتهى إليه الأمر فى بلاد اليمن منذ أعلنت الحرب العالمية الماضية .

ولما وصلت جيوش الملك «ابن سعود» الى الحديدة واحتلتها بعد أن احتلت جميع سواحل تهامة الواقعة الى شمالها كانت بعض المدرعات الانجليزية والايطالية قد وصلت الى ميناء الحديدة قبل ذلك ببضعة أيام بدعوة حماية رعايا إيطاليا وانجلترا والحقيقة أن هاتين الدولتين خافتا من سقوط اليمن فى يد الملك عبد العزيز فيقوى نفوذه ويصبح خطرا عليهما .

وقد اعتادت دول أوربا صاحبة النفوذ أن تتفاهم فيما بينها على تحديد مناطق نفوذها فى البلاد الشرقية ونحن المصريين لاننسى اتفاق سنة ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا فى الوقت الذى كان يستعين زعيم مصر الخالد المرحوم مصطفى كامل باشا بساسة فرنسا ضد المحتل الغاصب . كما لاينسى الايرانيون اتفاق سنة ١٩٠٧ بين انجلترا والروسيا الذى قسمت بموجبه إيران إلى منطقتى نفوذ روسية فى الشمال وانجليزية فى الجنوب .

كذلك مابرحت أمثال هذه المنافسات الدولية تجرى على شواطىء البحر الأحمر منذ زمن طويل فجعلت ايطاليا قبل الحرب تخطب ود الأدارسة وتساعدهم فى حروبهم ضد الدولة العثمانية . ولم تكن هذه السياسة ترضى الانجليز لأن البحر الأحمر طريقهم إلى الهند فهم حريصون على رجحان سيطرتهم فيه حرصهم على رجحان سيطرتهم على قناة السويس . ومن القواعد المقررة فى سياستهم أن لا يسمحوا لأية دولة عظمى أن تضع قدمها على شواطىء البحر الأحمر الشرقية ولاسيما متى كانت تملك قطرا على شواطئه الغربية .

وقد وجد الانجليز فى الملك «ابن سعود» صديقا يستطيعون الاتكال عليه ولهذا صفقوا له عندما انتصر على منافسه حسين بن على وشفعوا التصفيق

بالهتاف عندما اجتاح إمارة الأدارسة واحتل سواحلها . ولما قامت الحرب الأخيرة حرصوا على إعلان الحياد التام فلم يبق لايطاليا أو لغيرها سبب تستند إليه لاستغلال الحرب والاستفادة منها بتوسيع مناطق نفوذها .

على أن الملك عبد العزيز عرف بدهائه كيف يستفيد من صداقته لانجلترا وعرف كيف يتجنب المشاكل الداخلية والخارجية وكيف يتجه فى غاراته اتجاها لايثير الشكوك .

وقد أخذت إيطاليا تلجأ للدسائس والواقع أن سياسة موسولينى صريحة فى كل مايتعلق بالتوسع الاستعمارى فى أفريقيا وآسيا وهو يريد أن يصبغ سياسته الاستعمارية فى آسيا وأفريقيا بصبغة أدبية روحية

وليس أدل على اهتمام السياسة الاستعمارية بفرصة الحرب من أن أحد كتاب الانجليز المعروفين اقترح أن تتقدم بريطانيا بعرض الخلاف بين العاهلين على جمعية الأمم استنادا إلى المادة ١٧ من قانون تأسيس الجمعية (وهذه المادة تنص على أن للجمعية الحق فى التدخل بين دولتين متنازعتين حتى ولو لم تكن الدولتان داخلتين فى الجمعية فعلى الجمعية أن تعرض وساطتها للصلح وأن تقيم نفسها حكما بين الفريقين . ولكن لابد من أن تعرض دولة ثالثة — تكون عضوا فى جمعية الأمم — هذا الاقتراح على مجلس الجمعية) .

وكان أحرى بصاحب الاقتراح أن يريح نفسه فقد وقعت الحرب بين عاهلى الجزيرة العربية بعد أن خابت مساعى العالم الاسلامى فى السلام . وغريب أيضا أن يتقدم انكليزى إلى دولته بهذا الاقتراح وهى تقول أن الحرب عائلية وأنها تقف موقف الحياد . هذا الحياد الذى دلت الحوادث فى مصر وفى غيرها أن له فى معجم الانجليز من المعانى مالايصح الوقوف معه عند حد المألوف فى معاجم اللغة أو مصطلحات السياسة العادية .

لذلك حين دب دبيب النزاع بين عاهلى الجزيرة قصد الحاكم العام لمدينة عدن بلدة الحديدة على ظهر بارجة حربية وطالب إمام اليمن بتسوية بعض المشاكل التى كانت قائمة بين الدولتين من زمان وبتوقيع معاهدة ينص فيها على تسوية هذه المشاكل تسوية نهائية من ناحية وتنازله عن وجهة النظر البريطانى من ناحية أخرى وكان طبيعياً — وقد أقدمت جيوش اليمن على ما أقدمت — أن يضطر الامام خوف الوقوع بين نار «ابن سعود» من الشمال ونار حكومة عدن والمناطق المحمية من الجنوب إلى تلبية المطالب البريطانية فيعترف للحكومة الانجليزية بحماية بعض المناطق التى لم يكن يعترف بحمايتها من قبل ويصحح حدود دولته بما يخرج من دائرتها بعض الأراضى التى يستمسك بها ويعقد معاهدة صداقة وحسن جوار يضمن بها تفوق التجارة البريطانية على أيدى أهل هذه المناطق المحمية على سواها من التجارات .

وقد حاولت السياسة البريطانية حل إشكال العقبة خلال جميع المفاوضات التى دارت حتى الآن بين ممثليها وممثلى الحكومة السعودية فلم توفق إليه ولم تستطع إلا إبقاءه معلقاً مع استمساك «ابن سعود» بوجهة نظره التى تقضى باعتباره اقليم «العقبة» اقليما عربياً غير منفصل من أملاك الدولة العربية السعودية ، فى حين أن الحكومة الانجليزية تريده اقليما «فلسطينيا ، أردنيا» وتريد ميناءه ميناء حربية خاضعة للنفوذ البريطانى ومشرفة على شمال البحر الأحمر وقريبة من قناة السويس أيضاً ، ولكنها لم تفلح فى استغلال فرصة الحرب لهذا الغرض .

على من تقع التبعة من الفريقين

كان من واجب الدولتين إزاء السياسة الأجنبية الملعونة أن تكفا عن القتال فيندحر أعداء الاسلام ولكن يظهر أن الحرب كانت أمراً محتوما وأن

الاستعداد كان آخذا مجراه قبل وقوعها بزمن غير يسير فان الامام يحيى كان يستعد من ناحيته وكذلك أشيع أن «ابن سعود» قصد فى أواخر شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٣ إلى مدينة الرياض وسار منها مع كثير من جنوده إلى قصر دائل ثم إلى الدواسر فبيشه فوصل إليها فى منتصف شهر ديسمبر وهناك التقى بالجيوش التى جهزها للزحف على نجران ، وقيل إن عدد هذه الجيوش أكثر من ١٥ ألف مقاتل ، وقد خطبها داعياً إلى الجهاد والثبات حتى تسترجع نجران ثم ودعهم وعاد إلى الرياض وسار هؤلاء الجند حتى وصلوا إلى البقاع التى كانت ترابط فيها جنود الامام يحيى فهاجموهم واضطر هؤلاء إلى الانسحاب إلى ما وراء بعض المرتفعات هناك فاحتل الوهابيون كل ما كان تحت سلطان الآخرين من الأراضى .

على أن هذه المعركة التى خسر فيها الفريقان لم تكن سبباً فى اعلان الحرب بينهما رسمياً لأن كلا منهما لم يكن قد انتهى من معالجة المخاوف التى رآها تهدده فيما إذا اشتبك فى حرب ثم ان الملك «ابن سعود» كان حريصاً على استغلال الزمن الذى يقطعه فى معالجة الخلاف الذى بينه وبين الأمير عبدالله استغلالا يظهره أمام العالم الاسلامى فى ثوب الراغب فى السلام المتنكب عن الحرب فأبرق إلى الامام يحيى فى وقت الحرب يدعوه إلى الاتفاق حقنا لدماء المسلمين ولكن لم تفلح المفاوضات وقتاً طويلا .

ويرجع السبب فى فشل المفاوضات إلى الجانب اليمانى فانه مع رغبة الامام فى السلام ظهر حزبان فى بلاد اليمن يتنازعان النفوذ والسلطة : حزب الامام يحيى وحزب ولى عهده سيف الاسلام احمد أما الحزب الأول فهو يرغب فى الصلح وحقن الدماء وقبول شروط الملك «ابن سعود» وعقد معاهدة مع المملكة العربية السعودية ، أما الحزب الثانى فقد أراد الحرب ورفض أن

تتنازل حكومة اليمن عن شبر من الأرض التى تبسط عليها نفوذها وهذا الحزب جعل يتهم الامام بالضعف والخوف والتساهل الواسع ورمى الى غرض معين وهو خلع الامام وتنصيب نجله الأكبر مكانه والمناداة به ملكا على اليمن فهو وحده يحمل تبعة خسائر الحرب ، وهو وحده الذى أدى الى اطالة عمرها فوق ما كان ينبغى .

أما الملك «ابن سعود» فقد رأينا اثبات حسن نيته ورغبتـه فى السلم بأن نأتى فى كتابنا بنص خطبته البليغة التى ألقاها هذا العام فى وفود الحجاج بمكة المكرمة رداً على بعض الخطباء وشرح فيها موقفه وموقف الامام يحيى :

خطبة الملك ابن السعود

فى وفود الحجاج بمكة المكرمة

يشرح فيها موقفه وموقف الامام يحيى

لقد تكلم الاخ وأجاد فيما أبداه واننا نشكره على ما أظهره من الغيرة على العرب وجمع كلمتهم ، ولقد ذكر فى عرض كلامه الخلاف الذى نشب بيننا وبين الامام يحيى . والحقيقة أن هذا أمر يهم المسلمين وكل من فى قلبه خردلة من ايمان يتمنى أن يعتصم المسلمون بحبل الله وأن يتركوا المشاحنات فيما بينهم ولكن لكل أمر حقيقة يجب أن تبين وتوضح ، والامام يحيى — أسأل الله أن يوفقنا واياه للخير — أعده أكبر أصدقائى وأقربهم الى وأحترمه فى جميع الحالات وقد عملت معه جميع الاعمال الطيبة التى يعلمها الله وهو مطالع عليها محبة فى جمع كلمة المسلمين والعرب والتى أرى فيها صلاحا لى وصلاحا له ولكن مع الأسف خرجنا كما قال الشاعر :—

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد وهب لصروف الدهر ماأنت واجد
اذا خانك الأدنى الذى أنت حزبه فواعجبا ان سالمتك الأباعد

يحي : لاأحب له إلا ماأحبه لنفسى ، جاملته بكل ممكن مما يعلمه الله وسيعلمه المسلمون ولكن مع الأسف لم أصل الى المطلوب من الراحة والسلم بعد الجهد الطويل وكنت أتريث فى أعمالى وأقدم حسن الظن وآخذ بالحزم عملا بقول الشاعر :—

وأحزم الناس من لم يرتكب عملا حتى يفكر ماتجنى عواقبه

فلمصلحة الجميع ومنعا لشماتة الاعداء مشيت للسلم وصبرت كل هذا الصبر

وشرح الامر الذى بيننا و بينه يطول ولكن لابد أن يطلع المسلمون بعد بضعة أيام على الكتاب الاخضر الذى أمرنا باعداده ليعلم الجميع الاقوال التى توافق الافعال ، واننا رجال لانعمل غير مانقول

يحي كما ذكرت أعظم صديق لى ، وما كنت أحب أن يكون بيننا وبينه مثقال حبة من خردل من الخلاف . وما كنت أظن أن السياسة تنقلب بيننا و بينه حتى تصل الامور الى هذا الحد .

يعلم الله انه لم يكن لى غاية فى اليمن ، ولكن الرياح تجرى بما لاتشتهى السفن .

قد يظهر أن الخلاف كان على أهل نجران . ونجران قد لايكون فيها مطمح لادنيا ولا أخرى ولكن قضيتها فى أمرين : محذور من جهة يجب أن نتقيه والثانى شيمة عربية .

ان عسير لم أدخله إلا أيام الحسين الشريف ، وقد كان الاتراك خرجوا منه وتولاه أهل عائض بعد الهدنة ، وكان أهل عائض محسوبين علينا وكانوا ولاة لأجدادى فى تلك الجهات . ولكن تدخل الحسين بأمرهم فحرضهم علينا بأعمال

يطول شرحها الى أن انتهى الامر بغدرهم بنا الى أن أخذهم الله ثم أخذناهم وأعاننا الله عليهم .

وجرت صداقة بيننا وبين محمد الادريسى وعندما مرض أوصانى بآله وأولاده ، ولما توفى تولى ابنه على وكان الخلاف بينه وبين عمه الحسن فتولى الحسن وأصلحتهم ووضعت نظرى على الحسن بناء على طلبه وطلب أهل عسير وأبقيت عليا عندى .

وبعد خمس سنوات تقريبا أرسل إلى الحسن يخبرنى بعجزه عن ادارة البلاد وتأمينها وتنازل لى عن البلاد فقبلت ذلك منه ولكننى أبقيته على مقامه وامارته ، وتحملنا فى سبيل وفائنا بعهد الادريسى مشاقا ومصاعب كثيرة ، وخسرنا أموالا طائلة وكنت أنفق على تلك المقاطعة فوق وارداتها من ٢٠٠ - ٢٥٠ ألف ريال فى السنة تقريبا . وعاملنا الادريسى بكل معاملة حسنة ثم لم أشعر إلا ووصل الى أن يحيى سعى مع الادريسى للعمل ضدى ، فعجبت وقلت هذا غير ممكن فلم تمض أيام حتى أبلغت أن الادريسى هجم على رجالى الذين عنده فى جيزان وحاصرها فأرسلت سرية قليلة تتألف من ٤٠٠ فى السيارات و ٢٠٠ فى زورق من الزوارق البخارية ، وساروا لفك الحصار عن رجالى ولكن فى أثنا طريقهم الى جيزان كان الادريسى تغلب على رجالنا فيها وأبرق لى يتملق بعد ذلك ، فأبرقت اليه أنه ان كان صادقا فى دعواه فيمكنه أن يراجع أمير السرية التى أرسلتها وأبرقت لامير السرية المتقدم بأن لا يحدث حربا مع الادريسى . ولكن أراد الله أن يبطل كيد الكائدين فحدثت تأثيرات جوية لم يتمكن اللاسلكى من أخذ برقيتنا فلم تصل للادريسى ، ولكن الادريسى كان عازما على الغدر فأرسل القوى لتخريب طريق السيارات ومقاومة السرية القادمة فلم يصل أمرنا للسرية بالتوقف وتقدمت فاحتلت جيزان وقضت على الفتنة فيها

فلما رأيت الموقف على هذا الشكل استوحشت وخشيت من مداخلة يحيى فى هذا الأمر فارسلت جنوداً أخرى قضت على الفتنة فى سائر المقاطعة ولما رأى يحيى أن الأمر انتهى تنصل ، وقد قبضت على كتب لبعض أمرائه تنقض المعاهدة التى كانت بيننا وبينه أيام حكمنا فى حادث «العرو» ثم نقض معاهدة تسليم المجرمين بيننا وبينه بامتناعه عن تسليم الادريسى . ولكنى لم أشأ فتح باب الشقاق معه فتركت الادريسى ليحيى بشرط أن يمنعه من أى مداخلة أو عمل وأن يبعده عن الحدود . ثم كتب إلى يحيى يقول لى: هؤلاء الأدارسة أصدقاؤك وأعداء لى فهلا أنعمت عليهم وسددت حاجتهم فخصصت لهم مع ذلك مرتبا شهرياً قدره ٢٥٠٠ ريالا محافظة عليهم رغم ما كان منهم على عادتنا مع سائر البيوت العربية . ثم أمرت جندى بالرجوع من تلك الديار لانى ما كنت أحب الشقاق مع الامام يحيى . فلما أخذ الجند يرجع إلى بلاده وردتنى برقية من يحيى يذكر قبيلة «يام» ويذكر وصول أهلها إلى ابها لمقابلة ابن مساعد قائد الجند ، فلم يخطر لى أن يكون له مقاصد أخرى من مثل هذه المراجعة فأجبته أن لا غرض لنا فى الولاية عليهم إلا نجران والبادية هناك نظراً لعلاقاتهم بنا من قديم وحديث ونظراً لمصالح رعايانا أتوا لعمل اتفاق على هذا الأساس ، ثم وردتنى منه برقية أخرى بهذا الشأن أجبته عليها بوضوح أنه لايمكن أن نختلف نحن وإياه على ما كان بيننا وبينه فى السابق بشانهم ، ثم أرسلت ، له وفدا حبسهم - حبسهم حقيقة مدة طويلة وبينهم خالد القرقنى الذى يعرفه كثير منكم وقد قال لهم ان المعاهدة التى بيننا وبينه إن شاء عمل بها وإن لم يشأ لم يعمل بها

وقد كتبت له بشأن الوفد وانهم لم يجرموا حتى يعاقبوا .

ولما رأيت أن الشر تفاقم ووصل إلى هذا الحد أمرت بارسال عشرة

آلاف مقاتل ليرابطوا على الحدود استعداداً للطوارئ وبقوا هناك سبعة أشهر لم يأتوا بأى عمل عدائى لأنى لا أحب الحرب ولقد كان من دواعى صبرنا هذه المدة مع ماتكلفناه من النفقات أننا رأينا يحيى دخل فى مفاوضات مع الانجليز من أجل النواحى التسع فلم نشأ أن نأتى بحركة توجب الضرر وتفسر على غير حقيقتها . ولكنه لم يقدر هذا الموقف منا ، فمضى فى سبيله وأتم اتفاقه مع الحكومة البريطانية وكان خلال ذلك يطاولنا ويخادعنا ولما ازداد الخلاف بيننا وبينه بشأن نجران ويام ومع أنه لا حق له بهم وأنهم يؤدون الزكاة لنا من قديم وحتى من زمن أجدادنا الأولين وكتبهم لا تزال محفوظة لدينا والمعاهدات بيننا وبينهم موجودة ولكن فضاً للنزاع اقترحت عليه أن تكون نجران بلدا محايداً بيننا وبينه واقترحت شروطا لحيادها فأجاب بأن يام من همدان وهمدان يمنية

فواعجبا هذا ابن شعلان ابن عمى (وأشار إليه) وأستطيع أن أجلبه إلى ولكنه مقيم فى سورية .

وكثير من أهل سورية أنفسهم من اليمن أنزلهم فيها معاوية رضى الله عنه فهل يكون حجة ليحيى ليطالب بسورية بدعوى أنها يمانية .

وأخيرا بعد مراجعات طويلة اقترح علينا تحديد الحدود بيننا وأن نعمل معاهدة لمدة عشرين سنة وتعهد برفع الأدارسة إلى الزيدية وبعد أن اتفقنا على هذا واتفقنا على إرسال مندوبين لتثبيت ذلك عمل معنا عملا قبيحا لم أذكره والله إلا الآن ، وقد كتمته على أخص رجالى وأبناء عائلتى وذلك أنه أرسل عبد الوهاب الأدريسى واحتل بلاد العبادل وفيفاء وبنى مالك من بلادى ، فكتبت له أسأله عن هذا العمل فكان جوابه ملقاً وتملصاً ووعوداً ، وآخر الأمر أبرق لى بأنه لا يفعل معى إلا ما يفعله الأخ مع أخيه والصديق

مع صديقه وهكذا سلسلة حوادث له معى أخجل من ذكرها إذ لا يعملها إنسان عنده مروءة ولا يقبلها رجل ذو شرف وشيمة

لم أترك وسيلة للصلح والسلام إلا فعلتها ولكنى ما رأيت غير المكر والغدر .

لذلك أمرت ولى العهد ليتقدم بجنوده إلى الامام ليستخلص البلاد التى غدر بها يحيى ويدافع عن بلادنا وكياننا وشرفنا وأبرقت ليحيى بأننا لا نريد إلا السلم ولا نريد الحرب وان باب السلم لا يزال مفتوحا متى أراد أن يجنح له وأن ينسحب من بلادنا ولا يتدخل بشؤوننا وهذا التدبير لم ألجأ اليه إلا مضطراً وبعد أن أعيتنى جميع الوسائل ، ولا أعذر أمام الله ولا أمام خلقه إذا لم أقم بواجب الدفاع .

لنا أكثر من عشرة أشهر ونحن نقابل يحيى ونجادله وانتشر خبر ذلك فى سائر الأنحاء فلم يظهر من المسلمين من ملوكهم أو أمرائهم أو أحزابهم من يتقدم لاصلاح ذات البين أو يطلع على حقيقة ما بيننا وبين يحيى ويعلم الصادق من الكاذب . ولم يردنا غير برقيات التمنى التى لا تنتج شيئاً . ولما وقعت بعض حوادث النمسا قامت بعض الدول الكبرى وقعدت وعملت كل ما تستطيع لمنع كارثة الحرب ولكن المسلمين والعرب لم يبالوا بذلك وإنما أعمالهم كانت مقتصرة على الأمانى .

إنى أعلم أن هذه القضية كما قال الخطيب تهم المسلمين والعرب وقد عملت كل ما من شأنه أن يحقق أمانيهم وقمت بأعمال أضرتنى حرصا على السلم ورغبة فيه ولكن ماذا عمل العرب والمسلمون ، وماذا كانت نتيجة تمنياتهم لدى يحيى؟

أما أنا فأشهد الله وأشهد ملائكته انى ما أحب إلا الصلاح والسلام ، أما الدفاع عن حدودى وعن شيمتى فهذا من موجبات الشرف

وآخرما كان من الجهود التى بذلت فى سبيل السلام هو صبرى على أعمال يحيي الأخيرة الى اليوم . فبعد أن أفسد أهل الجبال وأرسل الادريسى اليهم طلب العفو عنهم وأخبرنى أنه رفع الادريسى الى صعدة فلما أعطيته الامان عليهم لم يرفع الادريسى وتمادى فى عمله وأبرق إلى يطلب منى أن أطلق السجناء فى جيزان وهم من رجال الفتنة . أعمال وأقوال لا يتحملها من به شرف ، ولقد كتبت له أخيرا اننى أمرت جندى بالتقدم فان أراد العافية فليس له إلا إبعاد الادريسى عن الحدود إلى المكان الذى اتفقنا عليه وإعادة بلادى التى دخلها والمساواة فى نجران فان قبل فالحمد لله وإن لم يقبل فلا حول ولا قوة إلا بالله . هذه حقيقة الحال ونسأل الله التوفيق .

جيش اليمن وجيش «ابن سعود»

كان جيش اليمن بقيادة الأمير سيف الاسلام وكان عدده عشرين ألف مقاتل وقد قسم إلى ثلاثة أقسام : —

(١) طليعة الجيش التى فى المقدمة وكانت مؤلفة من بعض كتائب الفرسان

(٢) فريق من الفرسان يسير إلى اليمن فى نجران والسهول الفاصلة بين نجد واليمن لملاقاة القبائل الوهابية

(٣) الفريق الثالث وهو الجزء الأكبر من الجيش وكان على رأسه الأمير سيف الاسلام .

وكان مع الجيش اليمنى ست بطاريات من المدافع الجبلية وعدد من المدافع الرشاشة ، وكان يتولى ادارة المدفعية فيه ضباط من الاتراك .

أما الجيش السعودى فقد بلغ أربعين ألف مقاتل تحت قيادة الأمير

فيصل نجل عبد العزيز وكان مجهزا أتم تجهيز ومنظما كأرقى جيوش العالم وكان يقود المدفعية فيه ضباط سوريون .

وقد تطاحن الجيشان طويلا وكان النصر دائما فى جانب السعوديين ولكن لم يكن هذا النصر بفضل الحديد والنار وإنما كان نجاحا للديموقراطية وهزيمة للاوتوقراطية والاستبداد . فالملك «ابن سعود» رجل عنيف فى الحق لين شفوق فى معاملة رعيته على عكس الامام يحيى الذى يجمع السلطان كله فى يده ويجعل خزينة الدولة تحت تصرفه ، وأقواله وأحكامه تطاع بغير جدل أو مناقشة .

وفد المؤتمر الاسلامى

ولو أن وحدة العالم الاسلامى التى كانت الخلافة رمزها ظلت قائمة لأمكن علاج الأمر بين قطرين مسلمين من غير اراقة دماء كثيرة ولا نعنى خلافة السلطان عبد الحميد التى كانت عليلة هزيلة ولكن نعنى الخلافة الحرة القوية التى هدمتها معاول السياسة الاستعمارية الغاشمة ومزقتها الدسائس والفتن .

على أن الشعوب الاسلامية أبت السكوت على ما وقع فجعلت تصيح وتصرخ من كل ناحية راجية تقرير السلام بين العاهلين. وقد وصلت الصيحة الى آذان رجال عظام من سادة المسلمين وخيرتهم لا يستندون الى حكومة ولا يعملون بصفة رسمية وانما هبوا للجهاد بدافع ضميرهم وبما لهم من هيبة ونفوذ أدبى فهجروا أوطانهم ورحلوا الى جزيرة العرب مكونين وفد السلام ونذكر منهم مع الفخار مجاهدا مصريا يعمل لله وللوطن فى هدوء وصمت ويستغل مواهبه فى خدمة القضية العربية وهو صاحب السعادة «محمد على علوبة باشا» .

فقد سطر هذا الرجل فى صحائف مجده أعمالا لا يصح أن يغفل عنها المؤرخ المنصف وأخصها رحلته فى الصيف الماضى إلى بلاد الهند يجمع الاكتتابات

للجامعة الاسلامية ويدعو المسلمين فى بقاع الشرق للاخاء والمحبة والوئام، مع ما لقيه فى رحلته الشاقة من متاعب جسام . وقد اجتمعت به فى مكتبه ذات يوم والحرب فى جزيرة العرب قائمة فاذا به يشكو من عناء صحى وفى الوقت نفسه يفكر فى قطع أسفار جديدة إلى بلاد العرب لاخماد جذوة الحرب . وبعد أيام قلائل كنت أستفسر عن صحته بالتليفون فعلمت أنه سافر إلى بلاد العرب ليكون فى طليعة وفد السلام .

ونذكر أيضاً سماحة الأستاذ الجليل الشيخ أمين الحسينى مفتى القدس الذى استخدم نفوذه الدينى مرارا فى خدمة المسلمين فسافر مع علوبة باشا إلى الهند فى العام الماضى وسافر فى هذا العام الى جزيرة العرب . وكذلك سافر الأمير الفاضل شكيب أرسلان الذى تحاربه الدول الاستعمارية وتقضى على حريته الشخصية لأنه يجاهد للعرب والمسلمين وكان معهم أيضا هاشم بك الأتاسى .

وقد استطاع هؤلاء الأمجاد أن يطفئوا نيران المعركة وما كانوا ليصلوا إلى مآربهم لولا تسامح الملك الديمقراطى عبدالعزيز «ابن سعود» الذى تنازل فيما سبق عن بعض الشروط التى رآها الامام مجحفة بحقه : كتسليم الأدارسة والتنازل عن تهامة وقد وافق على أن يغادر الأدارسة بلاد اليمن إلى مصر أو غيرها من الأقطار العربية .

ومن تأمل فى حديثه إلى أحد الصحافيين يستطيع الحكم بأن هذا الملك الذى قضى حياته فى مغامرات حربية أكثر مايكون ميلا إلى السلم والوئام وخضوعا لارادة العالم الاسلامى .

قال فى حديثه بلهجة بدوية «احنا مانبغى حرب» ثم أردف يقول «أنا لا أريد حربا ولا أرمى إلى قتال أحد . يجب أن يعلم ذلك المسلمون جميعا،

القاصى منهم والدانى . لقد أقمت فى هذه البلاد حكما عادلا ، مستندا إلى سنة الله وحكمة الشريعة السمحة . وغاية مناى أن أجعل من هذه المملكة العربية السعودية بلاداً سعيدة تتمتع بالحرية والرخاء — فأنا لا أريد حربا — أكرر هذا القول وأعيد تكراره ما حييت ، ولكن إذا تحرش بى أحد ورام بى شراً حينذاك لن يسعنى أن أسكت وأن ألزم السكينة وأن أقبع فى عقر دارى وأترك بلادى غنيمة باردة لمن يطمع فيها . نحن قوم لا تخيفنا الحروب ولا يرجفنا صليل السيوف . فقد نشأنا على متون الخيل وسنموت على متونها ، اذا كان لا بد من الحروب غير أننا — أكرر هذا للمرة الثالثة — لا نريد حربا ولا نضمر لأحد شرا ! وثق يا أخى أننا أرغمنا على خوض غمار هذه الحرب ولم نخضها مختارين ، فنحن ندافع عن كياننا ولا نهدد كيان الآخرين » .

وفعلا دارت مفاوضات الصلح حينما أراد الله وأقام «ابن سعود» مأدبة للوفدين الاسلامى واليمانى وقد ساد هذه المأدبة جو من حسن التفاهم لأول مرة منذ بدأت المعارك وشرح «ابن سعود» موقفه من إمام اليمن وكان امام اليمن قد أرسل إلى مندوبه السيد عبد الله الوزيرى برقية أمره فيها بمفاوضة الحكومة السعودية .

وقد سافر اثر ذلك وفد المؤتمر الاسلامى إلى الحديدة فى طريقه من الطائف (مصيف الملك ابن سعود) إلى صنعاء (مقر الامام يحيى) مع السيد عبد الله الوزيرى ، وسافر أيضا مندوبون عن المملكة السعودية لابرام المعاهدة .

والقاعدة الدولية المتبعة فى مثل هذه الأحوال أن تعرض المعاهدة التى يوقع عليها المندوبون المفوضون على برلمانى الطرفين الموقعين كى يقراها فتصبح مبرمة يسرى مفعولها بمجرد تبادلها بين الحكومتين بعد هذا الابرام البرلمانى

أما وليس فى المملكة العربية السعودية ولا فى اليمن نظام دستورى فقد اتفق الطرفان على أن يكون إبرام المعاهدة التى عقدت بينهما اثر مفاوضات «الطائف» عن طريق ذهاب مندوبين من قبل الحكومة العربية السعودية إلى اليمن حاملين المعاهدة ممهورة بتوقيع الملك «ابن سعود» ذاته يسلمونها لمندوبى الحكومة اليمنية مقابل تسلمهم صورة أخرى من المعاهدة ذاتها ممهورة بتوقيع الامام يحيى حميد الدين ، وبهذا يتم اجراء الابرام وتصبح العلاقات بين الدولتين منظمة.

وقد استندت هذه المعاهدة فى عمومها وفى خصوصها إلى مبدأ «لا غالب ولا مغلوب» من الطرفين جميعا فليست هناك غرامة حربية ولا تعويضات عن خسائر لحقت بأحدهما أو بهما معا . ولا استبقاء لأقاليم فريق احتلها الفريق الآخر

وعلى هذه القاعدة الأساسية سلم الامام يحيى الأدارسة على اعتبار أنهم من رعايا المملكة السعودية وأعاد الرهائن وأخلى المناطق الجبلية التى احتلها سيف الاسلام كما أخلى السعوديون «ميدى» وما إليها من البلاد التى احتلوها.

وبذلك فرح العالم الاسلامى اذ نجت الجزيرة من شرور شياطين الاستعمار ومن أغراض المغرضين أمثال بعض المصريين — ونذكر ذلك مع الأسف الشديد — الذين ضبطت السلطة السعودية حين احتلالها «الحديدة» رسالات وجهوها الى امام اليمن يحضونه فيها على استمرار القتال ويلصقون فى غير تورع أشنع التهم بوفد المؤتمر الاسلامى الذى نجح فى مهمته رغم أنوفهم وانتهى جهاده فى هذا الصدد بابرام المعاهدة التى ننشرها فيما يلى : —

النص الرسمى لمعاهدة الصلح

بين المملكة العربية السعودية، والمملكة اليمنية

عهد التحكيم بين المملكتين العربيتين

وصف المعاهدة بأنها معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

نحن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية بما أنه قد عقدت بيننا و بين حضرة صاحب الجلالة الملك الامام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية لانهاء حالة الحرب الواقعة لسوء الحظ بيننا وبين جلالته ، ولتأسيس علاقات الصداقة الاسلامية بين بلادينا ووقعها مندوب مفوض من قبلنا ومندوب مفوض من قبل جلالته ، وكلاهما حائزان للصلاحية التامة المقابلة وذلك فى مدينة جدة فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهى مدرجة مع عهد التحكيم والكتب الملحقة بها فيما يلى :—

معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية

بين المملكة العربية السعودية وبين المملكة اليمنية

حضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل

سعود ملك المملكة العربية السعودية من جهة

وحضرة صاحب الجلالة الامام يحيي بن محمد حميد الدين ملك اليمن من جهة أخرى

رغبة منهما فى إنهاء حالة الحرب التى كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ورغبة فى جمع كلمة الأمة الاسلامية العربية ورفع شانها وحفظ كرامتها واستقلالها

ونظرا لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة

وحبا فى تثبيت الحدود بين بلاديهما ، وإنشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقة الاسلامية فيما بينهما ، وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما

ورغبة فى أن يكونا عضدا واحدا أمام الملمات المفاجئة وبنيانا متراصا للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية ، قررا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما ، وانتدبا لذلك الغرض مندوبين مفوضين عنهما ، وهما عن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية :

حضرة صاحب السمو الملكى الأمير خالد ابن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس مجلس الوكلاء .

وعن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن :

حضرة صاحب السيادة السيد عبد الله بن أحمد الوزير

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الآنى الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق . وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التى بيد كل منهما فوجداها موافقة للاصول قررا باسم ملكيهما الاتفاق على المواد الآتية

المادة الأولى

تنتهي حالة الحرب القائمة بين المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة وتنشأ فورا بين جلالة الملكين وبلاديهما وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة اسلامية عربية دائمة لا يمكن الاخلال بها جميعها أو بعضها، ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التي قد تقع بينهما، وبان يسود علاقتهما روح الاخاء الاسلامي العربي في سائر المواقف والحالات، ويشهدون الله على حسن نواياهما ورغبتهما الصادقة في الوفاق والاتفاق سراً وعلناً، ويرجوان منه سبحانه وتعالى أن يوفقهما وخلفاءهما وورثاءهما وحكومتيهما الى السير على هذه الخطة القويمة التي فيها رضاء الخالق وعز قومهما ودينهما

المادة الثانية

يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين استقلالا تاما مطلقا وبمالكيته عليها، فيعترف حضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية لحضرة صاحب الجلالة الامام يحيي ولخلفائه الشرعيين باستقلال مملكة اليمن استقلالا تاما مطلقا، وبالمالكية على مملكة اليمن. ويعترف حضرة صاحب الجلالة الامام يحيي بن محمد حميد الدين ملك اليمن لحضرة صاحب الجلالة الامام عبدالعزيز ولخلفائه الشرعيين باستقلال المملكة العربية السعودية استقلالا تاما مطلقا وبالملكية على المملكة العربية السعودية ويسقط كل منهما أي حق يدعيه في قسم أو أقسام من بلاد الآخر خارج الحدود القطعية المبينة في صلب هذه المعاهدة

ان جلالة الامام الملك عبدالعزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه

من حماية أو احتلال أو غيرهما فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التى كانت بيد الأدارسة وغيرها كما أن جلالة الامام الملك يحيى يتنازل بهذه المعاهدة عن أى حق يدعيه باسم الوحدة اليمانية أو غيرها فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو آل عائض أو فى نجران وبلاد يام

المادة الثالثة

يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على الطريقة التى تكون بها الصلات والمراجعات بما فيه حفظ مصالح الطرفين وبما لا ضرر فيه على أيهما على أن لا يكون ما يمنحه أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر أقل مما يمنحه لفريق ثالث . ولا يوجب هذا على أى الفريقين أن يمنح الآخر أكثر مما يقابله بمثله .

المادة الرابعة

خط الحدود الذى يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافى فيما يلى ويعتبر هذا الخط حدا فاصلا قطعيا بين البلاد التى تخضع لكل منهما :

يبدأ خط الحدود بين المملكتين اعتبارا من النقطة الفاصلة بين ميدى والموسم على ساحل البحر الاحمر الى جبال تهامة فى الجهة الشرقية ثم يرجع شمالا الى أن ينتهى الى الحدود الغربية الشمالية التى بين بنى جماعة ومن يقابلهم من جهة الغرب والشمال ثم ينحرف الى جهة الشرق الى أن ينتهى الى ما بين حدود نقعة ووعار التابعتين لقبيلة وائلة وبين حدود يام ثم ينحرف الى أن يبلغ مضيق مروان وعقبة رفادة ثم ينحرف الى جهة الشرق حتى ينتهى من جهة الشرق الى أطراف الحدود بين من عدا يام من همدان بن زيد وائلى وغيره

وبين يام فكل ما عن يمين الخط المذكور الصاعد من النقطة المذكورة التى على ساحل البحر الى منتهى الحدود فى جميع جهات الجبال المذكورة فهو من المملكة اليمانية وكل ماهو عن يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية فما هو فى جهة اليمين المذكورة هو ميدى وحرض وبعض قبيلة الحرث والمير وجبال الظاهر وشذا والضيعة وبعض العبادل وجميع بلاد وجبال رازح ومنبه مع عرو آل أمشيخ وجميع بلاد وجبال بنى جماعة وسحار الشام بياد وما يليها ومحل مربصغة من سحار الشام وعموم سحار ونقعة ووعار وعموم وائلة وكذا الفرع مع عقبة نهوقة وعموم من عدا يام ووادعة ظهران من همدان بن زيد. هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكل ما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطا ارتباطا فعليا أو تحت ثبوت يد المملكة اليمانية قبل سنة ١٣٥٢ كل ذلك هو فى جهة اليمين فهو من المملكة اليمانية وما هو فى جهة اليسار المذكورة وهو الموسم ووعلان وأكثر الحرث والخوبة والجابرى وأكثر العبادل وجميع فيفا وبنى مالك وبنى حريص وآل تليد وقحطان وظهران وادعة وجميع وادعة ظهران مع مضيق مروان وعقبة رفادة وما خلفها من جهة الشرق والشمال من يام ونجران والحضن وزور وادعة وسائر من هو فى نجران من وائلة وكل ما هو تحت عقبة نهوقة إلى أطراف نجران ويام من جهة الشرق هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكل ماهو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمها مما كان مرتبطا ارتباطا فعليا أو تحت ثبوت يد المملكة العربية السعودية قبل سنة ١٣٥٢ كل ذلك هو فى جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية. وماذكر من يام ونجران والحضن وزور وادعة وسائر من هو فى نجران من وائلة فهو بناء على ما كان من تحكيم جلالة الامام يحيى لجلالة الملك

عبد العزيز فى يام والحكم من جلالة الملك عبد العزيز بأن جميعها تتبع المملكة العربية السعودية . وحيث أن الحضن وزور وادعة ومن هو من وائلة فى نجران هم من وائلة ولم يكن دخولهم فى المملكة العربية السعودية إلا لما ذكر فذلك لا يمنعهم ولا يمنع إخوانهم وائلة عن التمتع بالصلات والمواصلات والتعاون المعتاد والمتعارف به.

ثم يمتد هذا الخط من نهاية الحدود المذكورة آنفا بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدايام من همدان بن زيد وسائر قبائل اليمن فللمملكة اليمانية كل الأطراف والبلاد اليمانية إلى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات . وللمملكة العربية السعودية كل الأطراف والبلاد إلى منتهى حدودها من جميع الجهات وكل ماذكر فى هذه المادة من نقط شمال وجنوب وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود فى اتجاه الجهات المذكورة وكثيرا ما يميل لتداخل ما إلى كل من المملكتين . أما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على أكمل الوجوه فيكون إجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل .

المادة الخامسة

نظرا لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى دوام السلم والطمأنينة والسكون وعدم ايجاد أى شيء يشوش الأفكار بين المملكتين فانهما يتعهدان تعهدا متقابلا بعدم إحداث أى بناء محصن فى مسافة خمسة كيلومترات فى كل جانب من جانبى الحدود فى كل المواقع والجهات على طول خط الحدود

المادة السادسة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بسحب جنده فورا عن البلاد

التى أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الأهلين والجند عن كل ضرر .

المادة السابعة

يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يمنع كل منهما أهالى مملكته عن كل ضرر وعدوان على أهالى المملكة الاخرى فى كل جهة وطريق وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادى من الطرفين وبرد كل ما ثبت أخذه بالتحقيق الشرعى من بعد إبرام هذه المعاهدة وضمان ماتلف وبما يلزم بالشرع فيما وقع من جناية قتل أو جرح و بالعقوبة الحاسمة على من ثبت منهم العدوان ويظل العمل بهذه المادة ساريا إلى أن يوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق وتقدير الضرر والخسائر .

المادة الثامنة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهدا متقابلا بأن يمتنعا عن الرجوع للقوة لحل المشكلات بينهما وبأن يعملا جهدهما لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من الاختلاف سواء كان سببه ومنشؤه هذه المعاهدة أو تفسير كل أو بعض موادها أو كان ناشئاً عن أى سبب آخر بالمراجعات الودية وفى حالة عدم إمكان التوفيق بهذه الطريقة يتعهد كل منهما بان يلجأ إلى التحكيم الذى توضح شروطه وكيفية طلبه وحصوله فى ملحق مرفق بهذه المعاهدة . ولهذا الملحق نفس القوة و النفوذ اللذين لهذه المعاهدة ويحسب جزءاً منها متمما للكل فيها .

المادة التاسعة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع بكل ما لديه من لوسائل المادية والمعنوية استعمال بلاده قاعدة ومركزا لأى عمل عدوانى أو

شروع فيه أو استعداد له ضد بلاد الفريق الآخر . كما أنه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجرد وصول طلب خطى من حكومة الفريق الآخر وهى :

(١) ان كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوب منها اتخاذ التدابير فبعد التحقيق الشرعى وثبوت ذلك يؤدب فورا من قبل حكومته بالادب الرادع الذى يقضى على فعله و يمنع وقوع أمثاله

(٢) وان كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير فانه يلقى القبض عليه فورا من قبل الحكومة المطلوب منها و يسلم إلى حكومته الطالبة. وليس للحكومة المطلوب منها التسليم عذر عن انفاذ الطلب. وعليها اتخاذ كافة الاجراءات لمنع فرار الشخص المطلوب أو تمكينه من الهرب وفى الأحوال التى يتمكن فيها الشخص المطلوب من الفرار فان الحكومة التى فر من أراضيها تتعهد بعدم السماح له بالعودة إلى أراضيها مرة أخرى ، وإن تمكن من العودة اليها يلقى القبض عليه و يسلم إلى حكومته .

٣ — و إن كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا حكومة ثالثة فان الحكومة المطلوب منها والتى يوجد الشخص على أراضيها تقوم فورا و بمجرد تلقيها الطلب من الحكومة الأخرى بطرده من بلادها وعده شخصا غير مرغوب فيه و يمنع من العودة اليها فى المستقبل .

المادة العاشرة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم قبول من يفر عن طاعة دولته كبيرا كان أم صغيرا موظفاً أم غير موظف فردا كان أم جماعة ويتخذ كل من الفريقين الساميين المتعاقدين كافة التدابير الفعالة من إدارية وعسكرية وغيرها لمنع دخول هؤلاء الفارين إلى حدود بلاده . فان تمكن أحدهم أو كلهم من اجتياز خط الحدود بالدخول فى أراضيه فيكون عليه واجب نزع

السلاح من الملتجىء والقاء القبض عليه وتسليمه إلى حكومة بلاده الفار منها وفى حالة عدم إمكان القبض عليه تتخذ كافة الوسائل لطرده من البلاد التى لجأ اليها إلى بلاد الحكومة التى يتبعها

المادة الحادية عشرة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الأمراء والعمال والموظفين التابعين له من المداخلة بأى وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بالذات أو بالواسطة ويتعهد باتخاذ كامل التدابير التى تمنع حدوث القلق أو توقع سوء التفاهم بسبب الأعمال المذكورة

المادة الثانية عشرة

يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن أهل كل جهة من الجهات الصائرة إلى الفريق الآخر بموجب هذه المعاهدة رعية لذلك الفريق

ويتعهد كل منهما بعدم قبول أى شخص أو أشخاص من رعايا الفريق الآخر رعية له إلا بموافقة ذلك الفريق وبأن تكون معاملة رعايا كل من الفريقين فى بلاد الفريق الآخر طبقا للأحكام الشرعية المحلية

المادة الثالثة عشرة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين باعلان العفو الشامل الكامل عن سائر الاجرام والأعمال العدائية التى يكون قد ارتكبها فرد أو أفراد من رعايا الفريق الآخر المقيمين فى بلاده ، أى فى بلاد الفريق الذى منه اصدار العفو ، كما أنه يتعهد باصدار عفو عام شامل كامل عن أفراد رعاياه الذين لجأوا أو انحازوا أو باى شكل من الأشكال انضموا إلى الفريق الآخر عن كل جناية ومال أخذوا منذ لجؤا إلى الفريق الآخر إلى عودهم كائنا ما كان وبالغا ما بلغ وبعد السماح باجراء أى نوع من الايذاء أو التعقيب أو التضييق بسبب

ذلك الالتجاء أو الانحياز أو الشكل الذى انضموا بموجبه . وإذا حصل ريب عند أى الفريقين بوقوع شىء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنده الريب أو الشك من الفريقين مراجعة الفريق الآخر لأجل اجتماع المندوبين الموقعين على هذه المعاهدة وإن تعذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحى ممن له كامل الرغبة والعناية بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الأمر حتى لا يحصل أى حيف ولا نزاع ، وما يقرره المندوبان يكون نافذا .

المادة الرابعة عشرة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين برد وتسليم أملاك رعاياه الذين يعفى عنهم إليهم أو الى ورثتهم عند رجوعهم إلى وطنهم خاضعين لأحكام مملكتهم ، وكذلك يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بعدم حجز أى شىء من الحقوق والأملاك التى تكون لرعايا الفريق الآخر فى بلاده ولا يعرقل استثمارها أو أى نوع من أنواع التصرفات الشرعية فيها .

المادة الخامسة عشرة

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فرداً أم هيئة أم حكومة أو الاتفاق معه على أى أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر أو يضر ببلاده أو يكون من ورائه إحداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها ومصالحها وكيانها للاخطار .

المادة السادسة عشرة

يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الاخوة الاسلامية والعنصرية العربية أن أمتهما أمة واحدة وانهما لا يريدان بأحد شرا وانهما يعملان جهدهما لاجل ترقية شؤون أمتهما فى ظل الطمأنينة والسكون

وان يبذلا وسعهما فى سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أى عدوان على أية أمة .

المادة السابعة عشرة

فى حالة حصول اعتداء خارجى على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الآتية :

أولا — الوقوف على الحياد التام سراً وعلناً .

ثانياً — المعاونة الادبية والمعنوية الممكنة .

ثالثاً — الشروع فى المذاكرة مع الفريق الآخر لمعرفة أنجع الطرق لضمان سلامة بلاد ذلك الفريق ومنع الضرر عنها والوقوف فى موقف لا يمكن تاويله بانه تعضيد للمعتدى الخارجى

المادة الثامنة عشرة

فى حالة حصول فتن أو اعتداءات داخلية فى بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهدا متقابلا بما يأتى :

أولا — اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين أو الثائرين من الاستفادة من أراضيه

ثانيا — منع التجاء اللاجئين الى بلاده وتسليمهم أو طردهم اذا التجأوا اليها كما هو موضح فى المادة (التاسعة والعاشرة) أعلاه

ثالثا — منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين أو الثائرين وعدم تشجيعهم أو تموينهم

رابعا — منع الامدادات والارزاق والمؤن والذخائر عن المعتدين أو الثائرين

المادة التاسعة عشرة

يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما فى عمل كل ممكن لتسهيل

المواصلات البريدية والبرقية وتزييد الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما . وفى اجراء مفاوضات تفصيلية من أجل عقد اتفاق جمركي يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية فى عموم البلادين أو بنظام خاص بصورة كافلة لمصالح الطرفين وليس فى هذه المادة مايقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين فى أى شيء حتى يتم عقد الاتفاق المشار اليه

المادة العشرون

يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لان يأذن لممثليه ومندوبيه فى الخارج ان وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر ذلك فى أى شيء وفى أى وقت . ومن المفهوم أنه حينما يوجد فى ذلك العمل شخص من كل من الفريقين فى مكان واحد فانهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما للعمل لمصلحة البلادين التى هى كأمة واحدة . ومن المفهوم أن هذه المادة لاتقيد حرية أحد الجانبين بأى صورة كانت فى أى حق له كما انه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو اضطراره اسلوك هذه الطريقة .

المادة الحادية والعشرون

يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها فى ٥ شعبان ١٣٥٠ على كل حال اعتبارا من تاريخ إبرام هذه المعاهدة .

المادة الثانية والعشرون

تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل حضرة صاحبي الجلالة الملكين فى أقرب مدة ممكنة نظرا لمصلحة الطرفين فى ذلك وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات ابرامها مع استثناء مانص عليه فى المادة الاولى من انهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع وتظـــل سارية المفعول مدة عشرين

سنة قمرية تامة ، ويمكن تجديدها أو تعديلها خلال الستة الاشهر التى تسبق تاريخ انتهاء مفعولها . فان لم تجدد أو تعدل فى ذلك التاريخ تظل سارية المفعول إلى مابعد ستة أشهر من اعلان أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر رغبته فى التعديل .

المادة الثالثة والعشرون

تسمى هذه المعاهدة بمعاهدة الطائف وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة . واشهادا بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه

وكتب فى مدينة جدة فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلثمائة والألف

(التوقيع)	(التوقيع)
خالد بن عبد العزيز السعود	عبد الله بن أحمد الوزير

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد التحكيم

بين المملكة العربية السعودية

وبين مملكة اليمن

بما أن حضرة صاحبي الجلالة الامامين الملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية والملك يحي ملك اليمن قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة بمعاهدة الطائف والموقع عليها فى السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والالاف على أن يحيلا الى التحكيم اى نزاع أوخلاف ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهما

وبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حله فان الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان باجراء التحكيم على الصورة المبينة فى المواد الآتية :

المادة الأولى

يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل باحالة القضية المتنازع فيها على التحكيم خلال شهر واحد من تاريخ استلام طلب إجراء التحكيم من الفريق الآخر إليه

المادة الثانية

يجرى التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساو من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم ومن حكم وازع ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين وإن لم يتفقا على ذلك يرشح كل منهما شخصا فان قبل أحد الفريقين بالمرشح الذى يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعا ، وان لم يمكن الاتفاق على ذلك تجرى القرعة على أيهما يكون وازعا مع العلم بأن القرعة لاتجرى إلا على الأشخاص المقبولين من الطرفين - فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيساً لهيئة التحكيم ووازعا للفصل فى القضية وان لم يحصل الاتفاق على الأشخاص المقبولين من الطرفين تجرى المراجعات فيما بعد إلى أن يحصل الاتفاق على ذلك

المادة الثالثة

يجب أن يتم اختيار هيئة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحد من بعد انقضاء الشهر المعين لاجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر . ويجتمع هيئة المحكمين فى المكان الذى يتم الاتفاق عليه فى مدة لاتزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين فى أول المادة .

وعلى هيئة المحكمين أن تعطى حكمها خلال مدة لايمكن بأى حال من الأحوال أن تزيد عن شهر واحد من بعد انقضاء المدة التى عينت للاجتماع كما هو مبين

أعلاه ، ويعطى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ويكون الحكم ملزما للفريقين ويصبح تنفيذه واجبا بمجرد صدوره وتبليغه . ولكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين الشخص أو الأشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أمام هيئة التحكيم وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك

المادة الرابعة

أجور محكمى كل فريق عليه وأجور رئيس هيئة التحكيم مناصفة بينهما وكذلك الحكم فى نفقات المحاكمة الأخرى

المادة الخامسة

يعتبر هذا العهد جزءاً متمما لمعاهدة الطائف الموقع عليها فى هذا اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف ، ويظل سارى المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة ، وقد حرر هذا من نسختين باللغة العربية يكون بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة

وقراراً بذلك جرى توقيعه فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

(التوقيع)	(التوقيع)
خالد بن عبد العزيز السعود	عبد الله بن احمد الوزير

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة الاخ صاحب السيادة السيد عبد الله الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الامام يحيى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله . أما بعد فانه بمناسبة توقيع معاهدة الطائف

بيننا وبينكم نيابة عن جلالتى ملكى المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية أحب أن أثبت لكم فى كتابى هذا أنه لايمكن اعتبار تلك المعاهدة وقبول إنفاذ مقتضاها إلا فى اثبات مايأتى :

١ — أن يجرى تسليم الادارسة وإخلاء جبالنا فى تهامة وإطلاق رهائن أهلها حالا .

٢ — أن يظل مضمون هذه المعاهدة مكتوما ولا ينشره أحد الفريقين ولا سيما مايتعلق منها بمسألة الحدود لما يحدث ذلك من التشويش فى تهامة خاصة وأن انسحاب جند جلالة الملك عبدالعزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء انسحابه الى آخره ، وكل حادث عدوانى عليه فى خلال تلك المدة يكون مضمونا من قبل جلالة الامام يحيى وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(التوقيع)

خالد بن عبد العزيز السعود

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر ١٣٥٣

من عبد الله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ ٦ صفر ١٣٥٣ وقد أحطت علما بما اشترطتموه سموكم لانفاذ معاهدة الطائف التى عقدت بين الفريقين من تسليم الادارسة وإخلاء الجبال التى كانت محتلة من قبل جنود جلالة الامام يحيى من بلاد جلالة الملك عبد العزيز وإطلاق رهائن أهلها ، وأن تظل هذه المعاهدة مكتومة وعلى الاخص مسألة الحدود

إلى أن يتم ترتيب الاتفاق الذى اتفقنا عليه لانفاذه ، وأن انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء الانسحاب إلى آخره ، وأن كل حادث عدوانى عليه فى خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الامام يحيى .

لقد أحطت علما بذلك ويسرنى أن أعلن سموكم بقبولنا وموافقتنا لاشتراطكم وانه سيكون مرعيا من جهاتنا وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(التوقيع)

عبد الله بن احمد الوزير

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريرا فى ٦ صفر ١٣٥٣

من عبد الله الوزير إلى حضرة صاحب السمو الملكى الامير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأتشرف بأن أثبت هنا إلحاقا بمعاهدة الطائف الموقع عليها من قبل سموكم نيابة عن جلالة الملك عبد العزيز والموقعة من قبلى نيابة عن جلالة الملك الامام يحيى ، وأتعهد باسم جلالة الامام يحيى بما هو آت .

١ — تسليم الأدارسة لجلالة الملك عبد العزيز وقد عملت الترتيبات اللازمة لتسليم السيد الحسن والسيد عبد العزيز بن محمد الادريسى وسيسلمون حالا لرجال سمو الأمير فيصل فى تهامة . أما السيد عبد الوهاب الادريسى فنظراً لأنه لايزال إلى الآن فى بلاد العبادل فقد اتخذت الوسائل والوسائط لاستدعائه من تلك الانحاء لتسليمه ، فان لم يطع الأمر فأتعهد باسم جلالة الامام يحيى بشأنه بما يأتى :

ا — أن تمتنع حكومة الامام يحيي عن كل مساعدة مادية أو معنوية له ، وأن تمنع عنه من بلادها أى معاضدة أو معاونة

ب — إذا أرادت حكومة جلالة الملك عبد العزيز القبض عليه فى الأراضى التى هو فيها فان حكومة الامام يحيي ستعمل من جهتها سائر وأنواع التضيقات العسكرية التى تستطيعها لمنع فراره إلى أراضيها ، وتتعهد ان تلق القبض عليه وعلى كل شخص اشترك معه فى حركته من أى جهة وقبيل من قبائل المملكة العربية السعودية وان تسلمهم لحكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير شرط ولاقيد اذا دخلوا إلى جهات المملكة اليمانية ، وان تمنع فراره أو فرار أى شخص من الذين اشتركوا معه فى عمله الى الخارج اذا دخلوا إلى أراضى المملكة اليمانية

٢ — أما من كان له تعاق بالأدارسة وحركتهم من الأشراف أوغيرهم فاذا أرادو اللحاق بالادريسى فلهم الامان من قبل حكومة جلالة الملك عبد العزيز والصيانة والاحترام والاكرام اللائق بحقهم واذا لم يشاءوا ذلك فانهم يخرجون من بلاد جلالة الامام يحيي ولا يسمح لهم بالبقاء فيها واذا عادوا اليها مرة اخرى فيطردون حالا ، وينذرون بانهم اذا عادوا يسلمون الى حكومة جلالة الملك عبد العزيز فان عادوا بعد طردهم فاتعهد باسم جلالة الامام يحيي بتسليمهم الى حكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير قيد ولاشرط

فأرجو أن تعتبروا هذا سموكم عهدا وثيقا له منزلة المعاهدة المعقودة بيننا وبين سموكم بهذا اليوم وعلى هذا عهد الله وميثاقه وارجو أن يكون هذا طبقا للاتفاق الشفوى الذى اتفقنا عليه فى هذا الشأن ؟

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(التوقيع)

عبد الله بن أحمد الوزير

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة صاحب السيادة الأخ السيد عبد الله الوزير المفوض من قبل جلالة الملك الامام يحيى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فأتشرف بأن أعلمكم باستلامى كتاب سيادتكم بتاريخ اليوم بشأن ما تعهدتم به باسم جلالة الامام يحيى بشأن الادارسة وأتباعهم ، وأنا على ثقة بأن ما تعهدتم به سيكون تنفيذه بمقتضى الأمانة والوفاء المأمول فى جلالة الامام يحيى ، ونتمنى أن يكون تنفيذه بأسرع مدة ممكنة

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

(التوقيع)

خالد بن عبد العزيز السعود

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى ٦ صفر ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز إلى حضرة المكرم السيد عبد الله الوزير حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فبمناسبة توقيع معاهدة الطائف بين مملكتنا ومملكة اليمن أثبت هنا ما اتفقنا عليه بشأن تنقلات المتنقلين من رعايا المملكة العربية السعودية ورعايا المملكة اليمانية فى البلادين . أن التنقل فى الوقت الحاضر يظل على ما كان عليه فى السابق إلى أن يوضع بين البلدين

اتفاق خاص بشان الطريقة التى ترى الحكومتان متفقتين اتخاذها من أجل تنظيم الانتقال سواء للحج او التجارة او غيرها من الاغراض والمنافع ، فأرجو ان أنال جوابكم بالموافقة على ما اتفقنا عليه بهذا الشأن .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

(التوقيع)

خالد بن عبد العزيز السعود

بسم الله الرحمن الرحيم

حرر فى صفر ١٣٥٣

من عبد الله الوزير إلى صاحب السمو الملكى الامير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ ٦ صفر بشأن تنقلات رعايا الفريقين بين البلادين وانى على اتفاق مع سموكم فى أن يكون الانتقال فى الوقت الحاضر طبقا للطريقة التى كان السير عليها من قبل إلى أن يوضع اتفاق خاص بشأن تنظيم الانتقال فى المستقبل ، وان ذلك سيكون مرعيا من جانب حكومتنا كما هو مرعى من جانب حكومتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(التوقيع)

عبد الله بن أحمد الوزير

*
* *

فبعد أن اطلعنا على هذه المعاهدة السابقة الذكر ، وعلى عهد التحكيم والكتب التى ألحقت بها وأمعنا النظر فيها صدقناها وقبلناها وأقررناها جملة

فى مجموعها ومفردة فى كل مادة وفقرة منها كما اننا نصدقها ونبرمها وتتعهد ونعد وعداً ملوكيا صادقا باننا سنقوم بحول الله بما ورد فيها ونلاحظه بكمال الامانة والاخلاص وبأننا لن نسمح بمشيئة الله بالاخلال بها بأى وجه كان طالما نحن قادرون على ذلك ، وزيادة فى تثبيت صحة كل ماذكر فيها أمرنا بوضع خاتمنا على هذه الوثيقة ووقعناها بيدنا والله خير الشاهدين .

حرر بقصرنا فى الطائف فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

تم الكتاب ، والحمد لله فى البدء والختام

